مركز دراسات الوحدة العربية

احمد الدبش

مكتبة النجف

القدس
التاريخ الحقيقي
من اقدم العصور الى الاحتلال الفارسي

مركز دراسات الوحدة العربية
القدس التاريخ الحقيقي
من اقدم العصور الى الاحتلال الفارسي
احمد الدبش

أحمد الدبش

القدس التاريخ الحقيقي

من أقدم العصور إلى الاحتلال الفارسي

مركز دراسات الوحدة العربية

جميع الحقوق محفوظة©

الإهداء

إلى وئام الزوجة والصديقة
إلى ابْنَيْنا إيلياء ومجدل

أحمد الدبش

مقدمة
هل نستطيــع كتابة تاريخ القدس؟

إن السؤال الذي أريد إيضاحه هو إذا ما كان في استطاعتنا (مؤرخين أو آثاريين أو باحثين)، تحرير الحقائق التاريخية المتعلقة بتاريخ فلسطين القديم ومن ضمنه تاريخ مدينة القدس، من ماضٍ خيالي فرض علينا بواسطة خطاب الدراسات التوراتية؟ هذا، كما أظن، هوَ السؤال المركزي لإعادة اكتشاف وكتابة تاريخ فلسطين القديم ومن ضمنه تاريخ مدينة القدس.

يواجه الباحث صعوبات كبيرة في كتابة تاريخ فلسطين القديم لقلة المصادر المكتوبة، وبخاصة قبل الألف الثاني قبل الميلاد، ولأن اعتماده الرئيسي هو على المكتشفات الأثرية التي تملأ آلاف المجلدات وعشرات الدوريات. وتعتمد هذه المكتشفات في تفسيرها على منطلقات المنقبين وخلفياتهم وأهدافهم. وإلى جانب الغايات العلمية، ذهب كثيرون لتفسير المادة الحضارية تبعًا لذلك، فجاءت نتائج البحث مشوَّهة أبعدت عنها قوة الشخصية الحضارية الفلسطينية ودورها في الحضارة الإنسانية، وألصقت مقومات هذه الحضارة لشعوب وقبائل مهاجرة إلى فلسطين أحيانًا، أو أنها جعلت قوة غيبية خفيّة مسؤولة عن هذا الإنجاز الكبير، وأنكرت بذلك أن يكون الشعب الفلسطيني الذي عرف كيف يتكيف مع بيئته الصانع الفعلي لهذه الحضارة، على الرغم مما واجه من تحديات [(1)].

لقد جرى تغييب الهوية الفلسطينية العربية عن كل المكتشفات الأثرية، وصار كل مكتشف أثري ينسب لشعب جديد، وحضارة جديدة، ولغة جديدة، وفرض علينا قسريًا تسميات ساذجة من «الكتاب المقدس».

في هذا الصدد يقول المفكر الفرنسي، بير روسي، في كتابه **مدينة إيزيس: التاريخ الحقيقي للعرب**: أليس هذا «هوسنا المحب للخصام الذي بدأ تفريقه شعبًا إلى شعوب أقرباء كالمؤابين والمؤدنين أو العموريين، والكنعانيين، والآراميين، والسوريين... إلخ ولماذا؟ لأننا نعني أن نميز فيهم خصومات عرقية أو طائفية تجبرنا على أن نضع بينهما العبرانيين، وذلك لكي نقدم الدليل بكل ثمن على صحة العهد القديم» [(2)].

في هذا السياق، أدّى علم الآثار دورًا مهمًا، وكان هدفه إيجاد علاقة بين دولة «إسرائيل الحديثة» والعصر الحديدي «الإسرائيلي» المزعوم. ونتج من ذلك أن الطبيعة التعددية لتاريخ فلسطين قد اختفت فعليًا من الوعي العام، واختفى معها أيضًا التاريخ والتراث الثقافي العربي القديم. كما جرى انتحال العديد من المواقع الأثرية والتاريخية الفلسطينية، والأماكن المقدّسة، التي تمثّل جزءًا لا يتجزأ من التراث الثقافي الوطني الفلسطيني، بوصفها «توراتية» أو «يهودية».

في هذه الأثناء، واصل أصحاب وأنصار الخطاب التوراتي مساعيهم لتهويد وتهجير الذاكرة الفلسطينية.

لن أملّ من تكرار حقيقة معروفة، وهي أنه بعد مرور أكثر من قرن ونيِّف على التنقيب الأثري الذي لم يترك شبرًا أو حجرًا من أرض فلسطين دون قلبها، لم يعثر على أثر واحد يربط «العهد القديم» بها، وأي ادعاء بغير ذلك غير صحيح على الإطلاق وهو تزوير للحقائق.

من هنا، يطرح السؤال الحاسم نفسه علينا (مؤرخين أو آثاريين أو باحثين) **هل بمقدورنا كتابة تاريخ مدينة القدس الحقيقي؟!** يمكننا القول إننا قادرون (سواء أكنا مؤرخين أم آثاريين أم باحثين) على كتابة تاريخ مدينة القدس الحقيقي، إذا أخذنا على عاتقنا تحرير الحقائق التاريخية المتعلقة بتاريخ فلسطين القديم ومن ضمنه تاريخ مدينة القدس، من ماضٍ خيالي فرض علينا بواسطة خطاب الدراسات التوراتية. وحتى نتمكن من تحقيق هذه الفكرة، علينا العمل على تفكيك الرواية التوراتية، والشروع في الخروج من بوتقة «الكتاب المقدس» بوصفه تاريخًا. فاليوم الذي يتوقف فيه «الكتاب المقدس» عن تغذية تاريخنا الفلسطيني، تغدو فيه كتابتنا للرواية التاريخية الفلسطينية - العربية، رواية لها بداية ونهاية؛ أي تمتد من ماضيها القديم إلى حاضرها الحديث، رواية محررة من إمبراطورية الأفكار التوراتية.

يأتي كتابنا هذا ضمن منهج مبنيّ على اعتماد نتائج الحفريات الأثرية، وتفكيك الرواية التوراتية، وتقديم رواية حقيقية بديلة لتاريخ مدينة القدس استنادًا إلى المعلومات الأركيولوجية الجديدة.

لقد تم تصنيف مواضيع الكتاب، من خلال أربعة عشر فصلًا.

كرّسنا الفصل **الأول**، وهو «جغرافية مدينة القدس»، إلى إطلالة جغرافية وطبوغرافية لمدينة القدس، والحديث عن موقع المدينة ونشأتها على عدد من التلال يفصل بينها بعض الأودية، ويحيط بها مجموعة أخرى من الجبال والأودية، تمثل في مجموعها الحصانة الطبيعية للمدينة.

أما الفصل **الثاني**، وهو «المسوحات والتنقيبات الأثرية في القدس»، فقد جرى فيه استعراض المسح التاريخي والحفريات الأثرية في مدينة القدس خلال الأعوام 1738 - 2011، وتوصلنا إلى أن جميع الحفريات التي تمت في مدينة القدس، تثبت أن ما ذكره المنقبون من تصورات تربط مدينة القدس بالروايات التوراتية، هي تصورات وهمية قام الأثريون بافتراضها، اعتمادًا على النص التوراتي كمرجعية في تفسير الآثار وفهمها.

أما الفصل **الثالث**، وهو «بدايات سكنى أرض القدس»؛ فنشير فيه إلى أن قصة أصل الحضارة الإنسانية ثم مولدها وتطورها، ليست إلا سلسلة متعاقبة بدأت في بلادنا فلسطين ومن ضمنها القدس، وليس بين شعوب العالم أجمع

من هو أولى من شعبنا بالعناية، وبذل الجهد في سبيل نشر هذا الفرع من المعرفة، لأن القدر أراد لنا أن نولد، ونعيش، في هذه البقعة التي نبتت فيها شجرة المدينة الأولى، وشع في سمائها ذلك النور المتأجج نور المعرفة، والعلم في وقت كان العالم خارج هذه المنطقة ينوء تحت حجب كثيفة من ظلام التوحش، فمن هنا - على ما يبدو - ظهر الإنسان العاقل، منذ ما يربو على الخمسة والثلاثين ألف عام مضت، وقامت كل الثورات الأولى هنا، إن الثورة بدأت بتعلم الإنسان فنون الزراعة، حتى أصبح ينتج قوته بعد أن كان يلتقطه، ويكفينا أن نقول، بأن الزراعة كانت أهم عامل دفع الإنسان نحو الحياة المستقرة؛ فنتج من ذلك ظهور المجتمعات الصغيرة الأولى ثم تطورت هذه المجتمعات إلى قرى، ثم إلى مدن صغيرة وكبيرة وقد رافق هذا تطور مهم في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والفنية والسياسية.

أما في الفصل **الرابع**، وهو بعنوان «القدس في العصر البرونزي المبكر»؛ والفصل **الخامس**، وهو «القدس في العصر البرونزي المتوسط»، والفصل **السادس**، وهو «القدس في العصر البرونزي المتأخر»، فنتحدث عن القدس في العصور البرونزية، ونناقش المخلفات الأثرية المكتشفة والمؤرخة لهذه الفترات.

نتحدث في الفصل **السابع**، وهو «اختلاق «أورشليم» في النصوص المصرية القديمة»، أن هناك ظاهرة شائعة رافقت قراءة النصوص الأثرية المكتشفة، وهي تزوير وتحريف القراءات لإيراد اسم أو حدث معين في النص. وبعد كل هذا يجيء دور تعميم وترسيخ هذه «المعرفة»، والأخطر من هذا أن هذه القراءات «الزائفة» يتم تكرارها في أروقة البحث العلمي حتى بعد الكشف عن ضلالها. كما حدث عندما تم قراءة اسم «أورشليم» في «نصوص اللعن»، بينما النص الأصلي يتحدث عن «أوشاميم»! أما في ما يخص ذكر «أورشليم»، في رسائل تل العمارنة، فيكفي أن نقول بأنه لم تقم أي «مدينة» في القدس في أثناء فترة «رسائل تل العمارنة». ومن الناحية الأثرية، لم تكن القدس ببساطة مأهولة أثناء العصر البرونزي المتأخر.

عالج الفصل **الثامن**، وهو «القدس في العصر الحديدي»، قضية، هي من أكثر وأهم القضايا إثارة، وخطورة بالنسبة إلى تاريخ القدس، وهي أن القدس كانت خلال القرن العاشر والقرن التاسع قبل الميلاد بلدة متواضعة، ومن المستبعد أن هذه البلدة كانت عاصمة لدولة كبرى كتلك الموصوفة في النص التوراتي، مملكة إسرائيل الموحدة.

حاول الفصل **التاسع**، وهو «ما كان داود وسليمان يومًا في فلسطين»، التأكيد أن الآثاريين لم يتمكنوا من العثور على دليل يشير صراحة أو كناية إلى مملكة داود وسليمان في فلسطين. وبينما تقول رواية سفر صموئيل الثاني وسفر الملوك الأول بأن الملك داود أقام إمبراطورية تمتد بين النيل والفرات أورثها

لسليمان بعد وفاته، لم يتمكن رجال الآثار من العثور على ذكر واحد لأي من ملكَي بني إسرائيل، رغم وجود 300 موقع تقوم فيها البعثات الأثرية بأعمال الحفر، في بلادنا فلسطين. وإذا كانت المملكة الداودية - السليمانية، ليست أكثر من اختراع توراتي تنفيه كل الوقائع الأركيولوجية والتاريخية في بلادنا فلسطين.

لقد ركّز الفصل **العاشر**، وهو «هيكل سليمان والبحث عن السراب!»، على مسألة مفهوم بناء الهيكل السليماني، بوصفِهِ مركزًا لعبادة يهوه، تلك الصور لا مكان لها في أوصاف الماضي التاريخي الحقيقي. إن قصة بناء الهيكل السليماني غير قابلة للتصديق، وإنها مجرد اختلاق توراتي.

يقدم الفصل **الحادي عشر**، وهو «حروب في اتجاه القدس!» أجابة وافية عن السؤال التالي: ماذا عن حروب شيشناق وسنخاريب ونبوخذ نصر في اتجاه مدينة القدس؟ ألا يثبت ذلك صدق الرواية التوراتية، التي تحدثت عن حروب هؤلاء الملوك في اتجاه «أورشليم»، ألا يثبت ذلك ما تناقله بعض الأكاديميين العرب، عن الباحثين التوراتيين، بان مدينة القدس هي «أورشليم»؟

يتناول الفصل **الثاني عشر**، وهو «لوثة ظاهرة أورشليم المرضية!»، ظاهرة التلفيق، ونسرد عدة نقوش (الرمانة العاجية، نَقْش تل القاضي (بيت داود)، نَقْش يهوآش، بردية يروشالمه) تم اصطناعها من وحي الحكايا الكتابية للبرهن على صدقية ربط فلسطين برواية «الكتاب المقدس». وأيضًا نتناول التزوير والتحريف في قراءة «نقش سلوان».

يناقش الفصل **الثالث عشر**، وهو «الاحتلال الفارسي واختلاق العودة اليهوذية، المعلومات التاريخية الموثقة عن فلسطين في عهد الاحتلال الفارسي، فكل ما عادت علينا به التنقيبات الأثرية هو محض نقوش متفرقة لا تسمح بأي حال من الأحوال برسم صورة عن أوضاع الإقليم، مهما كانت عمومية. هذا يعني أن الخطاب الكتابي، في رسمه تسلسل الأمور في فلسطين إبان الاحتلال الفارسي، يعتمد بالكامل على تأويل روايات مسجلة في العهد القديم، وعلى سفري عزرا ونحميا تحديدًا. إن مرجعنا المستقل الوحيد عن هذه الفترة، هو كتاب **تاريخ «هيرودوت»**، الذي لم يشر ولو تلميحًا إلى «يهوذا» و«إسرائيل»، فلو سمع بذلك لسجله.

أما الفصل **الرابع عشر**، وهو «من هم سكان القدس؟!»، فنشير فيه إلى الوجود السكاني في مدينة القدس، منذ أقدم العصور إلى الاحتلال الفارسي.

لما كانت بعض المواقع الأثرية في فلسطين تذكر في الأبحاث المتخصصة اليوم باسمائها الأجنبية دون أسمائها العربية الأصلية لأسباب لاهوتية/سياسية/ استعمارية، هذه الأسماء الملصقة بالجغرافية الفلسطينية محت الأسماء الأصلية وحلت محلها.

في هذا الكتاب أسوق أسماء هذه المواقع الفلسطينية باسمها المتداول في الأبحاث المتخصصة أولًا ثم الاسم العربي الأصلي.

لكنْ؛ لماذا أُلّف هذا الكتاب؟ لأننا للأسف الشديد لم ندرك إلى الآن أهمية كتابة تاريخ القدس بصورة علمية وواضحة، بعيدًا عن الأفكار التوراتية المسبقة. فالكثير من الكتب العربية التي تناولت تاريخ القدس، لا تفعل أكثر من أن تنقل نقلاً مباشرًا الروايات التوراتية حول تاريخ القدس لتصوغها كما يصوغ التلميذ آراء مُعلمه.

ومع تسارع الخطوات الصهيونية نحو قضم المزيد من الأراضي الفلسطينية وضمها رسميًا إلى الكيان الإسرائيلي، بما فيها أراضي مدينة القدس، تزداد أهمية كتابة تاريخ القدس وتوثيقه من أقدم العصور لكشف زيف الادعاءات التاريخية للمشروع الاستعماري الصهيوني في فلسطين، وبخاصة بعدما نجح هذا الكيان في تسويق ادعاءاته عالميًا، موظفًا الرواية التوراتية من جهة، وأعمال التنقيب والدراسات الآثارية المحرّفة من جهة أخرى، لصوغ رواية تاريخية للقدس وفلسطين عمومًا تزيّف الهوية الحقيقية لفلسطين على مدى آلاف السنين.

أحمد الدبش

مالمو – السويد ٢٠١٩

---

(1) معاوية إبراهيم، «فلسطين: من أقدم العصور إلى القرن الرابع قبل الميلاد،» في: الموسوعة الفلسطينية، ألفها نخبة من العلماء (بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية، 1990)، مج 2، القسم الثاني، ص 3 - 4.

(2) بير روسي، مدينة إيزيس: التاريخ الحقيقي للعرب، ترجمة فريد جحا (دمشق: منشورات وزارة التعليم العالي، 1980)، ص 69.

الفصل الأول
جــغــرافـيـة الـقـــدس

تتمتع مدينة القدس بموقع استراتيجي متميز، فهي تقع على خط طول 13'، 35° شرق غرينتش، وعلى خط عرض 47'، 31° شمالًا. ترتفع 720 - 830م عن سطح البحر. والقدس - في خطوط مستقيمة - على بعد 52 كم عن البحر الأبيض المتوسط، و22 كم عن البحر الميت، و250 كم عن البحر الأحمر [(1)].

ترتبط طبوغرافية القدس وتضاريسها بالظهير الجغرافي الطبيعي، الذي قامت المدينة عليه، ويتألف من كتلة جبال القدس. وهي جزء من سلسلة جبال فلسطين، وتتألف من جبال نابلس التي يبلغ متوسط ارتفاعها 800 - 850م فوق مستوى سطح البحر في الشمال، ثم جبال رام الله والقدس ومعدل ارتفاعها هو 650 - 700م في الوسط، وجبال الخليل ومتوسط ارتفاعها هو 850 - 900م في الجنوب. علمًا أن قممًا عديدة في هذه السلسلة الجبلية تعلو إلى 1000م وأكثر. وهكذا تشكل جبال القدس سرجًا وممرًا بين جبال نابلس والخليل، وعلى هذا الممر وخط تقسيم مياهه قامت مدينة القدس [(2)].

وقد اعتبرت المدينة منذ القدم موقعًا استراتيجيًا قويًا ومهمًا، بسبب مناعتها الطبيعية حيث إنها محمية من الغزو، فهي تقع على هضبة مرتفعة يحيط بها من جميع أطرافها أودية عميقة [(3)].

تقوم المدينة على عدد من التلال يفصل بينها بعض الأودية، ويحيط بها مجموعة أخرى من الجبال والأودية، تمثل في مجموعها الحصانة الطبيعية للمدينة، وهي على النحو التالي: أولًا: التلال داخل المدينة

وهي ذات سفوح تميل إلى الشرق وإلى الغرب، ويبلغ ارتفاعها بين 720 - 780م عن سطح البحر المتوسط، و1150م عن سطح البحر الميت، وهي: **تل الضهور، وتسميه المصادر الغربية** (Opel)، وهو السفح المطل على قرية سلوان من جهة المسجد الأقصى، وينحدر هذا السفح من ارتفاع 720م حتى 615م، ويحده شرقًا وادي قِدْرون وعين أم الدرج، ومن الغرب وادي «الواد» أو الجبانة (Tyropoeon)، وشمالًا جبل الصخرة (المسجد الأقصى)، أما جنوبًا فيحده التقاء وادي الجبانة مع وادي جهنم، وفيه عدد من المنشآت المائية والعمرانية التي تعود لعهد المدينة في العصر البرونزي (3200 - 1250 ق.م) [(4)].

جبل الأقصى (الحرم)، وهي صخرة بيت المقدس كما في المصادر الإسلامية، بينما تسميه المصادر الغربية «المتخيلة» (الموريا/Moriah)، وهي الأكمة التي يقوم عليها المسجد الأقصى، وتشكل الصخرة التي تغطيها قبة الصخرة ذروتها، وترتفع عن سطح البحر 743م، ويحدها من الشرق وادي قدرون، وغربًا

وادي الجبانة (Tyropoeon)، ولا يظهر انحدار هذا الجبل نظرًا إلى اختفائه ضمن التسوية البنائية (المصطبة الكبيرة) التي يقوم عليها المسجد الأقصى المبارك [5].

تل بيزيتا (Bezetha)، ترتفع عن سطح البحر 765م، وتقوم عليها في الوقت الحالي أحياء باب العامود وباب الساهرة، وتنحدر حتى باب حطة، وهي إلى الشمال من جبل الحرم (الأقصى).

جبل صهيون (Zion)، وهو يمثل الجزء الجنوبي الغربي من جبال بيت المقدس الأربعة، ويرتفع نحو 770م عن سطح البحر [6]، وتقوم عليه الآن حارة الأرمن [7].

تل عكرة (أكرا)، تقع في الجهة الشمالية الغربية للمدينة، وهي على ارتفاع 780م فوق سطح البحر، وتشكل التل حاليًا ما يعرف بحارة النصارى والسوق الجديد، وتعدّ هذه المنطقة أعلى منطقة في المدينة المسورة [8] حيث توجد كنيسة القيامة [9].

ثانيًا: الجبال المحيطة بالمدينة

جبل الزيتون، أو «جبل الطور» أو «طور زيتا» (Mount of Olives)، يقع إلى الشرق من المدينة، ويبلغ ارتفاعه 826م عن سطح البحر. وهو يواجه أسوار الحرم الشريف من الشرق، ويفصله عنه وادي القدرون (جهنم). وتقع إلى أسفل هذا الجبل حديقة المعصرة أو «جتسماني» [10]. ويكتسب هذا الجبل أهمية أخرى تتمثل بكونه «يكشف المدينة المقدسة قديمها وحديثها. اسمه مأخوذ من شجر الزيتون الذي كان موجودًا فيه بكثرة» [11].

جبل المشارف، أو جبل المشهد، دُعي بذلك لأنه يشرف على القدس. يبتدئ من شمال شعفاط وينتهي بجبل الزيتون. يقع في شمال بيت المقدس بانحراف قليل إلى الشرق، على بعد ميل عنها. وفي شرقه قرية العيسوية. يقوم جبل المشارف على الطريق المؤدي إلى رام الله. ويقال له أيضًا «جبل المشهد» و«جبل الصوانة». يطلق الغربيون عليه اسم «جبل سكوبس - Scopus» وهي كلمة يونانية (Skopos) معناها ملاحظ أو مشاهد.

وقد أقام اليهود على جبل المشارف جامعتهم العبرية على أرض اشتروها من السرجون غراي الإنكليزي (Sir John Gray) بوشر التدريس فيها عام 1925.

والكثيرون يعتبرون المشارف امتدادًا لجبل الزيتون لجهة الشمال الشرقي. وبين المشارف والقدس يقع «وادي الجوز» وفيه وعلى سفوح الجبل بني العديد من المنازل [12].

جبل المكبِّر، أو جبل «أبي طور» أو «أبي ثور»، جبل مرتفع كائن قبلي المدينة وإلى الشرق من محطة السكة الحديد. يفصل بينه وبين جبل الطور وادي سلوان، وبينه وبين جبل صهيون وادي الربابة. كانوا فيما مضى يسمونه: «جبل المؤامرة» و«جبل المشورة الفاسدة». وبجانبه هضبة يقوم عليها ضريح المجاهد الإسلامي المعروف بـ «أبي ثور». من هنا جاء اسم الحي الذي يقوم على هذه الهضبة، حي أبي ثور. والاسم الآخر لهذا الجبل، جبل الثوري. أما «أبو ثور» الذي ينسب إليه هذا الجبل والحي الذي يقوم عليه، فإنه من المجاهدين الذين اشتركوا في فتح بيت المقدس مع صلاح الدين [(13)].

جبل بطن الهوا، وهو امتداد جبل الزيتون في الزاوية الجنوبية الشرقية للقدس، يفصله عنها وادي سلوان الذي يتصل في هذه النقطة نفسها بوادي قدرون. ويسميه اليهود «هارهامشحيت» أي «الجبل الفاضح» [(14)].

يقول عبد القادر عابد، في دراسته **فلسطين الموضع والموقع**: جبال القدس، عارية حتى من التربة إلا في بعض المناطق الصغيرة، والأمطار قليلة وفجائية. والمنطقة مغطاة بالحجارة وقطع الصخور المفتتة المتناثرة. ويُستثنى من ذلك مناطق رام الله والبيرة والخليل، حيث توجد تربة زراعية ونباتات. طول المنطقة شمال - جنوب 77 كم وعرضها في الشمال 24 كم وفي الجنوب 40 كم. وامتدادها الغربي تدريجي نحو السهل الساحلي عبر سفوح الجبال. أما إلى الشرق فإنها تنتهي إلى منخفض البحر الميت عبر جروف حادة وأخاديد بسبب عملية التصدع التي رافقت نشأة انهدام البحر الميت. وقد يكون أهم الصدوع ذلك الذي يمر موازيًا البحر الميت على شاطئه الغربي منتجًا جروفًا شديدة الارتفاع غير تاركة أي أراضٍ سهلية على شاطئ البحر الميت. ويكفي أن تعرف أن المنطقة الشرقية من جبال القدس تنحدر أكثر من 1250م في مسافة 40 كم.

والأودية التي تقطع هذه المنطقة قليلة نذكر منها من الشمال إلى الجنوب وادي القلت قرب أريحا ويرفد نهر الأردن، ووادي عين الفشخة ووادي مقلق اللذين يصبان مباشرة في البحر الميت. هذا فضلًا عن عين السلطان وعين أم الديوك وعين النويعمة إلى الشمال قليلًا من أريحا. أما الأودية التي تقطع المنطقة غربًا فهي من الشمال إلى الجنوب أودية الدلب وملكة وسلمان وعلي والصرار والصمط وإفرنجي والخليل وبئر السبع. أما أعلى جبالها فهي: جبل حلحلول (1014م) وجبل النبي صموئيل (885م) وجبل الطور (الزيتون 817م) [(15)].

ثالثًا: الأودية

ساهم التكوين الطبوغرافي الجيولوجي لأرضية القدس، واتجاهات الانحدار التي أخذتها المدينة وبخاصة في اتجاه الشرق، في تكوين العديد من الأودية المهمة. ومن أهم هذه الأودية سواء كانت داخلية أو محيطة بها، هي: **وادي جهنم، أو «وادي النار» أو «وادي سلوان»** كما يسميه العربُ المسلمون، ووادي «**ستنا مريم**» كما يسميه العربُ المسيحيون، و«**وادي قدرون**» كما يسميه الفرنجة [(16)]. يبدأ هذا الوادي من الشمال الغربي للمدينة على بعد ميل ونصف الميل، ثم يسير أولًا نحو الشرق حتى يصل إلى الزاوية الشمالية الشرقية لسور المدينة، ثم ينحرف بميل حاد نحو الجنوب - وهو يفصل بين سور المدينة الشرقي وبين جبل الزيتون وجبل بطن الهوا - حتى يلتقي بوادي هنوم المنحدر من جهة الغرب، ويبلغ طول الوادي نحو كيلومترين وهو عميق سريع الانحدار [(17)].

وادي الربابة، واسمه القديم **هِنُّوم** (Hinnom)، يمتد هذا الوادي من مكان بالقرب من ماملا إلى بركة السلطان، ومنها ينحدر باتجاه قبلي المدينة حيث يفصل بين تل صهيون وجبل المكبر، وفي نقطة وراء بركة سلوان يلتقي بوادي سلوان. وأصبح مع الزمان مزبلة المدينة. وفيه قبور منحوتة في الصخر [(18)].

الخريطة الرقم (١ - ١) طبوغرافية القدس ومحيطها: الجبال والتلال والأودية

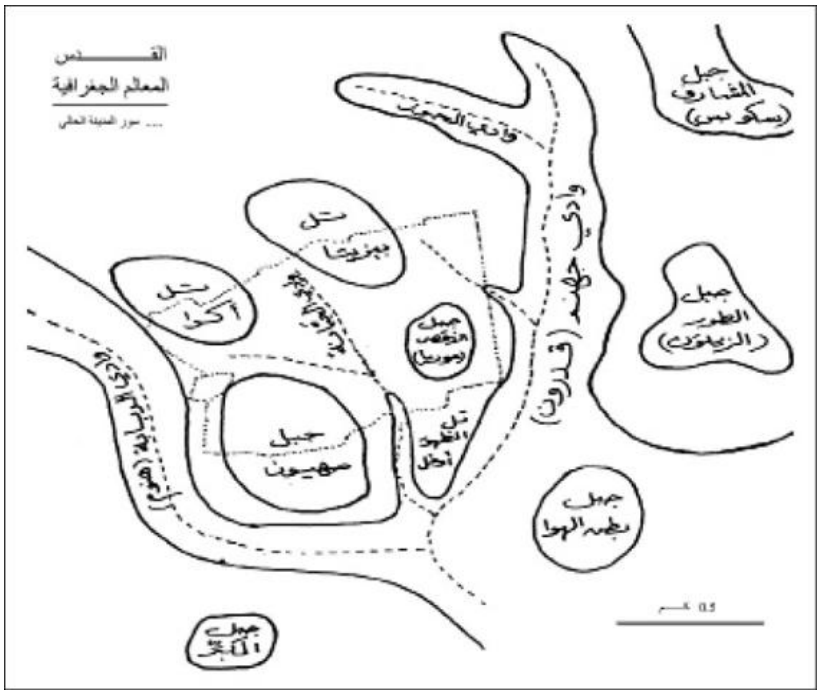

.Hopkins, Jerusalem, p ٣٦.

وادي الجبانة، أو «**الواد**»، يمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي حتى يتصل بوادي سلوان الذي يتصل بدوره بوادي قدرون شرقًا، وبذلك يقسم أرض مدينة القدس قسمين مكونين من هضبتين مستطيلتين، الهضبة الغربية

يحدها وادي قدرون من الشرق، ويسمى وادي الجبانة في الجزء الجنوبي الغربي من القدس «وادي الزبالة» أو «وادي الدمن» أو «وادي القمامات»، وقد ردم جزء منه في أعمال توسيع لجبل صهيون وللحرم المقدس الواقع على جبل موريا الذي هو هضبة الحرم الشريف [19].

إن هذه الأودية (**جهنم والربابة والواد**) التي تحيط بالمدينة القديمة من جهاتها الثلاث - الشرقية والجنوبية والغربية - كانت تؤلف خطوطًا دفاعية طبيعية تجعل اقتحامها أمرًا صعبًا جدًا في الأيام القديمة. وأما جهتها الشمالية والشمالية الغربية فكانت مكشوفة. ليس هناك عائق طبيعي يعيق الجيوش من الاستيلاء على البلدة. لذا كانت معظم الحملات، إن لم تكن جميعها، التي شنت عليها قد دخلتها من الشمال [20].

رابعًا: موارد المياه

صرف المياه يسير طبقًا لتضاريس السطح أي من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، وبينما نجد أن خط ظل المطر يرتفع إلى 2675 قدمًا فإن واديي قدرون (وادي جهنم، أو «وادي النار» أو «وادي سلوان») وهنوم (وادي الربابة) على ارتفاع 2065 قدمًا فوق سطح البحر المتوسط، وعلى ذلك فليس هناك إذًا مياه راكدة في البرك التي تفيض خلال الفصل المطير، ويلاحظ أن جزءًا من صرف مياه الأمطار جوفي، وعند سقوط المطر الكثير - في بعض الظروف الاستثنائية - أو عندما تذوب الثلوج فجأة على المرتفعات يتكون مستنقع ضحل في وادي تربيبون (وادي الجبانة، أو «الواد») مكونًا ما يسمى بركة الحمراء. وفي وادي هنوم حفرة طبيعية تنصرف إليها مياه الأمطار [21].

اعتمد الناس قديمًا على عدد ضئيل من الينابيع في سلوان (تقع إلى الجنوب الشرقي من المدينة)، منها: **عين أم الدرج**، تبعد 300م عن الزاوية الشرقية لسور الحرم. وكانت هذه هي المورد الوحيد لمياه القدس منذ القدم. ينحدر فيها الزائر عبر سبع عشرة درجة إلى مغارة طبيعية لها ثمانية أمتار من العمق.

بركة سلوان، قبلي عين أم الدرج، وعلى بعد بضعة أمتار منها. كما تقع غربي طرف جبل أُوفل (الضهور) الجنوبي [22]. وتسقى من بركة سلوان البساتين والحقول المجاورة.

البركة التحتانية، ويسمونها أيضًا **البركة الحمراء**، إلى الجنوب الشرقي من بركة سلوان، وعلى بعد بضعة أمتار منها.

بئر أيوب، وهي بئر كبيرة يتفجر الماء فيها في فصل المطر. وتبعد عن البركة الحمراء زهاء ألف قدم. ماؤها أعذب من ماء عين أم الدرج. قال الأب

ماسترمان (Masterman) في كتابه *Bible World* أنه رأى عندها، في عام 1902 للميلاد، مئة وعشرين دابة تنشل الماء منها في قرب مصنوعة من الجلد، وتنقله إلى القدس. وأن هذا العمل تكرر طوال ذلك النهار وفي الليل أيضًا. وقال بونار (Bonar) أنه اسم إسلامي، وأنه يرجع بالأصل إلى زمن صلاح الدين الأيوبي في أواخر القرن السادس عشر للميلاد، وأنه هو الذي عمرها وأطلق هذا الاسم عليها.

عين اللوزة، عند اتصال وادي ياصول بوادي النار، وعلى بعد 534 مترًا من بئر أيوب إلى الجنوب. يجري فيها الماء الفائض من بئر أيوب. وهو ماء عذب [(23)].

وتشرب القدس الماء من برك تتجمع فيها مياه الأمطار، منها: **بركة ماملا**، وهي أكبر البرك حجمًا واقدمها عهدًا. وقد ساير تاريخها المدينة كلها.

بركة حارة النصارى، ويسمونها أيضًا **بركة حزقيا**، واقعة بين سويقة علون وحارة النصارى.

بركة السلطان، غرب سور المدينة وعلى بعد مئة متر من السور. تراها إلى يمينك إذا ما توجهت صوب البقعة ومحطة سكة الحديد.

وتشرب القدس الماء، إضافة إلى العيون والبرك المتقدم ذكرها، من آبار الجمع المحفورة في المنازل والبيوت داخل السور. وفي هذه الآبار تتجمع مياه الأمطار. وأكاد أقول (الكلام لعارف العارف): إنه ليس ثمة بيت من البيوت القديمة داخل السور، إلا وفيه بئر. ويسمونه أحيانًا، صهريج، وجمعه صهاريج.

وتشرب القدس أيضًا من عيون وينابيع واقعة في «وادي العروب» و«وادي البيار» و«البالوع» و«أرطاس». هذه الينابيع واقعة على مقربة من الطريق التي تربط القدس بمدينة الخليل.

أما **وادي العروب**، فإنه يبعد عن القدس زهاء 22 كم وعن الخليل 14 كم. فيه ثلاث عيون هي: فريديس، ووعد المزرعة، والفوار. وماء هذه العيون تنصب في بركة يسمونها: الشط. وهناك في وادي العروب أربع عيون أخرى؛ هي: عين البص، وعين البرادة، وعين قوزيبا، وعين الدلبة. إن الماء الذي ينبع من هذه العيون وإن كان لا ينصب في بركة الشط - بسبب انخفاضها - إلا أنه يلتقي بالماء الذي يسيل من تلك البركة، وينساب كله في اتجاه واحد.

أما **وادي البيار** فإنه من أراضي الخضر، وعلى بعد 8 كم من برك سليمان إلى الجنوب. هناك خمسة ينابيع غزيرة، ينبع الماء فيها في الصيف والشتاء. ويسيل في قناة اسمها، قناة وادي البيار. أما الينابيع الخمسة الكائنة في وادي البيار، فهي: رجم السبيط ورأس العد وعين فاغور وخربة القط وعين العصافير.

أما **البالوع**، ويسمونه «**عين الخضر**»، فهو واقع شرقي الخضر عند الكيلومتر 13 على طريق القدس - الخليل.

هذه الينابيع الكائنة في وادي العروب ووادي البيار والبالوع، تصب ماءها في برك سليمان. ومن هذه البرك يخرج الماء، ويلتقي بمياه عيون أرطاس، وتسيل كلها في قناة واحدة، إلى أن تصل إلى بيت لحم، فالقدس.

أما عيون أرطاس فأربع، عين عطاف، وعين الفروجة، وعين صالح، وعين البرك.

وأما **برك سليمان** فإنها ثلاثة، ويسمونها برك المرجيع: **البركة الفوقا**، إلى من سطح البحر 797 مترًا ونصف متر.

البركة الوسطى، أعلى منه 783 مترًا وعشرين سنتيمترًا.

البركة التحتا، أعلى منه 768 مترًا.

وأما القناة التي تسيل فيها الماء، قبل وصوله إلى القدس، فإنها قناة رومانية. وقد عمرت في العهود الإسلامية الفائتة مرارًا. وكانوا يسمونها «قناة السيل». وكان الماء الذي يصل إلى القدس من طريق هذه القناة، يصبّ في آبار حفرت في أرض الحرم، وفي سبل أنشئت فيه وفيما حوله من أحياء [(24)].

وقد ظلت القدس تُسقى الماء من طريق البرك حتى عام 1926 إلى أن تم الكشف عن عين فارة. وتقع عين فارة هذه إلى الشمال الشرقي من القدس بنحو 14 كم، وسط (وادي فارة)، عند خط عرض 50' و32°، وخط طول 18' و35°.

وعين الفوار، على بعد 6 كلم من عين فارة، وعين القلط، ورأس العين، وهي تبعد من القدس نحو 37 ميـلًا إلى الشمال الغربي [(25)].

---

(1) مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، الجزء الثامن ــ القسم الثاني، في بيت المقدس (1) (كفر قرع ــ فلسطين: دار الهدى، 1991)، ص 13.

(2) عادل عبد السلام، «الأرضية الجغرافية لمدينة القدس،» مهد الحضارات (دمشق)، عدد خاص بالقدس (2009 - 2010)، ص 11.

(3) سيد فرج راشد، القدس عربية إسلامية (الرياض: دار المريخ للنشر، 1986)، ص 29.

(4) نشأت بهجت طهبوب، «المصادر المائية في القدس وعمائرها في العصور الإسلامية،» (رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القدس - القدس، 2000)، ص 14.

(5) شريف أمين أبو شمالة، «التطور العمراني والمعماري لمدينة بيت المقدس في صدر الإسلام: (16 - 132هـ/637 - 750م) دراسة تاريخية تحليلية،» (أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة ملايا، أكاديمية الدراسات الإسلامية، كوالالمبور، 2016)، ص 23. نقـلًا عن: I. W. J. Hopkins, *Jerusalem: A Study in Urban Geography* (Michigan, MI: Baker Book House, 1970), p. 34.

(6) عبد الحميد زايد، القدس الخالدة (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2000)، ص 13.

(7) عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، ط 5 (القدس: مطبعة المعارف، 1999)، ص 3.

(8) طهبوب، «المصادر المائية في القدس وعمائرها في العصور الإسلامية،» ص 14.

(9) زايد، القدس الخالدة، ص 13.

(10) المصدر نفسه، ص 13 - 14.

(11) الدباغ، بلادنا فلسطين، الجزء الثامن ــ القسم الثاني، في بيت المقدس (1)، ص 15.
(12) المصدر نفسه، ص 15.
(13) العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص 441.
(14) حسن ظاظا، القدس مدينة الله...؟ أم مدينة داود...! (الإسكندرية: مطبعة جامعة الإسكندرية، 1970)، ص 12.
(15) عبد القادر عابد، «فلسطين الموضع والموقع،» في: الموسوعة الفلسطينية، ألفها نخبة من العلماء (بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية، 1990)، ص 101 - 102.
(16) محمد محمد حسن شرّاب، القدس أسّسها العرب ورفع قواعدها المسلمون (عمّان: الأهلية للنشر والتوزيع، 2006)، ص 149.
(17) راشد، القدس عربية إسلامية، ص 29.
(18) العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص 440.
(19) راشد، المصدر نفسه، ص 30.
(20) مصطفي مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، الجزء التاسع - القسم الثاني، في بيت المقدس (1) (كفر قرع - فلسطين: دار الهدى، 1991)، ص 19.
(21) ميخائيل مكسى إسكندر، القدس عبر التاريخ (الجيزة: مطبعة رمسيس، 1972)، ص 10.
(22) الدباغ، بلادنا فلسطين، الجزء الثامن - القسم الثاني، ص 151 - 152.
(23) العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص 437.
(24) المصدر نفسه، ص 437 - 438.
(25) زايد، القدس الخالدة، ص 18.

الفصل الثاني
المسوحات والتنقيبات الأثرية في القدس

منذ القرون الأولى للمسيحية حتى صعود الإمبراطوريات الأوروبية العظمى، كان ثمة نوع من انبهار بالأرض المقدسة (فلسطين) - مع الرغبة في استكشافها - لم يغب قط عن المحور الأساسي للفكر الديني الأوروبي.

وفي وقت مبكر يعود إلى القرن الثاني الميلادي بدأ الحجاج المسيحيون الأوائل القادمون من مختلف أجزاء الإمبراطورية الرومانية يصلون إلى فلسطين ليعاودوا تعقب خطوات يسوع وحوارييه. وفي أثناء طوافهم في أرجاء البلاد بمجموعات صغيرة كان هؤلاء يتوقفون للصلاة والتأمل في الأماكن التي كان سكانها المحليون يرشدونهم إليها على أنها مواقع نشاط يسوع وآلامه. ولكن الحج المسيحي بدأ، مع حلول القرن الثاني، يأخذ بالضرورة طابع التنقيب الأثري لأن المشهد كان قد بات شديد الاختلاف عما كان في العهود الكتابية [(1)].

كانت النتيجة نوعًا جديدًا من الحج معاديًا لأهل البلاد ومسوغًا لاستعمارها وتحويلها إلى أرض التوراة، وبذلك أُعدّ «مسرح الأثريات» بأسلوب يعكس الهوس الديني بالتوراة، فأعيد تجسيد فلسطين الكتابية المألوفة عبر الاستخدام التجسيدي التقمصي ولا سيّما أنَّها مقدسة بنظر التراث الديني اليهودي - المسيحي. بعبارة أخرى، كانت فلسطين تتعرض لعملية نقل وتحويل زمانية تفضي إلى جعل الماضي التوراتي حقيقة، إلا أن التوجه المنظم والهادف والمرتبط بالدوائر الاستعمارية والتوجهات اليهودية راح يتشكل في القرون السابقة الأخيرة بخاصة بعد انتهاء الحروب الصليبية والتقلبات التي حدثت في أوروبا.

انصب اهتمام الأوروبيين منذ قرون على إبراز الأرض المقدسة كما عرفوها في القرون الوسطى، وسعوا لاكتشاف جغرافيتها وجمع المعلومات المتعلقة بأهلها ومناخها وتاريخها [(2)]. حيث توجه معظم الكُتاب للتأليف عن مدينة القدس، ووضع الخرائط ورسمها لهذه المدينة، واستكشاف تاريخها من خلال المسح الأثري والحفائر غير المرخصة والمنتظمة من قبل السلطات العثمانية؛ لأنها كانت غير واضحة الأهداف، بل ومشكوكًا في نية هذه الجمعيات والمؤسسات تجاه المدينة المقدسة. فقد لجأت هذه البعثات إلى العديد من الحيل المختلفة للدخول إلى الحرم القدسي الشريف وغالبًا لدراسة المكان ووضع تخيلاتهم حول مكان الهيكل المزعوم ومساحته وشكله، فكانت أول بعثة أثرية للتحقق مما جاء في التوراة عام 1738م برئاسة المطران ريتشارد بوكوك (Richard Pococke)، الذي كتب وصفًا شامـلًا لآثار القدس [(3)].

يقول عالم الآثار الأمريكي، وليم أولبرايت، إن «المطران بوكوك، في سنة 1738 عن رحلته، زود وصفه بمساقط أفقية ورأسية، ورسومات ونسخ من النقوش» [4]. وفي سنة 1761، زارها كاسترن نيبور (Carsten Neibuhr)، وأجرى دراسات مختلفة حول القدس، ونشر بعض الرسومات البيانية، وأثار اهتمامًا ملحوظًا لدى المؤرخين وعلماء الآثار.

أضف إلى ذلك قدوم بعثة بريطانية عام 1818، برئاسة وليم جون بانكز (William J. Bankes)، الذي حاول الحصول على إذن رسمي من الحكومة العثمانية، ولكنه لم يوفق؛ فقد قوبل طلبه بالرفض، فلجأ إلى عمل بعض المسوحات والحفر الأثرية ليـلًا خارج أسوار المدينة، وعلمت الحكومة التركية بشأن تلك الحفريات فبنت الجدران في الموقع لمنع مزيد من أعمال الحفريات غير القانونية، وغير الموافق عليها من طرف السلطات العثمانية [5].

لقد تم إخضاع اللقى الأثرية في المشرق العربي، وبالتالي تاريخ بلادنا فلسطين، لمصلحة الخطابين السياسي والتوراتي وهدفهما بعدما ثبت لنا أن «أصول التنقيبات الآثارية الحديثة، منذ دخول نابليون إلى مصر، على أنها مكيدة دولية، استخدمت القوى الغربية من خلالها الماضي الكتابي والكنوز الأثرية التي في المنطقة من أجل سعيها لتحقيق المكاسب السياسية، ولإضفاء الشرعية على مصالحها الإمبريالية» [6]. لقد كانت «العلوم كالتاريخ وعلم الآثار وغيرها ليست إلا أدوات في يد أصحاب القوى ليبسطوا من خلالها هيمنتهم ويبرروا استعمارهم» [7].

أصبح تطوير علم الآثار في فلسطين تعبيرًا ذا أهمية عن المطامع الإقليمية للقوى الأوروبية. فاستكشاف المنطقة ورسم خرائطها، وتسجيل أوابدها القديمة، ووصف سكانها وممارساتهم، لم تكن أعمالًا بحثية نزيهة ومبرأة من الأغراض الخاصة، مع تشكيلها مساهمات مهمة على صعيد المعرفة العلمية. وموقف التفوُّق المتعالي، الذي طبع أسلوب كتابة التقارير، يتجلى في العديد من تقارير مشاهير الرحالة الكثيرين. فاهتمام هؤلاء بفلسطين لم يكن صادرًا عن اهتمام بالمنطقة نتيجة لأهميتها الخاصة بمقدار ما كان منصبًّا على حقيقة أنها كانت موقع الأحداث الكتابية. هنا بالذات كانوا يأملون في الاهتداء إلى جذورهم. ومن حيث الجوهر، كثيرًا ما جرى إفراغ فلسطين والتاريخ الفلسطيني من أي معنى حقيقي، إذ جرى ««تجريدها» [فلسطين] من «الصفة التاريخية» كما يقول ملمن أو طمسها [إسكاتها] كما أقول أنا [وايتلام]» [8].

في صيف عام 1801، وصل إدوارد دانيال كلارك، وهو أحد أشهر الجغرافيين والرحالة العالميين في إنكلترا، إلى عكا كمسافر مدني على ظهر سفينة تموين بريطانية، وأنجز في ظرف سبعة عشر يومًا أحد أوفى وأكمل التقارير التي أُلّفت عن فلسطين حتى ذلك التاريخ.

ما لبث المنظر الخارجي لسور مدينة القدس أن لفت نظر كلارك، لكنه سرعان ما أصيب بخيبة أمل مريرة حين اكتشف أن كنيسة القيامة الشهيرة بدت (كأية كنيسة كاثوليكية - رومانية عادية). وإخفاق كلارك في الاهتداء إلى بقايا أي ضريح قديم داخل كنيسة القيامة دفعه إلى تحقيق الخطوة المتقدمة الأولى على طريق الاستكشاف العلمي للأرض المقدسة، إذ بادر، بعد أن أقسم (على عدم النظر من خلال مناظير الرهبان) إلى التخلي عن طرق الحج التقليدية داخل القدس، ليبدأ بحثًا عن «المواقع الحقيقية» لضريح المسيح، وجبل صهيون، وأضرحة الملوك العبرانيين (أضرحة الملوك). وعلى تلة، على مسافة بضع مئات من الياردات إلى الجنوب من سور المدينة، لاحظ كلارك وجود العديد من الأضرحة المنحوتة في الأرض الصخرية فاستنتج، بالاستناد إلى قراءته لبعض الكلمات الإغريقية المجزوءة، أنه كان قد اهتدى إلى المكان الصحيح لجبل صهيون الوارد في الكتاب المقدس.

ومع مرور الزمن وقيام المزيد من المستكشفين العلميين بالقدوم والعمل في الأرض المقدسة، ما لبث «اكتشاف» كلارك أن تبيّن عن أنه لم يكن أقل اتصافًا بالخيال والوهم من اكتشافات الآخرين [(9)]. وقد أخذت تقنيات هذه الجغرافيا الكتابية الحديثة شكلها مع الأعمال الاستكشافية التي قام بها في عام 1838 تقريبًا، إدوارد روبنسون، وهو أستاذ اللاهوت الأمريكي، وبالتعاون مع القس الألماني المتحدث بالعربية، إيلي سميث، برحلة استكشافية إلى فلسطين [(10)]. في الرابع من نيسان/أبريل 1838 - وكان يوم عيد الفصح - عندما قام مع سميث «مثل العبرانيين القدامى في وقت عيد الفصح اليهودي» بدخول القدس؛ كانت هناك مجموعة من ثمانية مبشرين وعائلاتهم في استقبالهم، وكان هذا أكبر تجمع شهدته المدينة للبروتستانت.

وبالرغم من ذلك، لم يؤثر هذا في روبنسون، وفي فجر اليوم التالي كان بالخارج، مسلحًا بشريط قياس طوله مئة قدم، لقياس أسوار القدس، وباستخدام الإنجيل وغيره من كتب الحكايات الكلاسيكية كدليل، تعرف على بركة سلوان، وبالرغم من قصر نظره وجسده البعيد من الرشاقة، فقد نجح روبنسون في الزحف لمسافة 1750 مترًا في نفق ضيق مليء بالحجارة، ووصل إلى نافورة العذراء داخل المدينة القديمة. تعرف أيضًا على موقع بقايا جسر ضخم، كان يوصل يومًا ما إلى معبد هيرود، الذي يعرف اليوم باسم «قوس روبنسون» [(11)] (انظر الصورة الرقم (2 - 1)) . استنتج روبنسون أن الموقع التقليدي لكنيسة القيامة لم يكن أكثر من «خرافة دينية» [(12)].

الصورة الرقم (٢ - ١)

قوس أو قنطرة روبنسون

أما في عام 1834، فقد قام فريدريك كاثر وود (Fridreck Kather Woad) بمسح في منطقة الحرم، وقدم خريطة تفصيلية لمدينة القدس. في عام 1841 زار ويليام، وهو سائح غربي، مناطق محظورة على غير المسلمين، ورسم موقع الباب المزدوج [(13)].

وفي عام 1845، نشر القس البريطاني، جورج ويليامز (George Williams) كتابه بعنوان **ملاحظات طبوغرافية عن القدس** [(14)].

وفي عام 1847، نشر جيمس فرغسُن كتابًا بعنوان **مقالة عن التضاريس القديمة للقدس** أكد فيه بجرأة، استنادًا إلى خبرته المعمارية الخاصة، أن قبة الصخرة، بعيدًا من أن تكون مزارًا إسلاميًا، كانت بالفعل كنيسة القيامة الأصلية التي شادها الإمبراطور قسطنطين في القرن الميلادي الرابع. ومن مزاعم فرغسُن أن ذكرى الغرب عن الكنيسة الأصلية تبددت مع سقوط المملكة الصليبية وجرى، بالتالي، نقلها إلى الموقع اللاحق غير الصحيح. وبدت نظرية فرغسُن الصريحة والساذجة، حجة قوية ضد التقليديين واكتسبت أتباعًا متنفذين بعد تكريسها في **قاموس الكتاب المقدس** لوليم سمث في عام 1863 [(15)].

في عام 1848، جاءت البعثة الأمريكية برئاسة وليم فرانسيس لينش (William Francis Lynch’s)، ووصل لينش إلى مدينة القدس في 8 أيار/مايو من نفس العام. بعد تسلقه جبالها، لاحظ حقولًا من القمح الأصفر، والزيتون، والتين، وبعض أشجار المشمش، التي غطت كل الأراضي الصالحة للزراعة، على مرمى بصره، لكنه لم يلاحظ أية أشجار على المرتفعات القاحلة، التي

كان عليها بقايا الأبنية المهملة المتصدعة، التي تعد شواهد على الزخم السكاني، الذي كانت تحتضنه فلسطين. وأمضى لينش أسبوعين في القدس، محاولًا استكشاف الأماكن ذات الأهمية الدينية، ومشاهدة البحر الميت [16]. حاول لينش أن يربط بين اليهود وفلسطين؛ فتحدث عن المقابر اليهودية في القدس وغيرها. وتحدث عن يوم «السبت اليهودي» وعن بيوت اليهود الأغنياء في مدينة القدس أيضًا [17].

وصل الفرنسي لوي فيليسيان دو سولسي (F. de. Saulcy)، إلى القدس في الثالث والعشرين من كانون الأول/ديسمبر 1850، وانطلق إلى البحر الميت للشروع بالعمل العلمي، وبعد واحد وعشرين يومًا، عاد دو سولسي إلى القدس للغوص في تقصّي التفاصيل الدقيقة للآثار القديمة هناك. وبعد معاينة نمط البناء الحجري للجدار الداعم للحرم الشريف، وإعلان أقسام معيَّنة، دون الاستناد إلى معايير واضحة، على أنها سليمانية أكثر منها هيرودية، انجذب دو سولسي إلى خرابة خارج أسوار المدينة، معروفة تقليديًا على أنها: قبور السلاطين. وما لبث النحت القديم في الصخر، حيث كانت آثار إفريز منقوش ما تزال بادية. وزعم أن (قبور السلاطين) متضمنة فـعـلًا بقايا الملوك العبرانيين.

وبعد أن أصدر أمرًا لصحبه بإزاحة بعض الأنقاض من مدخل سرداب الدفن القديم، تسلل دو سولسي نفسه زاحفًا إلى قلب الظلام الموحل للحجرات الداخلية. وبوصفه رجـلًا امتلك موهبة يُحْسَد عليها في الاهتداء بدقة إلى ما كان يبحث عنه، نجح في سحب الغطاء المكسور لتابوت من الحجر الكلسي أثار بهجته الشديدة إذ تعرف إلى أنه تابوت الملك داود [18].

يقول الباحث الفرنسي، فانسان لومير: إن جولة دو سولسي التفقدية الأولى في نهاية عام 1850، «لم تنتج، شأنه شأن زملائه في تلك الفترة، إلا بعض التوصيفات للأماكن استنادًا إلى مراقبة المواقع وقراءة متقاطعة للنصوص المقدسة» [19].

وكان الفرنسي إرنست رينان قد زار القدس في أواخر ربيع عام 1861، وقد تضمنت تقاريره إلى الإمبراطور في باريس «سخرية لاذعة من بعض نظريات دو سولسي الأثرية الأكثر سذاجة. وفكرة أن الحرم الشريف غطى فعـلًا أجزاء مهمة من بقايا هيكل سليمان، أو أن «قبور السلاطين» تضمنت فعـلًا بقايا عواهل عبرانيين، بدت لرينان، صاحب العقل الطليق، فكرة شديدة الحَرْفية لا أمل منها» [20].

الصورة الرقم (٢ - ٢)

الحفريات الأثرية في مدينة القدس (١٨٦٣ - ١٩٠٠م)

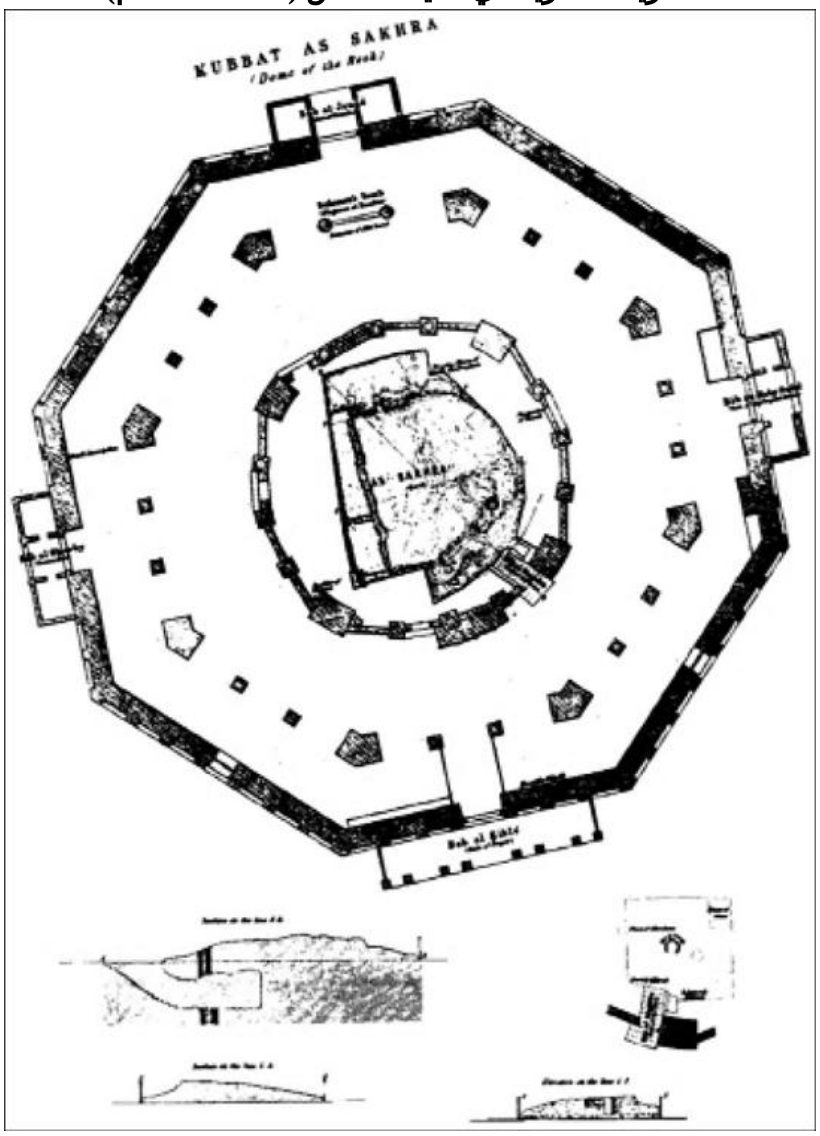

رسم مقطعي لقبة الصخرة، ولسن.

في التاسع من تشرين الأول/أكتوبر عام 1863، انطلق لوي فيليسيان دو سولسي، ثانيةً، إلى فلسطين. وبات حينذاك مستعدًا لتركيز اهتمامه على الموقع الإشكالي لـ «قبور السلاطين» والشروع بعملية تنقيب أثرية شاملة، للمرة الأولى، في القدس.

وفي السابع عشر من تشرين الثاني/نوفمبر عام 1863، أمر دو سولسي مساعدَيْه الشابَّين بالبدء بعملية إزالة منهجية للأنقاض الموجودة فوق بقايا الموقع القديم. وفي اليوم الأول من العمل اكتشف دو سولسي سُلَّمًا أثريًا عريضًا ملاصقًا للفناء المجاور للأضرحة.

وبين القطَع والمزَق الأثرية التي استُخرجت من طبقة الأنقاض التي كانت تغطي السلم كانت ثمة كتلة كبيرة من الرخام الأملس المصقول. وفي توق شديد إلى العثور على رابط أثري ما بين لقاه من جهة والكتابات الوصفية القديمة للأضرحة الملكية من جهة ثانية، ما لبث دو سولسي أن استنتج على الفور أن الكتلة الحجرية كانت جزءًا من التمثال الذي أقيم عند ضريحي داود وسليمان من قبل الملك هيرودس في القرن الأول قبل الميلاد [(21)].

ومرة أخرى تسلل زاحفًا إلى داخل حجرات الأضرحة العفنة، واطمأن حين عثر على بعض البقايا التي كانت قد غابت عنه، على ما يبدو، في الزيارة السابقة. «وفي هذه المرة نجح في العثور على تابوت حجري كامل، وعلى قطع ومزق توابيت أخرى، وعلى بعض المصابيح الفخارية القديمة، وعلى بعض القوارير الزجاجية المكسورة. وما إن تم إخراج التابوت إلى ضوء النهار حتى سارع دو سولسي، مغمورًا بالبهجة، إلى الإشارة إلى بعض الأحرف القديمة المخدوشة على الطرف العلوي. صحيح أنه لم يكن دارسًا مخضرمًا للعبرية، ولكنه استطاع أن يتهجّى كلمة «ملكة» في النقش، فأعلن أمام أركان بعثته، بثقة، عن أنهم قد اكتشفوا تابوت زوج الملك صدقيا.

كان تعرفه إلى هذا الأثر، مثله، في حقيقة الأمر، مثل تعرفه على الموقع كله، خاطئًا خطأ فادحًا، على الرغم من أن الضريح كان ملكيًا حقًا. فعلماء آثار لاحقون أظهروا أنه كان، في الواقع، الضريح العائلي للملكة هيلين من أديابنا، وهي تدمرية اعتنقت الديانة اليهودية في القرن الميلادي الأول؛ بعد مضي ألف سنة فقط على حقبة أوائل الملوك العبرانيين. ولكن تم تجاهل أي شكوك حول قيمة اللقى بينما كان دو سولسي دائبًا على استكمال استخراجها. وما إن كان هو ومساعداه قد أخذوا نسخًا من الجص عن الإفريز المزخرف فوق مدخل الضريح، حتى أمر رجاله بنقل العمليات إلى الموقع التقليدي لـ «أضرحة القضاة» حيث توخى القيام باكتشافات عظيمة إضافية. وعلى امتداد الجدار الداعم للحرم الشريف، كما في وادي جهنم (قدرون) تحته، جرى حفر خنادق أخرى. «صحيح أن بضع لُقى صغيرة وغير ذات أهمية هي كل ما تم العثور عليه في هذه المواقع، ولكن دو سولسي كان واثقًا من أنها أكّدَت صحة نظرياته» [(22)].

البعثة الأولى التي حملت طموحًا استراتيجيًا للتنقيب عن الآثار، «كانت بعثة الكابتن تشارلز ولسون (Charles Wilson) الذي وصل في تشرين الأول/أكتوبر من عام 1864، على رأس فريق من خمسة مسّاحين للإقامة مدة ثمانية أشهر. ولكن هناك، مرة أخرى، عندما يقرأ المرء المجلدات الثلاثة من المسح التفصيلي لأراضي القدس (Ordnance Survey of Jerusalem)، التي نشرت في عام 1865 لدى عودتهم إلى لندن، يتضح له أن الجزء الأكبر من مهمة البعثة كان إجراء مسح دقيق لأراضي المدينة ووضع خريطة دقيقة لها وللمناطق

المحيطة بها، أي العمل مرة أخرى على ما هو ظاهر من المدينة من دون إمكانية القيام فعـلًا بحفريات بسبب الافتقار إلى الوسائل والتراخيص اللازمة» [(23)].

في هذا السياق، يقول سيلبرمان: حدد المسّاحون خطًا أساسيًا في الجهة الجنوبية - الغربية من المدينة وراحوا، متبعين الإجراءات التضريسية النموذجية، ينشرون سلسلة من القياسات المثلثاتية لابتداع شبكة رئيسية. تزيد مساحتها على اثني عشر ميـلًا مربعًا، سيتم في إطارها تسجيل جميع التفاصيل المادية ونقلها إلى الخريطة الأم للقدس.

ولاحظ ولسن وجود مجمع هائل من الصهاريج تحت الأرض داخل الحرم الشريف. وباشر بأعمال تنقيبية هناك وعملية التقصي هذه كانت أشمل وأعمق من أية عملية تمت في السابق، فولسن ورجاله وضعوا بعناية مخططًا لجميع الملامح السطحية في المنصة الكبيرة، ونزلوا إلى سلسلة من الأقبية الموجودة تحت الأرض، مكتشفين، مصادفة، أن القياسات السابقة كانت في العديد من الحالات مستندة إلى الخيال أكثر من اعتمادها على الواقع.

أما وجود الصهاريج الكبيرة فلم يكن قابـلًا للدحض. وبدا موقع الهيكل القديم كما لو أنه النقطة المركزية لشبكة مياه واسعة، مما دفع ولسن إلى الإحساس بضرورة تعقّب قنواته ومجاريه المائية عبر زحمة البيوت والمباني المحيطة بالأسوار الداعمة للحرم الشريف. وكان جميع مستكشفي القدس السابقين قد حصروا أعمالهم التنقيبية بالآثار المرئية فوق سطح الأرض أما ولسن وصحبه فقد نزلوا إلى ما تحت الأرض؛ وهناك زاحفين عبر المجاري والبواليع ونازلين إلى قلب الصهاريج غير المستعملة، ما لبثوا أن تعثروا، بصورة غير متوقعة، بمؤشرات، غير معروفة من قبل، دالة على المرحلة الكتابية.

ففي حجرة تحت الأرض إلى الشمال مباشرة من «حائط مبكى» اليهود، تمكن الفريق من التعرف إلى مدى قنطرة أثرية ضخمة متصلة بالسور الخارجي للحرم محفوظة بشكل كامل عُرفت بـ «قنطرة ولسن»، وهي شبيهة بـ «قنطرة روبنسون» وموازية لها، تمثل مدخـلًا إضافيًا آخر من مداخل الهيكل الهيرودي. وهكذا فإن المؤشرات العظيمة الدالة على بهاء القدس القديمة كانت مدفونة هناك في شبكة بواليع المدينة الشرق - الأوسطية الحديثة» [(24)].

الصورة الرقم (٢ - ٣)

قنطرة ولسن

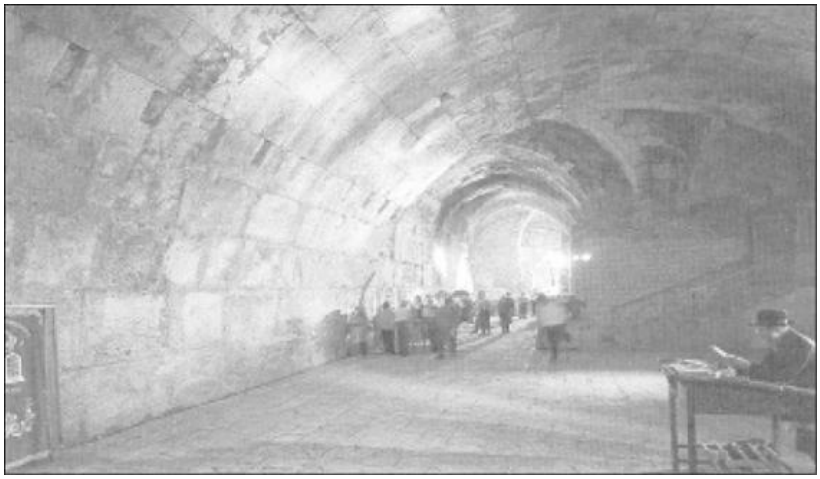

و«تم رسم مخطط تفصيلي للقدس (بمقاس 1/2500) مع مخططات تفصيلية لقبة الصخرة وكنيسة القيامة وسواها من الأماكن الهامة في المدينة، كما مسحت المنطقة المجاورة للقدس (بمقياس رسم 1/1000)، وقامت دائرة المساحة البريطانية بنشر المخططات والتقارير والصور مع الملاحظات الدقيقة التي احتوت على معلومات مهمة. وكان لعمل ولسون قيمة كبيرة للمهتمين بتاريخ القدس» [(25)].

في الثاني من أيار/مايو عام 1865، عُقد اجتماع عام وحاشد شكل أرضية التأسيس الرسمي لصندوق استكشاف فلسطين (Palestine Exploration Fund)، الذي ضمّ كلًّا من رئيس أساقفة يورك، الذي سُمي رئيسًا، وجورج غروف، الذي عُين أمين سر شرف، ليجلس على المنصة بعد أبرز شخصيات المجتمع «الفكتورياني»، نسبةً إلى الملكة فكتوريا.

سرعان ما فازت جهود منظمي الصندوق بالدعم الرسمي من جانب الدوق أرغَيْل. كما جاء من عالم المال مورتون بيتو، أحد عمالقة السكك الحديد، ووالتر موريسون أحد الصناعيين من أصحاب الملايين. أما من رجال العلم فكان كل من السير وُلتر سُكُت رئيس جمعية العمارة الملكية، والسير رودريك مورتشيسون رئيس الجمعية الجغرافية الملكية. وجاء من كنيسة إنكلترا، إضافةً إلى رئيس أساقفة يورك وعميد وستمنستر، أساقفةُ كل من أكسفورد ولندن وإيلي، مع عميدي كاتدرائية سانت بول وكنيسة المسيح. كما نسي كل من جيمس فرغسُن وجورج وليَمْز خلافاتهما السابقة، والتحقا بركب الآخرين في جمعية تركّز هدفها على التقصّي العلمي لـ«آثار فلسطين وجغرافيتها وجيولوجيتها وتاريخها الطبيعي».

بعد صلاة افتتاحية ترأسها أسقف لندن، استعرض وليم طومسون رئيس أساقفة يورك، بوصفه رئيس هذه الجمعية، أهداف الجمعية الجديدة بخطوطها العريضة، وكشف بوضوح عن التوجهات المستقبلية للعمل، إذ قال في الاجتماع الحاشد: «إن هذا البلد فلسطين عائد لكم ولي؛ إنه لنا أساسًا. فقد

مُنحت فلسطين إلى أبي إسرائيل بالعبارات التالية: «هيا امْشِ في الأرض طولًا وعرضًا، لأنني سأعطيك إياها!!»، ونحن عازمون على المشي عبر فلسطين، بالطول والعرض، لأن تلك الأرض مُنحت لنا. إنها الأرض التي تأتي أنباء خلاصنا منها. إنها الأرض التي نتوجه إليها بوصفها منبعًا لجميع آمالنا؛ إنها الأرض التي نتطلع إليها بوطنية صادقة تضاهي حماسنا الوطني لدى النظر إلى إنجلترا القديمة العزيزة هذه».

في ختام تعليقاته، أعلن رئيس الأساقفة أن الملكة فيكتوريا بالذات كانت قد تفضلت بالموافقة على أن تكون الراعية (ولية النعمة) الرسمية لصندوق استكشاف فلسطين. وشكل تبرعها لخزينة الجمعية بمبلغ مئة وخمسين جنيهًا، أكثر من أي تبرع آخر، رمزًا لموافقة المجتمع البريطاني واهتمامه بما اعتبر مشروعًا قوميًا [(26)].

أما الهدف من إنشاء هذا الصندوق فهو البحث وفق منهج دقيق ووثيق (!!) في آثار فلسطين، وذلك من أجل إيضاح التوراة. وعندما صدر أول عدد من المجلة الدورية للصندوق عام 1869، ظهر على غلافها «جمعية من أجل البحث الدقيق والمنظم في الآثار والطبوغرافيا والجيولوجيا والجغرافيا الطبيعية والتاريخ الطبيعي وعادات وتقاليد الأرض المقدسة لغاية التوضيح التوراتي» [(27)].

ما سبق كان قد أوضحه الباحث لوولتر بيسانت، في دراسته في كتاب **المدنية والأرض**، الذي أصدره صندوق استكشاف فلسطين، إذ قال: «كنا نقوم بثورة كاملة في فهم التوراة ودراستها، كنا نحيي العظام وهي رميم» [(28)]. وبيَّن بيسانت أن هدف الصندوق هو «الاستعادة»: «استعادة مجد فلسطين في عهد هيرود، واستعادة بلاد داود، بحيث يمكن استعادة أسماء المدن التي دمرها القائد العظيم يوشع بن نون. وكذلك استعادة مكانة القدس ومجدها وأبهتها، واستعادة أسماء الأماكن المذكورة في التوراة» [(29)]. ويظهر تلاقي البعد التوراتي بنظيره العسكري، في الإشارة إلى يوشع بن نون، وذلك في قول بيسانت: «عندما وُضعت الأسماء في أماكنها، أصبح في وسعنا تتبُّع سير الجيوش في زحفها» [(30)]. أي أن البحث العلمي قد وُظِّف في خدمة الأهداف التوراتية! فقد كان هدفهم دراسة الأرض ومسحها لـ«إثبات» حقيقة الرواية التوراتية [(31)].

احتلت القدس موقعًا مميزًا للأهداف الموضوعية لأبحاث الصندوق. فقد «وجهت بعثتها نحو القدس خلال الفترة 1867 - 1870م. وكانت التوجيهات التي أعطيت للبعثة، هي ضرورة التوصل إلى جواب لبعض المسائل المثيرة للجدل وأهمها: (1) تحديد موقع هيكل اليهود (الذي بناه سليمان وهدمه تيتوس).

(2) تحديد سنة إنشاء قبة الصخرة المشرفة (التي تسمى خطأ مسجد عمر).

(3) تحديد موقع كنيسة القيامة (هل تقوم على موقع الكنيسة التي انشأها الإمبراطور قسطنطين في القرن الرابع).

(4) تتبع جدران القدس الثلاثة التي وصفها المؤرخ اليهودي يوسيفوس.

(5) تحديد أبواب المدينة القديمة المشار إليها في التوراة وفي كتابات يوسيفوس.

(6) تحديد أماكن أخرى مهمة مواقعها الحقيقية غير مؤكدة كمدينة داود وقبر هيرود. وكانت النظريات المختلفة بشأن هذه القضايا مبنية على آراء المؤلفين الشخصية وعلى إشارات طبوغرافية مبعثرة في التوراة، وفي وصف يوسيفوس والكتّاب المسيحيين الأوائل، والحجاج المسيحيين. واعتمدوا على الروايات وكثير منها خاطئ، ولا بد للتعرف إلى الحقيقة - كما تقول التعليمات التي وجهتها لجنة الصندوق - من معرفة ما هو مجرد في باطن الأرض وكشف بقايا الأبنية القديمة. ولو أمكن إعادة تركيب مخطط البناء كما كان قبل تهديم تيتوس» [(32)].

وبعد ذلك بسنتين (1867) بعث الصندوق تشارلز وَرَن (Charles Warren)، وهو ضابط مدفعية في الجيش البريطاني، إلى فلسطين، للبدء في التنقيب في المدينة، مزودًا باعتمادات واسعة للحفر في القدس، وكان هدفه منصبًّا على منطقة الحرم القدسي الشريف.

«وبين شهري آذار/مارس وحزيران/يونيو 1867 بدأ وَرَن ورجاله بحفر أكثر من سبعة وعشرين سردابًا رأسيًا في نقاط مختلفة إلى جهتَي الجنوب والغرب من الحرم الشريف. وفضـلًا عن ذلك، نجحوا في تحديد طرفَي المدينة الجنوبي والشمالي، ودرسوا قناة مائية قديمة تحت الأرض على السفح الجنوبي، واستخرجوا عددًا من مقابض الأواني الفخارية المدموغة بكتابة عبرية قديمة تقول: «الملك» والتي كانت الصنع الأثري الكتابي الصحيح الأول الذي اكتُشف بطريقة علمية في المدينة المقدسة.

وفي تموز/يوليو، جرى مد الأروقة، أخيرًا، إلى الزاوية الجنوبية الشرقية من سور الحرم. وقد تبين أن هذا السور المهيب المنتصب بارتفاع يصل إلى ثمانين قدمًا على مستوى سطح الأرض، ممتد مسافة مئة قدم أخرى تحت الأرض. وفي الزاوية عثر المنقبون على آثار أحرف قديمة مصبوغة باللون الأحمر على مجرى الأساس. وتلك الرموز الغريبة، التي اعتقد وَرَن أنها علامات وضعها النحاتون الفينيقيون، عززت إيمانه بأن قاعدة الحرم ذاتها كانت أرضية معبد هيرودس. ومن خلال عمليات السبر القليلة التي قام بها داخل المدينة، بما فيها عملية زحف خطرة ومقيتة عبر إحدى البواليع، كان وَرَن قد وجد تماثـلًا مدهشًا في شكل حجارة أسوار الحرم الأربعة. فمثلها مثل الحجارة المربعة

الكبيرة المرئية في السور الغربي، حيث يصلي اليهود، كانت قد صُقلت بحواف ناعمة إلى الجهات الأربع كلها. وقد لاحظ وَرَن وجود هذه الأحجار المميزة في الزاوية الجنوبية الشرقية أيضًا.

الصورة الرقم (٢ - ٤)

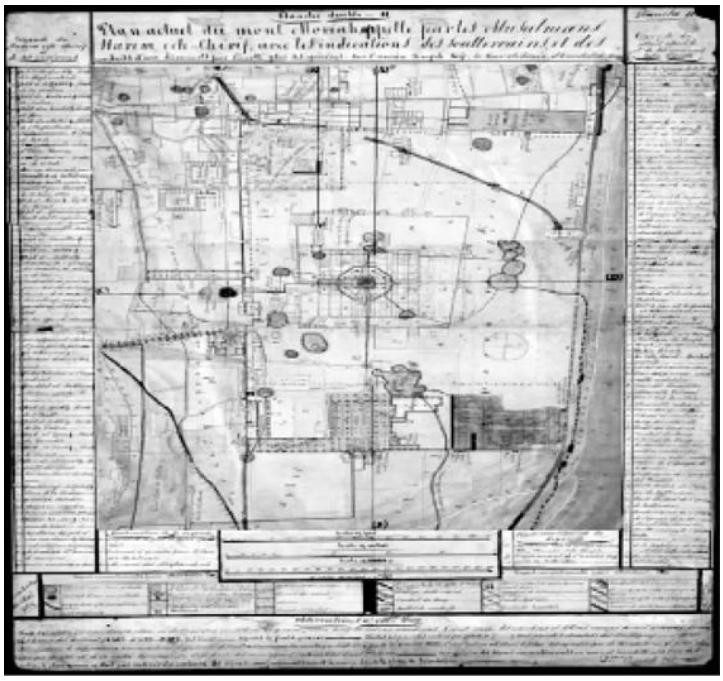

خريطة عام ١٨٦٢(*)

استند وورن بمشروع أعمال الحفر والتنقيب الأثري على خريطة من عام 1862، توثق الآبار وشبكات المياه في جبل الحرم الشريف

غير أن وَرَن ورجاله «كانوا، بعد أن توغلوا في الأنقاض المتراكمة واخترقوها، قد حسموا أخيرًا أمر تلك الملامح بدقة. ففي السراديب الرأسية التي كانوا قد حفروها حول الأسوار الجنوبية والغربية للحرم، كانوا قد تعقبوا مستويات الأرضية الصخرية وحددوا موقع وادي تربيبون [**وادي الجبانة،** أو «**الواد**»]. وما لبث الفريق أن اكتشف أن هذا المسيل المنحدر قد كان مليئًا بالقمامة والأنقاض خلال الفترات الكتابية المتأخرة وحين أقام هيرودس منصة معبده الضخم في القرن الأول الميلادي، كان وادي تربيبون [**وادي الجبانة،** أو «**الواد**»] قد اختفى تقريبًا» [(33)].

الصورة الرقم (٢ - ٥)

حفريات بعثة وَرَن مقابل الحائط الغربي،

في الصورة قوس «روبنسون»

كما ذكر وَرَن، «أن ساحات المسجد الأقصى تحتوي على 34 بئرًا، محفورة في الصخر، بأعماق مختلفة بعضها يصل طوله تقريبًا إلى 30 مترًا، فهل كان الهيكل يخترق هذه الآبار، وهذا مستحيل من الناحية المنطقية والمعمارية» (34).

ونشر وَرَن بعد عودته مجلدًا بعنوان **إحياء القدس** (*Recovery of Jerusalem*) قدّم فيه خلاصة لاستكشافاته. وبعد سنوات نشر مؤلفًا آخر عنوانه، **القدس الدفينة** (*Underground Jerusalem*) وأهم الكتب التي عالجت حفريات وَرَن، هو مجلد القدس في المجموعة المسماة، «مذكرات عملية مسح فلسطين الغربية» (Memoirs of the Survey of Western Palestine)، الذي نشرته لجنة الصندوق عام 1884، وأرفق بأطلس فيه 50 لوحة ضخمة هي نسخة طبق الأصل لمخططات رسمها وَرَن. وتفيد دراسة هذا المجلد في فهم تاريخ القدس القديمة ومعرفة التغيرات التي حدثت في المدينة منذ العصور القديمة.

ورأت اللجنة (لجنة صندوق استكشاف فلسطين) أن كشوف وَرَن لم تحلّ النقاط مثار الجدل، لأنه ليس من المعقول حلّ مشاكل طبوغرافية القدس المعقدة بسبر عدد من الأماكن المتفرقة داخل المدينة وحولها، إلا أنها - في نظر اللجنة - قد أظهرت «مدى الكنوز التي ما تزال مختبئة داخل المدينة وحولها، بانتظار قدوم بعثة أخرى» (35).

لقد أجريت حفريات في مدينة القدس ما بين الأعوام 1869 و1889، «على يد عدد كبير من علماء الآثار، فقد أعاد تشارلز كليرمونت جانو (Clermont Ganneau)، الحفر في مقابر الملوك في وادي قدرون، وخرج بالنتائج نفسها التي خرج بها أغلب علماء الآثار من أن المقابر تعود إلى الفترة «الإسرائيلية» وهي مقابر لأبشالوم، وكذلك قام كل من وايت فريارس ومايوس (White Friars And Mauss. K) سنة 1871 بتنظيف بركة بيت حسدا بمعنى بركة بيت

الرحمة، وهي من البرك التي أنشأها هيرودس في القدس (Bethesda Pool) وحفريات مودسلي (Maudsley) عام 1871 في حارة الشرف العربية ويسميها الإسرائيليون حارة اليهود، وكانت نتائج حفرياته اكتشاف محجر أو مقلع للحجارة، بينما قام تشارلز كليرمونت جانو (Clermont Ganneau) بالحفر عند قوس النصر الروماني ومنطقة أنطونيا الهيرودية» [(36)].

يقول عالم الآثار الأمريكي أولبرايت، إن «حفائر غوثي (Guthe) سنة 1881، ومودسلي (Mnudsley) سنة 1884 في القدس، كانت تفتقر إلى شواهد لتأريخ كشوفاتها، فيما عدا بعض الكتابات القليلة جدًا، فلم يكن هناك معيار حقيقي لتأريخ المباني، كما كانت الكتابات عرضة لاختلافات في الرأي، حتى إنه ليبدو أنه لا يمكن تصديق أي تأريخ تم تحديده في ذلك الحين» [(37)].

توجه صندوق استكشاف فلسطين مرة أخرى نحو القدس لمتابعة العمل الذي بدأ به وَرَن. وقد «قررت اللجنة إجراء فحص دقيق لبقايا الجدار الخارجي في الجهة الجنوبية من المدينة. وخوّل التصريح العثماني عام 1894 الإذن بالتنقيب في المنطقة الممتدة غرب سلوان وحتى قدرون شرقًا. وتولى عملية التنقيب فردريك بلس (Frederick J. Bliss) يساعده ديكي (A. Dickie)، أستاذ الآثار في جامعة مانشستر، للقيام بعمل المخططات والرسوم. وقد جرت عمليات التنقيب بواسطة الخنادق والممرات بطريقة مماثلة لطريقة وَرَن (وإن لم تكن بالعمق نفسه - 42 قدمًا) نظرًا إلى أن جزءًا من الجدار كان مدفونًا تحت الأرض. وقد تتبع بلس الجدار الجنوبي للقدس من جبل صهيون حتى وادي قدرون (باتجاه الزاوية الجنوبية الشرقية لمنطقة الحرم). وحدد مواقع أبوابه كما تعرّف على بعض أبراجه وهو جزء من نظام معقد للتحصينات ذات قيمة أثرية كبيرة.

وقد استمرت عمليات بلس حتى حزيران/يونيو عام 1897، حيث انتهت مدة الإذن العثماني (وكما اشترط نص القانون أُعيد ملء الخنادق والممرات)، ونشرت اللجنة وصفًا كاملًا لعمليات الحفر في مجلد بعنوان **حفريات القدس 1894 - 1897** (*Excavation at Jerusalem 1894-1897*) موضح بالرسوم والمخططات التي وضعها ديكي (Dickie)» [(38)]. وفي العشرين من حزيران/ يونيو عام 1897، تم إغلاق الحفريات المقدسة للمرة الأخيرة لأنها لم تصل إلى كشف أي ادعاء توراتي.

أولًا: الحفريات الأثرية في مدينة القدس (١٩٠٩ - ١٩٦٧) في عامَي 1909 و1911، «تحقَّقت بعثة كل من باركر (Parker) وفينسنت (Vincent)، من

ادعاءات الدوق والشاعر الفلندي فالتر هنريك (Valter Henrik) **بأنه يعرف مكان تابوت العهد وكنوز سليمان. خلال عامي 1905 و1906 نسجت قصة كانت تنص على أن زميل فالتير هنريك** (Valter Henrik)**، جوفيلوس** (Juvelius) **قد اكتشف شيفرة سرية في الكتاب المقدس تفيد بوجود كهف مخبأ تحت المعبد المقدس فيه كنوز مدفونة مع تقدير قيمتها أكثر من 200 مليون دولار أمريكي. ومن أجل تحديد أماكن هذه الكنوز فهو سيكون بحاجة إلى تنظيم حملة لجمع المال، لأن هذه الرحلة سوف تكون مكلفة جدًا. في الوقت الذي أكد فيه بأن العائدات ستكون هائلة.**

تمكن من جمع ما يزيد على 125.000 دولار لتأسيس شركة محدودة شُكِّلت لتسهيل عملية السفر والبحث وأطلق عليها اسم (JMPFW) المحدودة، ويُعتقد أن اسم الشركة يرمز إلى الحروف الأولى من أسماء البعثة والأطراف الرئيسة التي تشكلت للبحث عن كنوز سليمان (جوفيلوس، ميلن، باركر، والرابع وواف). وبالفعل قام جوفيلوس (Juvelius) بالسفر إلى القسطنطينية للحصول على إذن للحفر، وقدَّم إغراء لاثنين من كبار المسؤولين من السلطات الحكومية العثمانية، ووعدهم بحصة إذا عُثر على كنز سليمان.

وذهب بالتصريح إلى مدينة القدس، ولكن أكثر من مئتي شخص ادعى حقوق ملكية الأرض التي تقع تحتها الأنفاق ودفع مبالغ باهظة للحصول على موافقة على الحفر، حيث سمح لهم بالحفر ما يقرب من 700م إلى الجنوب من منطقة الحرم.

ولكن في نهاية المطاف تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، فبينما قام باركر (Barker) بتقديم الرشوة لعدد كبير من المسؤولين عن الحفر تحت المسجد الأقصى؛ اكتشف أمره وفضح، وحدثت تظاهرات حاشدة في القدس ودعوات للحفاظ على الأقصى، وسافر باركر (Barker)، عام1911، دون أن يحقق النتائج التي جاء من أجلها. وذكر أن تل أوفل «كان الموقع الأصلي لمدينة القدس، وأن نبع جيحون أدى دورًا مهمًا في تشجيع إنشاء مساكن في هذا الموقع. الدائرة أو الحلقة المفرغة التي حاول علماء الغرب كافة تلوينها تارة،

وزخرفتها تارة أخرى، لإقناعنا بهيكل هم أنفسهم سئموا منه، وفشلوا في إيجاده» [(39)].

قام ماكلستر (R.A.S. Macalister)، بحملتين تنقيبيتين لحساب صندوق استكشاف فلسطين، «**الأولى** من عام (1902 - 1905م)، **والثانية** من عام (1905 - 1909م)، وكانت الغاية من الحفر العثور على الأسوار التحصينية التي أقامها الملك سليمان لحماية القدس أو أورشليم، وكانت طريقته في التنقيب أشبه بعمل المقاولين، ففي ثماني سنوات (1902 - 1909م)، كشف عن أكثر من نصف الموقع حتى الصخر الطبيعي فضلًا عن مدفن، مستخدمًا بذلك عددًا من العمال المحليين. ويستنتج من المطبوعات الرئيسة الثلاث التي تم نشرها (Gezer I, II, III) أن عملية التوثيق لم تكن مضبوطة. إذ أغفل طبقات رئيسة في الموقع، كما استعان برسومات وصور كثيرة لا تمتّ في كثير من الأحيان إلى الطبقات التي وجدت فيها. واستعمل مصطلحات غير مبررة عند تصنيفه للمكتشفات مثل «ما قبل الساميين»، وقسم اللقى التي نسبها إلى الساميين إلى «سامي أول» و«سامي ثان» و«سامي ثالث» و«سامي رابع» (Semitic I-IV)» [(40)].

ثم أجرت بعثة بريطانية سنة (1909 - 1911)، «تحريًا عن الهيكل والقصر في عهد سليمان. وتابع الأب فنسنت (Vincent) الحفريات بحثًا عن نفق يؤدي إلى خارج الأسوار، وادعى أن الجدار الجنوبي من سور الأقصى يعود إلى عهد سليمان» [(41)]. فقد أجرى الأب فنسنت (Vincent)، «حفريات قرب نبع جيحون، واكتشف أروقة ومغارات محفورة في الصخر كانت تحتوي على أوان فخارية ترجع إلى القرن الثالث قبل الميلاد. ومن هذه المكتشفات استنتج الأب فنسنت أن التل الجنوبي الشرقي كان الموقع الأصلي للقدس، وأن نبع جيحون أدّى دورًا مهمًا في تشجيع إنشاء المساكن في هذا الموقع» [(42)].

وتابع حفريات فنسنت (Vincent)، «الأثري أورفالي (P.G.Orfali) عام 1919، في موقع كنيسة الجثمانية خارج أسوار البلدة القديمة، وجاء العالم ريموند ويل (R. Weill) للبحث عما كان يعتقد أنه موجود في الجزء الجنوبي من البلدة القديمة، حيث اكتشف بعض الحجارة التي تعود إلى العصر الروماني وقال إنها محجر، وبالطبع هذا غير صحيح لأنه حسب طبيعة المنطقة الجنوبية لم تكن محجرًا أو منطقة مقالع للحجر ولا نعرف من أين جاء بهذا الادعاء، فقد يكون اكتشف في أثناء الحفر بعض التسويات الحجرية المقطوعة في الصخر أو أعمال تسوية ومن خلالها خرج علينا بنظرية المقالع الحجرية، إذ لا دلائل أو دراسات أخرى أشارت إلى أن الموقع كان محجرًا» [(43)].

وقد أُجريت حفريات في العصور اللاحقة، «أهمها ما قام به الجنوال الألماني المعماري كونراد تشيك، الذي تخيل ورسم الهيكل الذي حلم بإنشائه، ووصف

الأستاذ مازار، رئيس الجامعة العبرية سابقًا، فيما بعد في عام 1975، أنه أسطورى. أما أهم مكتشفات هذا الجنوال فهي القناة التي تبتدئ من أسفل المدرسة المنجكية (المجلس الإسلامي حاليًا) وتصل إلى البرك الصخرية الرومانية الموجودة في دير راهبات صهيون بطول نحو 80م وارتفاع 8م وعرض 1.5م. وتقول دائرة الآثار الإسرائيلية إن تاريخ القناة يرجع إلى الفترة (152 - 37 قبل الميلاد) وكانت قديمًا تزود القدس ومنطقة الحرم القدسي الشريف بالمياه [(44)].

خلال عامي (1913 - 1914)، «نقب الفرنسي ريموند فايل (Raymond Weill)، في منطقة «الظهورة»، واقترح أن هذه المنطقة هي «قلعة داود» [(45)].

وفيما بين 1923 و1928، «قامت سلسلة من البعثات بالتنقيب في تل الأكمة (أوفيل) في القدس، تحت إشراف روبرت مكاليستر (R.A.S. Macalister)، وجارو دونكان (J. G. Duncan) وجون كروفوت (J. W. Crowfoot) على التوالي، ووجدت بهذا التل كمية كافية من المباني والفخار تثبت بصفة قاطعة أنه كان «النواة الأصلية لـ «مدينة داود»» [(46)]، وفي كل مرة كان المنقبون يربطون مكتشفاتهم بالتاريخ التوراتي [(47)].

ولم يأتِ عام على القدس دون هرولة رجال دين وأجانب وتوراتيين من 35 مؤسسة ودولة أوروبية وأمريكية وأسترالية للبحث والتنقيب، فقد «تابع الحفريات السابقة عدد آخر من الباحثين، ومنهم الباحث جون كروفوت (J. W. Crowfoot) وفيتزجيرالد (G.M. Fitzgerald). في عام 1927، وادعى أنه اكتشف بعض الحجارة تعود إلى الفترة الإسرائيلية القديمة، ولكن جاءت كاثلين كينيون (C. Kenyon) وقالت إنها تعود إلى العصر اليوناني، مستندة في هذا التحليل إلى طبيعة مادة الحجر، ونمط الجر وحجمه، وطريقة تشذيبه.

وفي عام 1930، قام هاملتون (R. W. Hamilton) بالتنقيب على أساسات باب العامود وذكر أنها تعود إلى الفترة الرومانية. كما عثر على شارع مبلط وقنوات مائية رومانية في وادي تروبين إلى الجنوب من مدينة القدس.

اكتشفت بعض الجدران بالقرب من كنيسة القيامة، وأخرى عند قلعة داوود عند باب الخليل، وبرج فصايل أحد أهم الأبراج الرئيسة في قلعة باب الخليل، التي توجد جنوب باب الخليل والتي يطلق عليها الصهاينة قلعة داوود اعتباطًا، وهي قلعة تعود إلى القرن الثاني قبل الميلاد.

كما اكتشف آثار معسكر روماني يعود إلى الفرقة العاشرة، وجزء من السور الغربي يعود إلى فترة عهد إيليا كابتولينا. وقد تمت هذه الاكتشافات الأثرية عامَيْ 1933 و1940 من طرف علماء الآثار الغربيين أمثال هارفي (W. Harvey) وجونز (C. N. Johns). أما حفريات عام 1940 فقد أجريت على يد العالم الإسرائيلي نحمان أفيغاد (N. Avigad) حيث كشف عددًا من القبور في وادي

قدرون، وجميع اكتشافاته تعود إلى العصر الهيرودي، أما حفريات عام 1949 التي لم يحدَّد تأريخ لها فقد أجريت على يد بنكر فيلد (J. Pinker Feld)، وفي عام 1947 ولغاية عام 1968 قام الأثري الإسرائيلي آفي يونا (M. Avi Yonah) بحفريات تركزت على الجزء الغربي من مدينة القدس، ولم يُعثر على شيء إلا على بعض جدران كنيسة بيزنطية.

وفي عامَي 1953 و1954، كُشف عن بعض المقابر التي تعود إلى العصر البرونزي الوسيط 2200 ولغاية 1600 قبل الميلاد، وذلك من طرف كل من ميليك (Milik) وباغاتي (Bagatti)؛ وكذلك من طرف سالر (P. Saller) ولامر (P. Lamer)، كما تابع عدد آخر من العلماء حفرياتهم وبحوثهم أمثال الباحث ليفي رحماني (L. Y. Rahmani) حيث اكتشف بعض المقابر التي تعود إلى العصر اليوناني، وتلاه العالم كوربو (V. Corbo)، والذي نقب على قمة جبل الزيتون، وعثر على كنيسة بيزنطية عام 1959، وفي عام 1960، أعيد تنظيف قبر زكريا من جانب الباحث ستاتشبوري (H. Statchbury)» [(48)].

وفي عام 1960 - 1961، «استمرت السيدة كينون العالمة البريطانية بالتنقيب في القدس معتمدة على تاريخ الفخار المكتشف، وكان هذا تحولًا مهمًا في تاريخ البحث الأثري، إذ نستطيع تحديد تاريخ الفخار أو أي جسم عضوي عن طريق فحص تبدد أشعة الفحم 14 فيه، وخلال خمسة آلاف عام.

استطاعت هذه العالمة الجريئة أن تنقض جميع الفرضيات التي قامت على المدلول التوراتي غير العلمي بنظرها، ولم يلبث جميع الذين خالفوها في البداية أن أعلنوا صواب وموضوعية اكتشافاتها. وآخر تقاريرها يؤكد أن ما حسبه المنقبون من أسوار وأبراج تعود إلى عهد داوود، أو من قوس اعتقد روبنسون أنه يعود إلى عهد داوود أيضًا، هو خطأ، بل إن جميع هذه المنشآت تعود إلى القرن الثاني الميلادي، أي إلى العصر الروماني. ونفت أن تكون الأحجار من بقايا الهيكل» [(49)].

ثانيًا: الحفريات الأثرية في مدينة القدس (١٩٦٧ - ٢٠٠٠)

أولى الحفريات التي تمت في مدينة القدس بعد عام 1967، «هي حفريات حارة الشرف التي كان يملكها العرب في مدينة القدس، وقد تهدمت هذه الحارة بفعل حرب عام 1948، ولم تتمكن بلدية القدس بسبب نقص في الأموال من ترميمها، وبعد حرب عام 1967، استغل اليهود تلك الحالة وادعوا

ملكيتهم للحارة المهدومة، وقاموا بالحفريات في أجزاء متفرقة من الحارة حتى وصلوا إلى الطبقة الصخرية، وذكر نحمان أفيغاد، أن الآثار المكتشفة في (حارة الشرف)، تتضمن حائط المدينة «الإسرائيلية»، وكان الهدف من ذلك بناء نحو 600 مسكن، لا تمت بصلة إلى طبيعة مدينة القدس وهي على علو أكثر من 6 طبقات» (50).

وقد مرت هذه الحفريات منذ عام 1968، وحتى بداية عام 1977، بتسع مراحل، نوجزها في ما يلي: **حفريات المرحلة الأولى (1968):** «أبرز تلك الحفريات هي التي قام بها بنيامين مازار (الجامعة العبرية) باسم جمعية الاستكشاف في «إسرائيل»، عند الحائط الجنوبي لما يسمونه بجبل الهيكل، وهي تمتد 70م من أسفل الحائط الجنوبي للحرم الشريف خلف قسم من المسجد الأقصى وأبنية جامع النساء والمتحف الإسلامي والمئذنة الفخرية، ووصل عمق هذه الحفريات إلى 14 مترًا، وهي تمثل باستمرار ومع مرور الوقت عامل خطر يهدد بإحداث تصدعات لهذا الحائط والأبنية الأثرية الإسلامية الملاصقة له» [(51)]. و«نشر أول تقرير عن نتائج التنقيب سنة 1969، أما ما تم اكتشافه في هذه الحفريات فكان آثارًا إسلامية أموية (660 - 750م)، وآثارًا رومانية وأخرى بيزنطية. وأصدر البروفسور مازار كتابًا سنة 1975، شرح مكتشفاته مع الصور التي تثبت أن هذه الآثار إسلامية وبيزنطية، ولكنه أصر في كتابه على أن موقع الهيكل المزعوم هو نفس موقع المسجد الأقصى المبارك، وأن مدخله من الناحية الغربية، من جهة قوس روبنسون. وقد اختلف معه البروفسور كوفمان فيما بعد وقال إن مدخل الهيكل من الشرق في موقع الباب الذهبي» [(52)].

يبين الكاتب الإسرائيلي، داني رابينوفيتش، في مقال نشره صيف عام 1998، أنه عمل في عام 1968، كمتطوع في حفريات حائط المبكى (الحائط الغربي)، وكان «مما أسفرت عنه هذه الحفريات مباني أموية». ويروي رابينوفيتش، أنه حين عاد إلى الموقع بداية السبعينيات لم يجد لهذه المباني أي أثر، حيث أزيلت من المنطقة بكاملها من أجل إفساح المجال للحفريات للوصول إلى طبقات البيت الثاني على حد قوله [(53)].

وفي عام 1968، «قام أوسسكن (D. Ussishkin)، بحفريات ومسوح لمغاور وكهوف القبور في سلوان التي يرجعها إلى الفترة من القرن العاشر إلى

القرن السادس قبل الميلاد، وتلا ذلك حفريات إيتان (A. Etan) وروث أميران (R. Amiran)، وكانت قد جرت تلك الحفريات عام 1968م، حيث أجريت الحفريات في قلعة داود، ووُجدت آثار ترجع إلى العصر الحديدي الثاني، والعصر اليوناني والروماني والبيزنطي. ولم يذكر الباحث آثار العصر الإسلامي في القلعة، وعمل كذلك الأثري المعروف بكثرة حفائره وتفسيراته التوراتية العالم نحمان أفيغاد، في عام 1969 في مناطق مختلفة من حارة الشرف (حارة اليهود حاليًا)، وأهم ما صرح به هو أنه لم يعثر على ما كان يبحث عنه، وهو منشآت هيرود التي ذكرها جوسيفوس، فقد ذكر أن المدينة تقسم إلى قسمين، مدينة عليا وأخرى سفلى، ووصف سكان كل مدينة، كما ادعى أنه عثر على شمعدان سباعي في أحد البيوت، وهذا الرمز استخدم أحيانًا في العمارة الرومانية، وهو موجود على قوس تيطس في روما، وهذا يفسر أن أصل الشمعدان روماني وليس له علاقة باليهود» [(54)].

حفريات المرحلة الثانية (1969م): وقد «جرت على امتداد (80 مترًا) آخر من سور الحرم القدسي مبتدئة حيث انتهت المرحلة الأولى ومتجهة شمالًا حتى وصلت إلى باب المغاربة، وهو أحد أبواب الحرم، مارة تحت مجموعة من الأبنية الإسلامية صدعتها جميعًا وتسببت في إزالتها بالجرافات الإسرائيلية وإجلاء سكانها» [(55)]. كانت هذه الحفريات كسابقتها بإشراف «بنيامين مزار، ومساعده بن دوف، وواصل هذا الأخير الحفر تحت القسم الشمالي لحائط البراق، حتى عمق 21م، وكشف عن 14 مدماكًا من السور مغطاة بالتراب وبقايا المباني» [(56)]. ويقول مائير بن دوف، «إنه اكتشف أساسات ثلاثة قصور أموية اثنان منها متشابهان والثالث يختلف قليلًا عن سابقيه، ويقول الأستاذ بنيامين مازار، في كتابه الذي نشره عام 1975، إنه لا يوجد أية بينات عن آثار المدينة المقدسة قبل هدم الهيكل الثاني إلا في كتب المؤرخ اليهودي جوسيفوس فلافيوس (Josephus Flavius)، الذي أرخ للفترة اليهودية، وكذلك في المشنة والتوراة والتلمود. وهذا يعني أن الأستاذ مازار، قد استقى تخيلاته التي نشرها عام 1975م، عن موقع الهيكل في هذه المنطقة من هذه الكتب التي لا تتصف بالاستقلالية، بل تعبر عن آمال اليهود دون الاستناد إلى حقائق تاريخية موثقة علميًا. ويعترف الأستاذ مازار أن مدينة القدس القديمة قد اختفت لأن الأساس الصخري لتلك المدينة قد كُشف بالحفريات «الإسرائيلية» الجديدة، ووجد هو نفسه أنه قطعت منه أحجار لأبنية حديثة. إن هذا الاعتراف يتناقض كليًا مع الافتراضات والتخيلات التي نشرها عن موقع الهيكل الوهمي والتي تفتقر إلى اللمسة العلمية والحقيقة التاريخية» [(57)].

حفريات المرحلة الثالثة (1970 - 1974م): تم استئنافها مرة أخرى سنة 1975م، و«امتدت من مكان يقع أسفل المحكمة الشرعية القديمة مارة

بأسفل خمسة أبواب من أبواب الحرم الشريف، وعلى امتداد (180 مترًا)، وبعمق يتراوح من (10 إلى 14 مترًا)، وأدت إلى تصدع عدد من الآثار الإسلامية منها الجامع العثماني ورباط الكرد والمدرسة الجوهرية، ولا يزال خطر هذه الحفريات يهدد بانهيار هذه المباني الإسلامية» [(58)]. وحسب تقرير نشرته صحيفة **معاريف** «الإسرائيلية» في 14/10/1970، «بلغ طول الحفريات عند حائط البراق حتى ذلك التاريخ نحو 230م من أصل 485م - هي حسب تصورهم الطول الإجمالي للحائط - وظهرت بنتيجتها حجارة ضخمة في المداميك السفلية لهذا الحائط، أكبرها كان في الطرف الشمالي تحت المحكمة الشرعية القديمة، طوله 11.2م وارتفاعه 3.4م، وقدر وزنه بين 300 - 400 طن، وقد تسببت هذه الحفريات بتصدع جدران وأساسات العديد من الأبنية الأثرية في المنطقة، ومنها: الجامع العثماني، رباط الكرد، المدرسة العثمانية» [(59)].

تابع الباحث لويس (U. Luis)، 1970، الحفريات في مناطق مختلفة من القدس، «وعثر على قطع حجرية صغيرة، وقال إنها جزء من سور قديم يرجع إلى القرن الأول بعد الميلاد، فهذا غير منطقي ويتنافى مع حجم الحجارة الرومانية التي كانت بأحجام كبيرة تزيد عن المترين طولًا وعرضها يصل إلى متر في بعض الأبنية، واستمرت أعمال التنقيب عام 1970، تحت إشراف مارغوفيسكي (Margovsky)، حيث عثر على قناة مياه عثمانية التاريخ، وهذا يؤكد التتابع الطبقي للتاريخ الإسلامي في القدس، قال أيضًا إنه عثر على جزء من شارع هيرودي، فهذا هو التناقض بحد ذاته فالطبقات الرومانية تفصلها عن العثمانية عدة مراحل تاريخية تزيد على 1500 عام، فهذا ينفي النتائج التي ذكر أنه اكتشفها في هذه الحفريات، أما حفريات دان باهات (D. Bahat) وبن آري (M. Ben Ari)، فقد تمت عام 1971، في مناطق متفرقة من القدس، وعُثر على قناة مياه تعود إلى العصر الصليبي، وآثار أخرى تعود إلى الفترة ذاتها بمحاذاة سور البلدة القديمة من الناحية الجنوبية الغربية الذي رمَّمه السلطان سليمان القانوني، كما أكمل بروشي (M. Broshi)، حفرياته في مناطق مختلفة من القدس.

وفي عام 1972م، كشف بينيوت (B. Beniot) عن بعض المباني التي تعود إلى العصر الروماني في مدينة القدس، وفي عام 1973 عمل كل من نيتسر (Netzer) وبن آري (Ben Arieh)، حفريات قرب القنصلية الأمريكية في القدس شمالي المدينة، وذكر الباحثون أنه كُشف عن سور المدينة الثالث وآثار كنيسة بيزنطية. يضاف إلى الحفريات السابقة الذكر أعمال كوفمان (Kuafman)، عام 1973، الذي أدعى نتيجة مسوحات ودراسات قام بها أن الهيكل مستطيل الشكل وأن مدخل الهيكل الرئيسي كان يوجد في الجهة الشرقية، ولم يكن في الجهة الجنوبية كما قال غالبية علماء الآثار الآخرين. لا يوجد شيء مادي

استند إليه كوفمان (Kuafman) بل هي مجرد تكهنات وافتراضات عن الهيكل» [(60)].

حفريات المرحلتين الرابعة والخامسة (1973): بدأت عام 1973 واستمرت حتى عام 1974، «وتقع خلف الحائط الغربي للحرم بطول (80 م)، واخترقت هذه الحفريات الحائط الجنوبي للحرم ودخلت منه إلى الأروقة السفلية للمسجد الأقصى والحرم عن طريق أنفاق (أسفل محراب المسجد الأقصى، وبعمق 20م إلى الداخل، وأسفل جامع عمر، وتحت الأبواب الثلاثة للأروقة الواقعة أسفل المسجد الأقصى، وأسفل الأروقة الجنوبية الشرقية للمسجد الأقصى)، وقد وصلت أعماق هذه الحفريات إلى أكثر من (13م)، وأصبحت تعرض سور الحرم والمسجد الأقصى للانهيار» [(61)].

أورد تقرير أعده المهندس عصام عواد، مهندس أوقاف القدس، في صيف 1974، أن «الهدف الأول والأخير من هذه الحفريات هو الكشف عن أكبر قدر ممكن من الآثار الهيرودية المتعلقة بالهيكل [...] وجرى فيها التركيز على المناطق التي تبدو مشجعة أكثر للكشف عن آثار ترجع إلى ما يسمونه «العصر اليهودي». وأكد التقرير أن الحفريات أسفل الزواية الجنوبية الشرقية للحرم القدسي، تحت موقع يسمى الإسطبلات (الحظائر) قد وصلت إلى عمق كبير، ولدى إضافة هذا العامل إلى ارتفاع السور عن مستوى الإسطبلات نحو الخارج أكثر فأكثر، يزداد عندئذ خطر انهيار السور رغم سماكته المعروفة، وبخاصة حين تؤخذ في الاعتبار عوامل أخرى (مثل: قدم البناء، تفريغ التراب الملاصق للسور في الخارج، العوامل المناخية، ضجيج الطائرات الحربية)، وذكر التقرير أن الحفريات «الإسرائيلية» تعدت حدود الجدار الجنوبي من عدة أماكن، هي من الشرق إلى الغرب: 1 - أسفل أرضية الإسطبلات، حيث تم نزع بعض الحجارة المغلقة لفتحة في السور تقضي إلى نفق بارتفاع 3م وعرض 1.2م مسقوف، ويمتد إلى الداخل نحو 20م.

2 - أسفل الباب الثلاثي، حيث توجد مجموعة من الآبار القديمة الفارغة المتصلة فيما بينها، والتي يقع بعضها خارج أسفل السور، ويمتد من أسفل الباب الثلاثي إلى الداخل تحت الساحة الشرقية.

3 - موقع إلى الغرب قليلًا من الباب الثلاثي، حيث اكتشفت حفرة منحوتة في الصخر، جرى تفريغها، تؤدي إلى نفق بعرض 70 سم وارتفاع 1م، وهذا النفق يمتد إلى الداخل باتجاه أسفل الساحة الشرقية للحرم.

4 - أسفل المدرسة الخنثية، حيث يوجد نفق طويل يمتد إلى الداخل أسفل بناء المدرسة.

وأظهر التقرير أن نزع بعض الحجارة من سور الحرم القدسي، والتوغل تحته، وتفريغ التراب الملاصق له، وفتح الآبار وغير ذلك، «يشكل اعتداءً صارخًا

على الحرم، ويهدده بأخطار الانهيار» [(62)].

حفريات المرحلة السادسة (1975): و«تقع قرب منتصف الحائط الشرقي لسور القدس والحرم بين باب السيدة مريم والزاوية الشمالية الشرقية من سور المدينة، وتهدد أعمال الحفر فيها بإزالة وطمس القبور الإسلامية والتي تضم أقدم مقبرة في المدينة، وقد نتج من مصادرة الأرض الملاصقة لإحدى هذه المقابر إنشاء جانب من منتزه «إسرائيل» الوطني فيها».

حفريات المرحلة السابعة (1975): «مشروع تعميق ساحة البراق الشريف، وهي الملاصقة للحائط الغربي للمسجد الأقصى وللحرم الشريف، ويقضى المشروع بضم أقسام أخرى من الأراضي العربية المجاورة للساحة، وهدم ما عليها وحفرها بعمق تسعة أمتار».

حفريات المرحلة الثامنة: وتقع خلف حوائط المسجد الأقصى وجنوبها، وتعتبر استئنافًا للمرحلتين الرابعة والخامسة، وبدأت عام 1976، تحت شعار «كشف مدافن ملوك إسرائيل في مدينة داود» [(63)].

وحول هذه الحفريات، يقول عفيف البهنسي: كانت المفاجأة «باكتشاف آثار ثلاثة قصور ومسجد من العصر الأموي، وأعلنا أن هذه القصور قد استمرت عامرة خلال العصر الأموي والعباسي والفاطمي» [(64)] .

حفريات المرحلة التاسعة (1981): «اخترقت الحائط الغربي للحرم القدسي الشريف وأعادت فتح نفق كان قد اكتشفه كولونيل إنكليزي سنة 1880، اسمه ورن وسمي باسمه. ويقع ما بين بابي الحرم المسماة باب السلسلة وباب القطانين أسفل جانب من الحرم اسمه المطهرة، وتوغلت أسفل ساحة الحرم من الداخل على امتداد 25 م شرقًا وبعرض 6 م، ووصلت أسفل سبيل تاريخي مشهور هو سبيل قايتباي، وقد أدت هذه الحفائر إلى تصدع في الأروقة الغربية الواقعة بين بابي السلسلة والقطانين» [(65)] واستكمالًا لهذا فقد حفر «الإسرائيليون» فتحات في نفق أو قناة عند باب الغوانمة، ويطلق عليه مجير الدين الحنبلي اسم باب الخليل، وينتهي هذا النفق عند ساحة المغاربة بطول 450 م، وبالرغم من شكاوي حكومة الأردن إلى اليونسكو، وصدور قرارات من قبل اليونسكو بضرورة وقف حفر تلك الأنفاق، فإن «الإسرائيليين» لم ينصاعوا لتلك القرارات، وجاء في تقرير المستشار الفني لمدير عام اليونسكو مايور (Mayer)، الذي نشره عام 1996، أن ««الإسرائيليين» قد استعملوا مواد كيماوية خاصة لتسهيل تفتيت الصخر في داخل النفق، وهذه المواد تمثل خطورة على أساسات الأبنية الإسلامية، إذا وصلتها عن طريق المياه الجوفية» [(66)].

وفي شهر آذار/مارس من عام 1987، أعلن الإسرائيليون أنهم اكتشفوا «القناة التي كان قد اكتشفها قبلهم الجنرال الألماني، كونراد تشيك، في القرن التاسع عشر، بطول 80 م. ولم يكتفِ «الإسرائيليون» بإيصال النفق بالقناة بل قاموا بتاريخ 7/7/1988، وتحت حماية الجيش «الإسرائيلي» بحفريات جديدة عند ملتقى طريق باب الغوانمة مع طريق المجاهدين (أو طريق الآلام)، واستخدموا فيها آلاف الحفر الميكانيكية، بهدف حفر فتحة رأسية ليدخلوا منها إلى القناة الرومانية وإلى النفق، ولكن تصدى لهم المواطنون في القدس الشريف ومنعوهم من الاستمرار فاضطرت السلطات «الإسرائيلية» إلى إقفال الفتحة وإعادة الوضع السابق» [(67)]. فقد أظهرت الحفريات التي بدأت منذ عام 1982 وانتهت في عام 1988، أنه لم يُعثر على «أي أثر يهودي هناك» [(68)].

يشير كتيب **القدس السفلى حفر جحور وأنفاق تحتية (تحت الأرض) بمنطقة الحوض المقدس**، الصادر عن مؤسسة «عمق شبيه» (مؤسسة تضم علماء آثار «إسرائيليين» ينتقدون استعمال كيان العدو الصهيوني البحث والحفريات الأثرية لخدمة حاجات ودواع سياسية وأيديولوجية)، «إلا أنه في بداية سنوات الـ 1990، [تم] اكتشاف مجدد لبوابة وَرَن، المدخل الذي يوصل للحرم الشريف أسفل مستوى الحي اليوم، حتى إنها أقيمت تحت رعاية مكتب حكومي، واعتبر هذا التنقيب كعمل قانوني على مدار سنين، مع العلم أن مديرية قسم الآثار (القسم الذي سبق سلطة الآثار الإسرائيلية) لم يعط ترخيصًا للقيام بالحفريات ولا يوجد أي توثيق أو تسجيل لنتائج الحفر. بداية عند فتح الأنفاق أمام الزائرين لم يتواجد باب للخروج من النفق، وإنما دخل الزوار وخرجوا من نفس المدخل، بالقرب من ساحة الحائط الغربي. في عام 1993، انتهت الأعمال لتمديد أنفاق الحائط الغربي حتى «طريق الآلام» في الحي الإسلامي، مع تأجيل موعد فتح باب الخروج حتى عام 1996، في أوائل عهد بنيامين نتنياهو، وبفترة أقل من سنة على اغتيال رابين، في ذروة الصراع ضد السلطة الفلسطينية على السيطرة السياسية بمنطقة القدس الشرقية. بفترة تولي أيهود اولمرت رئاسة البلدية، قرر فتح مدخل النفق الشمالي في طريق الآلام. افتتاح النفق «حجر الأساس للهيمنة الإسرائيلية» أدت إلى اندلاع العديد من المظاهرات العنيفة ومعارك رمي بالنار بين «إسرائيليين» وفلسطينيين في أنحاء الضفة، والتي أودت بحياة العشرات وجرح المئات [هبّة النفق]. في أوج الصراعات والحرب بين الطرفين بدأت مؤسسة إحياء تراث الحائط الغربي باستخدام المخرج الشمالي للنفق، وهذا للسماح وتمكين أكبر عدد من الزوار بزيارة أنفاق الحائط الغربي. هكذا وسّعت مؤسسة تراث الحائط الغربي مساحة المنطقة الواقعة تحت سيطرتها وبمسؤوليتها حتى قلب الحي الإسلامي» [(69)].

وبعد فتح النفق عام 1996، ظهرت تأكيدات إسلامية أن هذا الأمر يهدف إلى «الاستيلاء على وقف إسلامي هو رباط الكرد، والذي يسميه اليهود «المبكى الصغير»، خاصة وأن هناك أوراق أدعية وضعها اليهود المتدينون في شقوق جدار ذلك المبنى» [(70)].

منذ منتصف التسعينيات أصبحت سلطة الآثار «الإسرائيلية» الهيئة المركزية والحصرية تقريبًا المخولة بخوض حفريات في منطقة البلدة القديمة والحوض التاريخي. «سلطة الآثار هي المسؤولة عن التنقيب الأثري من بركة هشيلواح/ الحمرا في منحدرات سلوان حتى باب الزاهرة في منطقة السور الشمالي للمدينة القديمة. معظم عمليات التنقيب الأثري أجريت بمبادرة من جهات خارجية غير تابعة لسلطة الآثار (جهات حكومية وغير حكومية)، سواء كانت بإطار حفريات إنقاذ أو حفريات لتنمية السياحة أو البناء. بالنسبة لنطاق الحفريات التحتية (تحت الأرض) بدأت بإطار محدد، مساحة صغيرة في منطقة عين أم الدرج/عين الجيحون، هذا وفقًا لطلب المستوطنين من جمعية إلعاد [(71)] وسلطة الحدائق» [(72)].

ثالثًا: الحفريات الأثرية في مدينة القدس (٢٠٠٤ - ٢٠١٨)

في عام 2004 حدث تحول، حيث اكتشف في المنحدرات الجنوبية من موقع مدينة داود وحي وادي الحلوة في سلوان بركة مياه قديمة وآثار لشارع من العصر الروماني يعلو باتجاه الحرم القدسي الشريف. وفي الوقت نفسه، بدأت حفريات واسعة النطاق بمنطقة الواد تحت كنيس أوهل يتسحاق (خيمة إسحاق)، بالقرب من باحة الحائط الغربي. مع العلم أنه واضح للجميع أن كلا الموقعين البعيدين الواحد عن الآخر هما منفصلان حيث إن أسوار المدينة القديمة وبيوت وادي الحلوة في سلوان تفصل بينهما ولكنهما فعليًا متصلان بواسطة شوارع وقنوات تحتية (تحت الأرض) تم الكشف عنها في أيام بليس وديكي. ومنذ ذلك الوقت خطرت فكرة الربط الفعلي بينهما اعتمادًا

على نتائج تلك الحفريات القديمة، سواء من الناحية الفعلية - من طريق اكتشاف مجدد للأنفاق القديمة - وفكريًا - من خلال استعادة الحفر بطريقة الآبار، الطريقة المهجورة منذ زمن. منذ عام 2004 اتحدت سلطة الآثار الإسرائيلية مع الهيئات الأيديولوجية التي تسعى لتطوير منطقة الحائط الغربي (حائط المبكى) ومدينة داود، وبدأوا العمل على تنفيذ خطة ربط مدينة داود مع ساحة الحائط الغربي (حائط المبكى) بواسطة نظام تحتي واحد. نظام يتألف من أنفاق وقنوات صرف صحي قديمة، ومساحات جوفية كبيرة تم إخلاؤها من محتوياتها. في سنوات (2005 - 2008) حين بدأت سلطة الآثار بحفر أنفاق في منطقة سلوان، ومنطقة حائط المبكى (الحائط الغربي)، وثم حفر نفق يربط بين كنيس أوهل اسحق (خيمة إسحاق) وأنفاق الحائط الغربي. بحفريات جانبية في الجزء الجنوبي من سلوان تم الكشف عن أجزاء الشارع القديم الذي تم توثيقه والإعلان عنه من قبل بليس وديكي في القرن الـ 19. في وقت لاحق، على مستوى مرتفع من الشارع مع التغلغل من الأعلى في اتجاه قنوات بليس وديكي تم اكتشاف قناة لصرف المياه مبنية من الحجارة ومسقوفة طولها يزيد عن طول شخص عادي. بنيت هذه القناة على الأرجح أسفل تكملة الشارع الذي يعود تاريخه إلى الهيكل الثاني (الفترة الرومانية). تمر القناة تحت شارع وادي الحلوة، على امتداد كل الشارع وأسفل المنازل المجاورة له، مرورًا بمنطقة حفريات

الحائط الغربي (منطقة مركز ديفيدسون) في البلدة القديمة، حتى باحة حائط المبكى (الحائط الغربي)، مع التنويه إلى أن جمعية إلعاد الاستيطانية هي التي تمول الحفريات في سلوان، وسلطة الآثار الإسرائيلية هي التي تقوم بإنجازها كجزء من التنمية السياحية للحديقة الوطنية «مدينة داود» .

منذ عام 2007 تنظم حفريات أثرية داخل أنفاق حائط المبكى، وحفريات أخرى في مناطق ما بين شارع الواد (الحدود الغربية)، وأنفاق حائط المبكى (الحدود الشرقية) أسفل بيوت سكان الحي الإسلامي، وتقدر مساحة التنقيب الأثري بمئات الأمتار المربعة والعمل ينطوي على خرق فتحات في الجدران القديمة، وإزالة كميات كبيرة من التربة، مع العلم أنه لم يُجرَ توثيق منهجي منظم سوى لجزء بسيط منها. بهذه الحفريات رجعوا إلى مناطق حفر سابقة قد تطرق إليها باحثون سابقون مثل ورن وهاملتون وغيرهما.

كشفت الحفريات عن آثار من جميع الفترات المهمة في تاريخ المدينة تقريبًا: حمام كبير من فترة المماليك (حمام العين)، آثار من فترة إيليا كابيتولينا (اسم القدس في أواخر العصر الروماني)، آثار من الفترة الرومانية القديمة وغيرها [(73)].

في عام 2007، أشرفت جمعية إلعاد على الحفريات في موقع جفعاتي (جنوب شرق بوابة المغاربة، على طرف سلوان، وعلى مقربة من الحرم الشريف).

بدأ الحفر الإسرائيلي في المكان عام 2003، واستمر بصورة متواصلة من عام 2007، ولغاية اليوم. تصل مساحة الحفريات إلى نحو 5 دونمات - وهي مساحة كبيرة وفقًا لمفردات الحفريات الأثرية عامة وفي الحوض التاريخي للقدس بخاصة. «وقد تم تقسيم المنطقة إلى مربعات، وفي كل مرة يتم حفر مربع إضافي رغم أن المفاهيم الأثرية الدارجة تقوم على حفر المنطقة كلها بمستوى واحد بالتقريب. وتصل الحفريات إلى عمق نحو 20 مترًا في بعض المقاطع، وهي أعماق استثنائية في الحفريات الأثرية النموذجية. وقد أدت الحفريات بمثل هذه الأعماق الكبيرة بالمبادرين إلى وضع دعامات لتثبيت جدران المنطقة المحفورة. ومن المقرر لهذه الدعامات أن تستعمل مستقبلًا كأسس للمبنى المخطط. حجم الحفريات، وعمقها واستعمال آلات ميكانيكية ثقيلة لوضع الدعامات، يدل على أن الحفريات تهدف إلى إعداد المنطقة للبناء، وليس بالضرورة للكشف عن أثريات قديمة. على الرغم من العيوب

الأدبية في الحفريات فإن نتيجتها تقود إلى حقيقة منتهية وستتحول نتائجها إلى جزء من الاعتبارات الخاصة بالتطوير المستقبلي للموقع.

الطبقة الأولى، التي تم الكشف عنها تحت أطباق الثرى هي بقايا حي سكني من الفترة العباسية (القرنان الثامن والتاسع الميلاديان)؛ إلى جانب الحي تم الكشف عن قبور إسلامية. نظرًا إلى العثور على كتابة بالعبرية في هذه الطبقة فهناك من يرى أن الحوش كان بمثابة مساكن لليهود أو القرّائين. يقع الحي العباسي فوق طبقة من المباني البيزنطية أو الرومية. وقد تم الكشف عن مبنى سكني كبير من الفترة الرومانية المتأخرة (القرنان الثاني والثالث الميلاديان) يضم أرضية من الفسيفساء، على مقربة من الصخرة الأم في الطرف الشرقي من منطقة الحفر. في القسم الشمالي الغربي من منطقة الحفر تم الكشف عن مبنى كبير الحجم مقام حول اتريوم (ساحة مركزية) مسور بأعمدة؛ وفي الطرف الجنوبي تم الكشف عن مبنى مكون من طابقين من القرن الأول الميلادي؛ بقايا خراب (ربما من عام 70 ميلادية) والقليل من البقايا الأكثر قدمًا. البقايا الأساسية التي بقيت في المنطقة هي مبنى كبير الحجم من الفترة الرومانية المتأخرة والفترة البيزنطية. على مدار سنوات الحفر نشرت في وسائل العلم نتائج استثنائية تم العثور عليها، بدءًا من كنز كبير من العملات الذهبية تم العثور عليه من الفترة البيزنطية. وانتهاء بمبنى من فترة الهيكل الثاني، الذي اقترح اعتباره قصرًا للملكة هيلانة» [(74)].

وقد كشفت حتى الآن عن «قبور إسلامية (أكثر من 100 جثة) ومبان أموية ضخمة، ومن المعتقد أن هذه المنطقة كانت جزءًا من المجمع الإداري (دار الإمارة) الأموي، والذي بُني في نهاية القرن السابع وبداية القرن الثامن الميلادي. كما تم اكتشاف حارة عباسية في الموقع، الأمر الذي يضفي على الموقع درجة عالية من الأهمية العلمية» [(75)].

ففي شهر أيار/مايو 2008، نشرت صحيفة **هآرتس**، «عُثر خلال عمليات الحفر في موقف سيارات جيعفاتي (Givati)، على عظام بشرية، ولكنها ببساطة اختفت. ولم تقدم إلعاد تقريرًا بالعثور على تلك العظام، كما لم تسلمها إلى وزارة شؤون الأديان، كما يتطلب القانون» [(76)].

جاء في كتيب **نشاطات أثرية مركزية في البلدة القديمة عام 2011، وتأثيراتها الاجتماعية - السياسية**، الصادر عن مؤسسة «عمق شبيه»، في الفصل الثاني «نشاطات أثرية بارزة في البلدة القديمة عام 2011»، ما يأتي: في عام 2004، تساقطت بعض الحجارة من سور المدينة القديمة إلى باحة مدرسة «كلية دي فرير»، في الحي المسيحي، سقوط الحجارة حث المسؤولين عن البلدة القديمة وآثارها للبدء بالترميم والحفاظ على سور المدينة. في عام 2007، وبعد عدة سنوات من الدراسة والتخطيط، بدأت سلطة الآثار الإسرائيلية،

بأعمال ترميم، صيانة وإعادة بناء أجزاء من السور. استمرت أعمال الترميم حتى نهايتها في عام 2011. مكتب رئيس الوزراء هو المسؤول والمموّل لأعمال الترميم والصيانة هذه، وتديرها شركة تطوير القدس، تكلفة المشروع نحو 20 مليون شيكل.

بُني سور المدينة القديمة الحالي في القرن السادس عشر، ببدايات فترة الحكم العثماني في البلاد. أجزاء معينة من الجدار تم تشييدها على امتداد الأسوار القديمة من الفترة الصليبية، من الفترة الرومانية - البيزنطية والفترة الإسلامية.

كنيسة نيا (كنيسة القديسة مريم): كُشف عن بقايا كنيسة نيا (كنيسة القديسة مريم) في سنوات السبعينيات، خلال الحفريات في الحي اليهودي، وهي تعود إلى القرن السادس الميلادي. الكنيسة المثيرة للغاية معروفة في الكتب والمصادر الأدبية كواحدة من أكبر الكنائس في القدس، وقد تحدت كنيسة القيامة بفخامتها. الآثار التي تم الكشف عنها شملت: قسمًا من الحنية - Apse (وهو شكل نصف دائري يتجه إلى الشرق)، نظام أقبية تحت الأرض، إضافة إلى الزاوية الجنوبية الشرقية للكنيسة. فوق بقايا الآثار المؤرخة للفترة البيزنطية اكتشفت آثار كنيسة تعود إلى الفترة الصليبية. هذه الكنيسة أصغر من كنيسة نيا (كنيسة القديسة مريم)، ولكنها تعد واحدة من أكبر الكنائس التي تم الكشف عنها في القدس وتعود إلى هذه الفترة.

توجد الكنائس اليوم في منطقة الحديقة العامة المركزية في الحي اليهودي التي تدعى «حديقة القيامة»، ولكنها (الكنائس) مسيّجة ومغلقة أمام جمهور الزائرين. الكنائس الموجودة في المنطقة بمسؤولية شركة إعادة إعمار وتطوير الحي اليهودي. للتنويه ممكن زيارة كنيسة نيا (كنيسة القديسة مريم)، بتنسيق مسبق مع مكتب الشركة، وغالبًا ما يتطلب الأمر قدرًا كبيرًا من الصبر والإصرار للحصول على مفاتيح موقع الحفريات. الموقع مهمل ومليء بالنفايات، وفي أرجاء الموقع تتبعثر بقايا حجارة وعناصر معمارية قد سقطت ترى كأنها جزء من النفايات في المكان. وفقًا لمخطط شركة إعادة إعمار وتنمية الحي اليهودي، التي تملك معظم الأراضي (المساحة) في الحي اليهودي، فإن المنطقة المجاورة لكنيسة نيا سيعد لموقف سيارات تحتي (تحت الأرض) لخدمة سكان الحي من الإسرائيليين اليهود.

الحفريات في هعوفل (الأكمة) - مركز ديفيدسون: يقع الموقع في جنوب الحرم الشريف، وأسوار المدينة القديمة وقرية سلوان. يعد موقع الحفريات الأكبر والمستمر على التوالي في البلدة القديمة. كشف في الموقع عن قبور تعود إلى العصر العباسي (القرن الثامن - التاسع ميلادي)، وعن بقايا مباني كبيرة تم تعريفها كقصور أو مبانٍ للسلطة تعود إلى العصر الأموي (القرن السابع - الثامن ميلادي). تحتها وبجانبها كشف عن طبقة من العصر البيزنطي

(القرن الرابع إلى السابع ميلادي) احتوت مباني سكنية وبناءًا عرّف بأنه أحد الأديرة، ووجدت آثار من أواخر العصر الروماني (القرن الأول إلى الرابع ميلادي) على ما يبدو بقايا مبانٍ للجيش، مثل مخبز استخدم لأغراض الجيش الروماني (الفيلق العاشر) الذي كان في القدس. طبقة أخرى تعود إلى العصر الروماني القديم - حقبة الهيكل الثاني (القرن الأول قبل الميلاد - الأول للميلاد). كما اكتشفت آثار، بنطاق ضيق نسبيًا، من مراحل سابقة.

أعلن عن المكان كحديقة وطنية في أواخر الـتسعينيات، وبعدها ببضع سنين، في أوائل سنوات الألفين، بُني مركز ديفيدسون وتحوّل المكان كله إلى متحف ناشط. يدير المركز شركة تنمية وتطوير القدس الشرقية - شركة حكومية - بلدية. ولتحضير الموقع وتجهيزه للزوار أجريت أعمال للحفاظ واسترجاع (إعادة بناء) القصور الأموية، الشارع الهيرودي ومبانٍ من العصر البيزنطي وأخرى غيرها.

أعمال ترميم وصيانة المكان المكفائوت - مسار المطاهر: في حزيران/يونيو 2011، افتتح للزوار موقع «أسوار هعوفل - الأكمة». وهو جزء صغير من منطقة حفريات هعوفل - الأكمة، يقع بالقرب من طريق المكفائوت - مسار المطاهر. اكتشف في المكان عدد من الجدران تنسب إلى القرن 7 - 8 قبل الميلاد - فترة مملكة يهودا (المُتخيلة). أعمال الترميم، التجديد والصيانة في المنطقة شملت أجزاء المباني القديمة ومبنى بيزنطيًا. هذا المقطع، الشحيح بالبقايا الأثرية بوجه عام وبطبقات هعوفل بوجه خاص، يعد بمثابة تحوّل مركزي في المسار السياحي. إن المخلفات الأثرية التابعة للقدس في فترة مملكة يهودا تعد موجودات ذات أهمية كبيرة في الحضارة الإسرائيلية (المُتخيلة)، أكثر كثيرًا من ماهيتها.

تخلق أعمال الترميم، التجديد والصيانة، بمنطقة أسوار هعوفل وحفر الأنفاق، تسلسلًا سياحيًا حتى موقع «مدينة داود» في قرية سلوان. إن حفر نفق يربط بين المدينة القديمة والموقع، ونسب سور هعوفل إلى فترة الملك سليمان، يشبه نسب مخلفات أثرية عديدة في منطقة مدينة داود كجزء من قصر داود.

طريق الواد: مع نهاية عام 2011، أعلنت «سلطة تطوير القدس» عن مناقصة لأعمال البنية التحتية في شارع هجاي - الواد، مع العلم أن مخطط هذه الأعمال كان معروف منذ فترة طويلة. أعمال الصيانة بالبنية التحتية هذه شملت استبدال خط للصرف الصحي يمتد تحت الشارع، من باب العامود حتى باحة الحائط الغربي. في سنوات السبعينيات والثمانينيات حفر علماء آثار عدة في منطقة شارع الواد. بحيث انه يمكن الافتراض بان معظم المنطقة التي ستقام بها أعمال الصيانة في البنية التحتية، قد تم حفرها في الماضي. لا يمكننا تقييم ما إذا كان سيتم استخدام الحفريات كنفق لربط حفريات أنفاق

الحائط الغربي، المنتهية بطريق الآلام - فياديلاروزا، مع باب العامود أو مع كهف صدقيا (مقالع سليمان).

كهف صدقيا المعروف باسم محاجر سليمان/مقالع سليمان: يقع الكهف أسفل ربع مساحة الحي الإسلامي، والدخول إليه من خارج أسوار المدينة القديمة، بين باب العامود وباب الساهرة/الزاهرة. أُعدّ وهُيّئ الموقع للحركة السياحية منذ عشرات السنين وهو بإدارة شركة تطوير القدس الشرقية (פמ"י). تجرى في هذه الأيام أعمال تطوير في الموقع تشمل توصيل خط للصرف الصحي إلى داخل كهف صدقيا وبناء مراحيض. إضافة إلى حفر مدخل للطوارئ يوصل إلى خارج الأسوار، مقابل شارع صلاح الدين. أعمال التطوير في الموقع أعدت لتهيئته للمناسبات ولزيارة مجموعات.

الصورة الرقم (٢ - ٦)

كهف صدقيا المعروف باسم محاجر سليمان (مقالع سليمان)

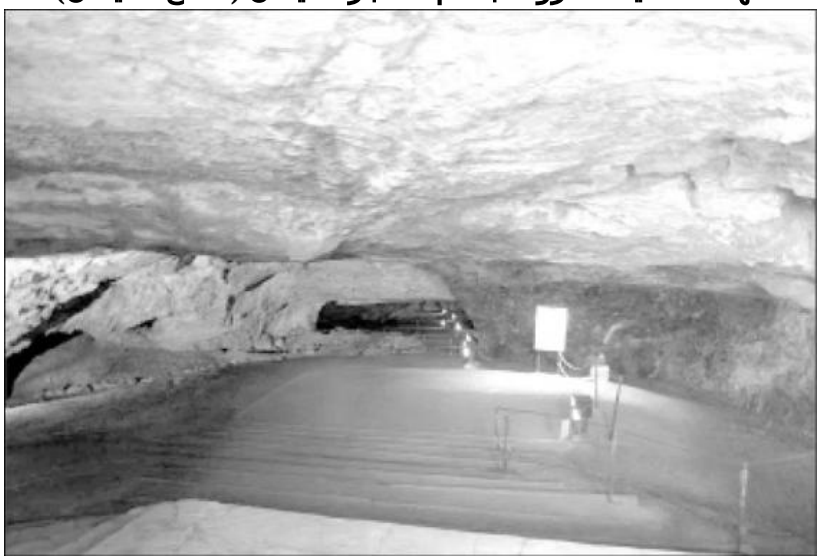

استخدم كهف صدقيا كمحجر لتقطيع الصخور على مدار آلاف السنين. مخلفات أثرية تدل على استخدامه كمحجر نسبت لبداية القرن الثاني قبل الميلاد حتى القرن الـ 15 للميلاد، يعتبر هذا الكهف أحد الكهوف الكبيرة والمتفرعة التي صنعها الإنسان في القدس. قد تم استخدامه خلال فترات مختلفة باختلاف القواعد والحكام لغرض البناء. لا يوجد في الموقع مركز إرشاد وجولات بشكل منتظم، وإنما جولات متفرقة في الأعياد وخلال الأيام ما بين الأعياد تتطرق إلى أن الكهف استُخدم كمصدر لحجارة بناء المعبد (فرضية لا يمكن إثباتها).

باب الزاهرة/ الساهرة - برج اللقلق: برج اللقلق، وهو إحدى المناطق القليلة المحفورة غير الموجودة في الحي الإسلامي. يقع شرق باب العامود يقطع السور ومنطقة منازل حي السعدية. في عام 1998 بدأت سلطة الآثار

الإسرائيلية بعمليات حفر في المنطقة وهذا لتهيئتها كمنازل سكنية معدّة خصيصًا لاستخدام مستوطنين «إسرائيليين». وزارة السياحة هي المبادرة والممولة لأعمال التنقيب الأثري في المنطقة، مع العلم أن المنطقة قد خُصصت لمنازل سكنية وليس لغرض تنمية السياحة. في الحفريات التي أقيمت تم العثور على بقايا مبانٍ نُسبت إلى القرن الأول ميلادي حتى الفترة العثمانية (وبالتالي، لا يمكن ربطَ الموقع بأي شيء له علاقة بالتاريخ اليهودي، الأمر الذي أدى إلى موافقة هذه السلطة على السماح بالبناء على الموقع).

في عام 2008 توقفت أعمال التنقيب الأثري بالمكان بعد كشف جزئي عن المخلفات القديمة، ولم تُتّخذ أي خطوة لحفظ وحماية الآثار. لهذا السبب، فإن المنطقة لا تزال مهملة والمخلفات الأثرية التي تم الكشف عنها معرّضة للضرر، والوصول إلى منطقة مسيّجة ومغلقة. رغم أنه في السنوات الأخيرة لم يتم الحفر في الموقع، نرى أنه سوف تستمر الحفريات في المنطقة حين يقرَّر سياسيًا تعزيز البناء الاستيطاني «الإسرائيلي» في المنطقة.

حائط المبكى الصغير: «حائط المبكى الصغير» هو جزء من حائط يقع في الحي الإسلامي، في زقاق ضيق بطرف شارع باب الحديد (شارع يؤدي إلى محيط الحرم الشريف). الحديث عن جزء صغير من الجدار الغربي الداعم الذي يسند الحرم الشريف، وقسم منه ينسب تاريخه إلى فترة الهيكل الثاني. حائط المبكى الصغير معروف بأنه المكان الأقرب إلى قدس أقداس المعبد/ الهيكل ومسموح لمصلين يهود أن يصلّوا فيه. طول مقطع الحائط نحو 10 أمتار، وفي السنوات الأخيرة، يستخدم المكان كمصلّى لليهود، وخصوصًا في أيام الجمعة. افتتاح المكان لصلاة المصلين اليهود يولّد احتكاكًا بين السكان الفلسطينيين الذين يعيشون بمحاذاة حائط المبكى الصغير وبين اليهود الذين يأتون للصلاة، حيث يضطر السكان المحليون إلى ملاءمة حياتهم وفقًا لمواعيد الصلاة والمناسبات اليهودية التي تقام في حائط المبكى الصغير.

بركة حزقيا (ما تسمى بركة البطرك أو بركة حارة النصارى): في الحي المسيحي (حارة النصارى) يوجد مجمع للمياه يدعى «بركة حزقيا»، محاط بالمنازل من جميع الجهات مبني على شكل مستطيل، وإن لم يكن متماثـلًا. من جهة الشمال يحيط المجمعَ خانُ الأقباط ومن باقي الجهات الأخرى محاط بالمنازل والمحلات التجارية. لم يُدرس تاريخ البركة ولم تُحفر حتى يؤرخ زمن بنائها، ولكنه قد تم حفر قناة صرف المياه المتصلة بالمجمع ونسب تاريخها إلى أواخر العصر الروماني (القرن الثاني للميلاد).

لذلك، فعلى الأرجح أن مجمع المياه هو من الفترة نفسها. من خلال صور التقطت ببداية القرن الـ 20 يلاحظ أن البركة كانت مليئة بالمياه. اليوم هو فارغ لأنه لا يوجد ممر مياه منظم إلى المجمع. في السنوات الأخيرة كانت هناك مبادرات عديدة لتنظيف الأوساخ المتراكمة في البركة عقب الظروف

الصحية السيئة وخطر المرض والتلوث. في الآونة الأخيرة، وجّهت مجموعة من طريق الإنترنت نداء لتنظيف البركة وحفرها نظراً إلى أهمية الموقع للشعب اليهودي. تنسب المجموعة تاريخ الموقع إلى الملك حزقيا من القرن الثامن قبل الميلاد، على الرغم من الوضوح بأنه لا توجد أي صلة بين مجمع المياه وحقبة حزقيا، ويبدو أنه قد بني في أواخر العصر الروماني - البيزنطي.

في نفس وقت نشاط المجموعة على الإنترنت بدأت بلدية القدس بتنظيف المُجمّع بسبب استياء الأقباط، واليونانيين - الأرثوذكس والوقف الإسلامي أصحاب مجمَّع المياه (ملك لهم). بدأت عمليات التنظيف في حزيران/يونيو 2011، واستمرت عدة أشهر من العمل المكثف والمستمر. أجريت أعمال التنظيف من طرف واحد، والأطراف المعنية لم تنجح بالتنسيق فيما بينها، على الرغم من الدافع المشترك [(77)].

إن جميع الحفريات التي تمت في مدينة القدس، تثبت أن ما ذكره المنقبون من تصورات تربط مدينة القدس بالروايات التوراتية، هي تصورات وهمية قام الأثريون بافتراضها، اعتمادًا على النص التوراتي كمرجعية في تفسير الآثار وفهمها.

---

(1) نيل سيلبرمان، بحثًا عن إله ووطن صراع الغرب على فلسطين وآثارها (1799 - 1917م)، ترجمة فاضل جتكر (دمشق: قدمس للنشر والتوزيع، 2001)، ص 22.

(2) حسين عمر حمادة، آثار فلسطين بين حرب الهياكل العظمية التوراتية اليهودية ووثائق الاستكشافات الأثرية والعلمية والميدانية الدولية (دمشق: دار قتيبة للطباعة والنشر، 1983)، ص 57.

(3) شامخ علاونه، «الحفريات الأثرية في مدينة القدس ما بين الأعوام (1863 - 2009) والحق التاريخي للعرب منذ تأسيسها (دراسة تاريخية)،» مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات (فلسطين)، السنة 1، العدد 27 (حزيران/يونيو 2012)، ص 352.

(4) وليم أولبرايت، آثار فلسطين، ترجمة زكي إسكندر ومحمد عبد القادر محمد (القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 1971)، ص 28.

(5) علاونه، المصدر نفسه، ص 352.

(6) كيث وايتلام، تلفيق إسرائيل التوراتية طمس التاريخ الفلسطيني، ترجمة ممدوح عدوان، ط 2 (دمشق: قدمس للنشر والتوزيع، 2002)، ص 37.

(7) لمزيد من التفاصل، انظر: إدوارد سعيد، الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء، ترجمة كمال أبو ديب (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1981).

(8) كيث وايتلام، «إعادة اكتشاف فلسطين،» في: كيث وايتلام [وآخرون]، الجديد في تاريخ فلسطين القديمة، ترجمة عدنان حسن وزياد مني (دمشق: قدمس للنشر والتوزيع، 2004)، ص 23.

(9) سيلبرمان، بحثًا عن إله ووطن صراع الغرب على فلسطين وآثارها (1799 - 1917م)، ص 42 - 43.

(10) لمزيد من التفاصيل حول تلفيق جغرافية التوراة وانتهاك الجغرافية الفلسطينية في أعمال روبنسون، انظر: أحمد الدبش، «اختلاق تاريخ وجغرافيا «إسرائيل» (1)،» باب الواد، 27 تشرين الأول/ أكتوبر 2017، <https://bit.ly/3bN42Fl>.

(11) مايكل بي. أورين، القوة والإيمان والخيال: أمريكا في الشرق الأوسط منذ 1776 حتى اليوم، ترجمة آسر حطيبة (أبو ظبي: كلمة؛ القاهرة: كلمات عربية للترجمة والنشر، 2008)، ص 146.

(12) سيلبرمان، بحثًا عن إله ووطن صراع الغرب على فلسطين وآثارها، ص 79.
(13) علاونه، «الحفريات الأثرية في مدينة القدس ما بين الأعوام (1863 - 2009) والحق التاريخي للعرب منذ تأسيسها (دراسة تاريخية)،» ص 353.
(14) فانسان لومير، القدس 1900 زمن التعايش والتحولات، ترجمة غازي برو (بيروت: دار الفارابي، 2015)، ص 88.
(15) سيلبرمان، بحثًا عن إله ووطن صراع الغرب على فلسطين وآثارها، ص 125.
(16) إبراهيم فاعور الشرعة، «لينش والبعثة الاستكشافية الأمريكية إلى نهر الأردن والبحر الميت عام (1847/1848)،» دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية (عمّان)، السنة 38، العدد 3 (2011)، ص 856.
(17) المصدر نفسه، ص 859.
(18) سيلبرمان، المصدر نفسه، ص 112 - 113.
(19) لومير، القدس 1900 زمن التعايش والتحولات، ص 88.
(20) سيلبرمان، المصدر نفسه، ص 116.
(21) المصدر نفسه، ص 117 - 118.
(22) المصدر نفسه، ص 119 - 120.
(23) لومير، المصدر نفسه، ص 88 - 89.
(24) سيلبرمان، المصدر نفسه، 139 - 142.
(25) خيرية قاسمية، «نشاطات صندوق استكشاف فلسطين (1868 - 1915 م)،» شؤون فلسطينية (بيروت)، العدد 112 (تموز/يوليو 1980)، ص 73.
(26) سيلبرمان، المصدر نفسه، ص 146.
(27) معاوية إبراهيم، «فلسطين: من أقدم العصور إلى القرن الرابع قبل الميلاد،» في: الموسوعة الفلسطينية، ألفها نخبة من العلماء (بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية، 1990)، ص 7.
(28) إبراهيم عبد الكريم، تهويد الأرض وأسماء المعالم الفلسطينية (دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العربي، 2001)، ص 68.
(29) عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية (القاهرة: دار الشروق، 1999) مج 6، ص 156.
(30) عبد الكريم، المصدر نفسه، ص 68.
(31) لمزيد من التفاصيل عن «صندوق استكشاف فلسطين»، انظر: الدبش، «اختلاق تاريخ وجغرافيا «إسرائيل» (1)،» مصدر سابق.
(32) قاسمية، «نشاطات صندوق استكشاف فلسطين (1868 ــ 1915 م)،» ص 78 - 79.
(33) سيلبرمان، بحثًا عن إله ووطن صراع الغرب على فلسطين وآثارها، ص 158 - 159.
(34) علاونه، «الحفريات الأثرية في مدينة القدس ما بين الأعوام (1863 - 2009) والحق التاريخي للعرب منذ تأسيسها (دراسة تاريخية)،» ص 356.
(35) قاسمية، «نشاطات صندوق استكشاف فلسطين (1868 ــ 1915 م)،» ص 80 - 81.
(36) علاونه، المصدر نفسه، ص 356 - 357.
(37) أولبرايت، آثار فلسطين، ص 33.
(38) قاسمية، «نشاطات صندوق استكشاف فلسطين (1868 ــ 1915 م)،» ص 87 - 88.
(39) علاونه، المصدر نفسه، ص 357 - 358.
(40) سهيلا سليمان الشلبي وشادية حسن العدوان، «المسوحات والتنقيبات الأثرية في فلسطين والوعي لأبعادها منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى الحرب العالمية الأولى،» المجلة الأردنية للتاريخ والآثار (عمّان)، السنة 5، العدد 4 (2011)، ص 34.

(41) عفيف البهنسي، تاريخ فلسطين القديم من خلال علم الآثار (دمشق: منشورات الهيئة العامة للكتاب السورية، 2009)، ص 58.
(42) رائف يوسف نجم، «الحفريات الأثرية في القدس،» ورقة مقدمة إلى ندوات القدس 5000 عام (تموز/يوليو 1997)، ص 19، http://www.thaqafa.org/site/pages/details.aspx?>
(43) علاونه، «الحفريات الأثرية في مدينة القدس ما بين الأعوام (1863 - 2009) والحق التاريخي للعرب منذ تأسيسها (دراسة تاريخية(،» ص 359. itemid=5647#.XohytcgzZPY>
(44) نجم، المصدر نفسه، ص 19.
(45) زيدان كفافي، «سلوان بين التوراة والآثار،» المجلة العربية للعلوم الإنسانية (الكويت)، عدد خاص (تشرين الثاني/نوفمبر 2009)، ص 278.
(46) أولبرايت، آثار فلسطين، ص 40.
(47) البهنسي، تاريخ فلسطين القديم من خلال علم الآثار، ص 58.
(48) علاونة، «الحفريات الأثرية في مدينة القدس ما بين الأعوام (1863 - 2009) والحق التاريخي للعرب منذ تأسيسها (دراسة تاريخية)،» ص 359 - 360.
(49) البهنسي، المصدر نفسه، ص 59 - 60.
(50) علاونه، المصدر نفسه، ص 362.
(51) يحيى وزيري، التطور العُمْراني والتراث المعمارى لمدينة القدس الشريف (القاهرة: الدار الثقافية للنشر، 2005)، ص 98.
(52) نجم، «الحفريات الأثرية في القدس،» ص 20.
(53) إبراهيم عبد الكريم، «الحفريات الإسرائيلية حول الحرم القدسي (الأيديولوجيا - المجريات - النتائج)،» مجلة التعاون (الرياض)، السنة 16، العدد 54 (شوال 1422هـ - كانون الأول/ديسمبر 2001)، ص 277.
(54) علاونه، «الحفريات الأثرية في مدينة القدس ما بين الأعوام (1863 - 2009) والحق التاريخي للعرب منذ تأسيسها (دراسة تاريخية)،» ص 364.
(55) وزيري، التطور العُمْراني والتراث المعمارى لمدينة القدس الشريف، ص 98.
(56) عبد الكريم، «الحفريات الإسرائيلية حول الحرم القدسي (الأيديولوجيا - المجريات - النتائج)،» ص 267 - 268.
(57) نجم، «الحفريات الأثرية في القدس،» ص 20.
(58) وزيري، التطور العُمْراني والتراث المعمارى لمدينة القدس الشريف، ص 98 - 99.
(59) عبد الكريم، «الحفريات الإسرائيلية حول الحرم القدسي (الأيديولوجيا - المجريات - النتائج)،» ص 268.
(60) علاونه، «الحفريات الأثرية في مدينة القدس ما بين الأعوام (1863 - 2009) والحق التاريخي للعرب منذ تأسيسها (دراسة تاريخية)،» ص 365.
(61) وزيري، التطور العُمْراني والتراث المعمارى لمدينة القدس الشريف، ص 99.
(62) عبد الكريم، «الحفريات الإسرائيلية حول الحرم القدسي (الأيديولوجيا - المجريات - النتائج)،» ص 269 - 270.
(63) وزيري، المصدر نفسه، ص 99 - 102.
(64) البهنسي، تاريخ فلسطين القديم من خلال علم الآثار، ص 60.
(65) وزيري، المصدر نفسه، 102 - 103.
(66) علاونه، «الحفريات الأثرية في مدينة القدس ما بين الأعوام (1863 - 2009) والحق التاريخي للعرب منذ تأسيسها (دراسة تاريخية)،» ص 366.
(67) نجم، «الحفريات الأثرية في القدس،» ص 23.

(68) عبد الكريم، «الحفريات الإسرائيلية حول الحرم القدسي (الأيديولوجيا - المجريات - النتائج)،» ص 271.

(69) منشورات مؤسسة «عمق شبيه»، «القدس السفلى حفر جحور وأنفاق تحتية (تحت الأرض) بمنطقة الحوض المقدس،» <https://alt-arch.org/ar/tunnels-arabic>.

(70) عبد الكريم، المصدر نفسه، ص 274.

(71) جمعية «إلعاد» الاستيطانية (Elad Foundation)، التي تعني أولياء مدينة داود أو العودة إلى مدينة داود (El Ir David: to the City of David)، تشكلت في مدينة القدس عام 1979 كجمعية أو شركة غير ربحية، وأعلن عنها في أوائل الثمانينيات، وبدأت نشاطها في تسعينيات (القرن الماضي) من خلال تأسيس أول بؤرة استيطانية في سلوان، فهدفت إلى الاستيلاء على أراضي سلوان ومنازلها، وتحويل منطقة وادي حلوة إلى منطقة سياحية وأثرية تحت اسم «مدينة داود»، وتكثيف أعمال الحفر في سلوان، وطرد أكبر عدد من الفلسطينيين، وإحلال مستوطنين جدد.

(72) منشورات مؤسسة «عمق شبيه»، «القدس السفلى حفر جحور وأنفاق تحتية (تحت الأرض) بمنطقة الحوض المقدس،» مصدر سابق.

(73) المصدر نفسه.

(74) منشورات مؤسسة «عمق شبيه»، «مستقبل آخر للأثريات اقتراح للحفاظ على المواقع الأثرية كجزء من الحل السياسي للقدس،» <https://alt-arch.org/ar/another-future-ar>.

(75) نظمي الجعبة، «القدس بين الاستيطان والحفريات،» مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد 79 (صيف 2009)، ص 46.

(76) مائير مارجليت، إسرائيل والقدس الشرقية استيلاء وتهويد، ترجمة مازن الحسيني (القدس: منشورات مركز القدس للحقوق الاقتصادية والاجتماعية، 2011)، ص 81.

(77) منشورات مؤسسة «عمق شبيه»، «نشاطات أثرية مركزية في البلدة القديمة عام 2011، وتأثيراتها الاجتماعية - السياسية،» <https://alt-arch.org/ar/archaeology-2011-ar>.

الفصل الثالث
بدايات سكنى أراضي القدس

حتّى وقت قريب، كان الاعتقاد السائد أن أقدم بقايا الإنسان العظمية في فلسطين تعود إلى إنسان من نوع نياندرتال، وهي التي وُجدت في كهوف جبل الكرمل مثل مغارة الطابون ومغارة السخول في فلسطين. ولكن المسوح الأثرية والحفريات التي جرت في عدة مواقع في فلسطين أبانت أن «الإنسان وُجد في فلسطين منذ أقدم العصور، وأنه عاصر أقدم النماذج البشرية» [(1)].

أولًا: الهوموراركتوس في فلسطين

يرى زيدان كفافي، أن دلائل وجود الإنسان في بلاد الشام بعامة، وفلسطين بخاصة، تعود إلى نحو «المليون ونصف المليون عام» [(2)]. ويشير سلطان محيسن، إلى: «أن أقدم آثار الإنسان في بلاد الشام - وبالطبع فلسطين - تعود إلى العصر الحجري القديم الأدنى، الذي بدأ هنا منذ نحو مليون سنة، واستمر حتّى نحو 100.000 سنة خلت، وهذا العصر يرادف ما يسمّى في أوروبة بالحضارة الآشولية، ذات الانتشار العالمي الواسع، والتي اشتهرت بتصنيع الفؤوس اليدوية بخاصة، لقد سُكنت منذ بداية هذا العصر بعض مناطق سورية، ولبنان، وفلسطين، من قِبَل إنسان الهوموراركتوس» [(3)].

تدل الشواهد الأثرية على أن سكنى أراضي القدس، قد تم في العصر الحجري القديم الأدنى الثاني، الذي يؤرخ من نحو 700.000 إلى 250.000 سنة مضت، وفي هذا العصر ازداد عدد سكان بلاد الشام، وتوضحت هويتهم الحضارية، فظهرت حضارات محلية أصيلة، تطورت بصور مختلفة، في مختلف المناطق الساحلية أو الداخلية من بلاد الشام.

لقد «أصبحنا في هذا العصر نستطيع التحدث عما يسميه المختصون «المراكز الحضارية» التي عاشت فيها جماعات صنعت كل منها أدواتها الخاصة، التي تطورت على امتداد زمن طويل. وقد ساد هذا التخصص في كل بلاد الشام الساحلية الداخلية، مما يدل على أننا بدأنا نتلمس ومنذ هذا العصر، بوادر تجانس حضاري شمل تلك البلاد كلها. إن موقع اللطامنة على بعد 40 كم شمال غرب حماه، في سورية، هو أهم موقع أثري معروف حتى الآن من ذلك العصر، فقد عثر فيه على بقايا معسكر ظل سليمًا رغم مرور أكثر من نصف مليون سنة عليه، وقد احتوى على عدة آلاف من الأدوات الحجرية، بينها فؤوس يدوية متطاولة وكبيرة دقيقة الصنع، ندر أن وجد ما يشابهها، من هذا العصر في العالم، رافقت تلك الفؤوس معاول وقواطع ومقاحف وسواطير

وأدوات متنوعة، بعضها ثقيل وأخرى خفيفة، لقد وجدت في اللطامنة دلائل باكرة، للبناء والنار» [(4)].

وقد أتت الأدوات الحجرية المؤرخة على هذا العصر من مناطق عديدة من «بلاد الشام بعضها أعطى فؤوسًا يدوية مثل جب جنين في لبنان، وجسر بنات يعقوب وأفرون في فلسطين وبعضها لم يستخدم سكانه الفؤوس مثل **أم قطفه** (السويات $_{G2}$, $_{G1}$, F, $_{E3}$)، والطابون (السوية G) في فلسطين، ومواقع وادي عابت وبحصاص ورأس بيروت II في لبنان والملجأ الرابع في يبرود بسورية» [(5)].

استقر الناس في مدينة القدس وأكنافها «قبل نحو نصف مليون سنة، حيث عثر في **منطقة الشيخ جراح** على عدد من الأدوات الصوانية المؤرخة لهذه الحقبة» [(6)].

تابعت مجتمعات ما قبل التاريخ في بلاد الشام تطورها في المرحلة الأخيرة من العصر الحجري القديم الأدنى، وهو يؤرخ بين نحو 250.000 إلى 100.000 سنة خلت، ويوازي ما يعرف عالميًا بالعصر الآشولي الأعلى. «ويلاحظ ازدياد واضح في عدد السكان الذين انتشروا ولأول مرة، إلى مناطق جديدة تقع إلى الشرق من الانهدام السوري - الأفريقي. فوصلوا إلى البادية والفرات في سورية، وإلى الشرق من نهر الأردن والبحر الميت في فلسطين، وهكذا بدءًا من هذا العصر، أقام إنسان ما قبل التاريخ، الذي أصبح ينتمي إلى نوع متطور من الهوموراكتوس، في كل المناطق الجغرافية لبلاد الشام، ولم ينقطع عن العيش في تلك المناطق حتى نهاية العصور الحجرية. لقد أضاف الهوموراكتوس المتطور ابتكارات جديدة ومتنوعة فتابع التقدم في تصنيع الأدوات الحجرية وحسن تقنياتها، وظهرت أنواع جديدة منها ولكن بقيت الفؤوس اليدوية حتى هذا العصر تؤدي الدور الرئيسي وتحتل المكانة الأولى بين مجمل أنواع الأدوات الأخرى. إلى جانب الفؤوس اليدوية تطورت الأدوات الخفيفة مثل المقاحف والمكاشط والسكاكين، التي أصبحت تستخدم أكثر من السابق. بينما قل استخدام الأدوات الثقيلة، كالقواطع والأدوات القاطعة، وتراجع دورها، كما تقدم البناء وتم تكييف المغاور بما يتناسب مع حاجات السكن الطويل. وجرت الاستفادة بصورة أفضل من النار، فحفرت المواقد التي أوقدت عند الحاجة» [(7)].

وقد كشف عن آثار تعود إلى هذا العصر في فلسطين، «في مغارة الطابون (السوية F)، ومغارة أم قطفة (السوية D) [في منطقة القدس]، ومن هولون ومعان باروخ في فلسطين» [(8)].

فقد دلّت المخلفات الأثرية للإنسان المنتصب القامة في فلسطين، أنه «عاش فضـلًا عن موقع العُبيدية، فقد وُجدت آثاره في جسر بنات يعقوب، وعلى مقربة من بحيرة الحولة، وفي وادي قطفة في الجنوب [شرق القدس، وعلى مسيرة عشرة كم إلى الجنوب الشرقي من بيت لحم، بالقرب من وادى المربعات]، وفي مغارة الطابون في جبل الكرمل، وغيرها على الساحل» [(9)].

ووُجدت آلات من العصر الآشولي في «كهف الطابون بجبل الكرمل وأم قطفة في شمال غرب البحر الميت [شرق القدس، وعلى مسيرة عشرة كيم إلى الجنوب الشرقي من بيت لحم، بالقرب من وادي المربعات]. وفي كهف الزطية في شمال غرب بحيرة طبرية. عبارة عن فؤوس حجرية يدوية» [(10)].

وقد أظهرت حفريات 1962 التي قام بها ستيكليس (Stekelis) أن «القسم الأعلى من وادي رفائيم في القدس المسمّى أيضًا (بكة) في الحي الإغريقي جنوب غرب وادي هنوم ثلاث طبقات كانت الطبقتان الثانية والثالثة تحتويان على فؤوس يدوية ونصال وأدوات حجرية باليوليتية تعود إلى العصر الأبيفيلي أو الآشولي المبكر» [(11)].

ثانيًا: الإنسان النياندريالي الفلسطيني

في مطلع العصر المطير الرابع والأخير، المعاصر للعصر الجليدي الأخير فيرم في أوروبا، دخلت مجتمعات ما قبل التاريخ مرحلة جديدة بين نحو 35.000 إلى 100.000 سنة خلت، ويطلق عليها اسم العصر الحجري الأوسط أو الباليوليت الأوسط. في هذه المرحلة ظهر نوع جديد من البشر هو «إنسان النياندرتال»، حامـلًا معه حضارة جديدة - وهي الحضارة الموستيرية، أو اللفلوازية - الموستيرية كما أطلق عليها البعض في بلاد الشام.

«توصل النياندرتاليون المشرقيون إلى درجة عالية من التجانس، وقامت بينهم علاقات مباشرة وتبادلوا حاجاتهم وخبراتهم، مما حقق لهم فائدة أكبر من بيئتهم الغنية التي سخروها بشكل جيد خدمة لمصالحهم المادية والروحية المتزايدة. إن المواقع التي وجدت فيها آثار المجتمعات النياندرتالية في بلاد الشام، أكثر من أن تحصى، ففي فلسطين كشف ومنذ بداية هذا القرن عن مغاور، ومواقع مكشوفة أصبحت لها شهرة عالمية بسبب احتوائها على الهياكل العظمية المتطورة، مثل مغارة الطابون والعامود والسخول وجبل قفزة وغيرها. مما دفع إلى الاعتقاد بأن النياندرتال من بلاد الشام هو الذي تطور نحو الإنسان العاقل في حين أن النياندرتال الأوروبي قد انقرض دون خلف» [(12)].

وإذا علمنا أن «هياكل جديدة نياندرتالية من مغارة الكبارا في فلسطين أُرِّخت على نحو 60.000 سنة، لأدركنا أنه يمكن طرح نظرية جديدة تقول بأن الإنسان

العاقل وجد في بلادنا فلسطين قبل النياندرتال بزمن طويل، ولم يكن متطورًا عنه، وأن هذا النياندرتال ربما أتى من أوروبة أو غيرها، ولكن لا بد من المعلومات حتى نصبح أقرب إلى الحقيقة» [(13)].

يذكر علماء الآثار أن أول من سكن القدس «قبائل بدائية في العصر الحجري القديم، وقد وجدت أدوات حجرية من العصر الباليولوثي الأدنى (Lower Palaeolothic)، وكذلك من العصر الموستيري (Mousterian)، الذي تمثلة جمجمة وجدت في مغارة الزيتية سنة 1925م، موجودة حاليًا بمتحف القدس، ويطلق عليها الأثريون «الإنسان الفلسطيني القديم»، وفي العصر الحجري الأوسط كان الفلسطيني صيادًا يقوم بالقليل من الزراعة وتربية الحيوان» [(14)].

ثالثًا: الحضارة الكبّارية

اكتُشفت الكثير من المواقع التي تعود إلى عصر الباليوليت الأعلى، ومنها أتت المعلومات الأولى عن هذا العصر في الشرق الأدنى، ثمّ تتابعت الاكتشافات في سورية ولبنان والأردن. ويقسم العلماء هذا العصر إلى مراحل حضارية: «قديمة، تسمّى الأحمرية، نسبة إلى ملجأ في عرق الأحمر، في سفوح جبال القدس الشرقية، وهو الموقع النموذج لهذه الحضارة في فلسطين، والتي توازي الحضارة الأورينياسية في أوروبا، وحديثة، تسمّى الكبّارية، نسبة إلى مغارة كبّارة، في الطرف الغربي لجبال الكرمل. ومنهم مَن يميّز مرحلة انتقالية بينهما، يسمّيها العتليتية نسبة إلى موقع عتليت على الساحل، جنوب حيفا» [(15)].

فقد تراجع الباليوليت الأوسط محليًا وأخذت نهاية هذا العصر في المشرق صورتين متباينتين: «في الجزء الأوسط من المشرق ظهرت صناعات فيها تأثيرات التقنية اللفلوازية كما دلت على ذلك النصال القصيرة والسميكة وهناك المكاشط والأزاميل كما ظهرت أداة من نوع خاص، على هيئة قصبة أنف الحصان (Chanfrien) اعتمد تصنيعها على إزاحة شظية عرضانية من نهاية القطعة الحجرية بصورة تعطي تلك النهاية شكلًا مقوسًا. وهناك أحيانًا أداة أخرى عبارة عن حربة لفلوازية جعل سطحها رقيقًا من خلال تشذيب ناعم على الوجهين تسمى «حراب الأميرة»، حيث وجدت في مغارة الأميرة بفلسطين. أما في الجزء الجنوبي من المشرق فلا وجود للأداة القصبة (Chanfrien) ويبدو أن الأميري، وهو الاسم الذي أطلق على هذه المرحلة المبكرة، قد انتشر في وسط وجنوب المشرق» [(16)].

يقول كون وهنت: «إن الحضارة اللفلوازية الموستيرية المحلية في فلسطين، وتعرف باسم الأميرة، تمتاز بصقل قاعدتي الأداة الحجرية، تطورت

إلى حضارة حجرية قديمة عليا، وهذه هي الحضارة المعروفة جيدًا باسم الحضارة الأوريناسية، والتي انتشرت إلى أوروبا» [(17)].

بعد ذلك أتت «مرحلة وسطى ازدهر فيها الباليوليت الأعلى ولكن بأشكال مختلفة أيضًا. في المشرق الأوسط ظهرت مكاشط عالية وأزاميل معقوفة ونصال أورينياسية وكمية أكبر من المكاشط والأزاميل العادية. هذه الصناعات أطلق عليها أحيانًا «الأورينياسي المشرقي» وأحيانًا «الأنطلياسي» من مغارة أنطلياس في لبنان. ومن جهة ثانية هناك مجموعات اشتهرت بأنواع مختلفة من الحراب بعضها لها وجه مسطح وحراب مظهَّرة ونوع ثالث من الحراب المصنعة عبر تشذيب هامشي، نصف حاد، أطلق عليها «الأحمري» من اسم مغارة عرق الأحمر في فلسطين» [(18)].

أما المرحلة الثالثة والأحدث والمسماة أحيانًا «العتليتي» نسبة إلى عتليت بفلسطين فقد تميزت «بانتشار الأدوات الميكروليتية التي نسبت أيضًا إلى الحضارة الكبارية (نسبة إلى مغارة الكبارا بفلسطين). وهي حضارة لها انتشار واسع وامتدت من سيناء غربًا وحتى الفرات شرقًا ومن فلسطين جنوبًا وحتى الأناضول شمالًا» [(19)].

لقد أطلق على تلك المجموعات اسم «الكبارية لأنها وجدت في السوية س (C) في مغارة الكبارا في فلسطين التي نقبت بين 1927 - 1931، والصفة الرئيسية لها هي كثرة النصلات التي تصل حتى 85 في المئة من نسبة الأدوات ولا يتجاوز طولها 3 سم، المكاشط قصيرة ومتوسطة النوعية وكذلك الأزاميل» [(20)].

يقول العالم الأثري وليم أولبرايت، إن «حضارة الكبارية التي كشف عنها تورفي - بيتر استمرت في صناعة الآلات الصوانية الدقيقة الحجم (ميكروليتية)، واستمرت في تحسينها وتطويرها» [(21)].

كل ذلك بشَّر بتحولات «أصبحت أكثر وضوحًا فيما بعد، في صناعات احتوت نسبة هامة من الأدوات الميكروليتية والهندسية التي كانت على شكل مستطيل أو شبه منحرف - مستطيل في المشرق الأوسط، بينما أخذت شكل مثلث في المشرق الجنوبي. ومن خلال هذه المرحلة التي يسميها بار يوسف الكباري الهندسي (Kebarien Geometrique)، عبَّرت التبدلات الحضارية عن نفسها بكل وضوح» [(22)].

يحدثنا جيمس ميلارت عن هذه الحضارة بالقول: «في نهاية العصر الجليدي ظهرت مجموعة من البشر تميزت باقتصاد يعتمد على جمع الغذاء وكان من بين الملامح الجديدة ظهور أدوات صوانية جديدة تسمى (Microlithes) وهي غالبًا ذات أشكال هندسية ولها مقابض من العظام والخشب تستخدم في

تشكيل أدوات مركبة وأسلحة متنوعة. وهناك مؤشرات صغيرة ودقيقة تدل على أن هؤلاء الناس كانوا يستعملون القوس والنشاب اللذين اعتبرا تطورًا تقنيًا هامًا في مجال الصيد. ومن خلال المخلفات التي تركوها في الكهوف أو في المواقع المكشوفة يستطيع الإنسان أن يستنتج شكلًا أكثر تركيزًا في عملية جمع الغذاء. ومن المفترض أنهم عاشوا في مجموعات أكبر عددًا من أسلافهم وكذلك كانوا أكثر تنظيمًا. ولكن ليس هناك أي أثر للجاروشة أو حجر الطحن اللذين يدلا على بداية وجود الوجبة الغذائية النباتية. ولم يترك هؤلاء الناس أدوات ترف يمكن أن يكون لها دلالتها على الراحة والتحرر والتخلص من عملية البحث الدائم عن الطعام» [(23)].

وتبرز الكبّارية تقدمًا ملحوظًا في الحضارة المادية وتقنية إنتاجها. فهي «تتميّز بصناعة الشفرات الصوانية الصغيرة والرقيقة، التي انتشر استعمالها على نطاق واسع، وكذلك بانتقال الإنسان من المغاور إلى منازل الصيد في العراء، وصيد الأسماك على ضفاف الأنهار والبحيرات. ويتضح أن الإنسان في هذه المرحلة أضاف الحبوب إلى وجبات طعامه، إذ وُجد هاون من البازلت بالقرب من النقب، على الشاطئ الجنوبي - الشرقي لبحيرة طبرية، وإلى جانبه مدقة لطحن الحبوب، التي من المؤكد أنها جُمعت من البرِّ، إذ لم تكن الزراعة معروفة للإنسان بعد» [(24)].

ويستخلص الباحثون من دراسات متعددة - مناخية وجغرافية وجيولوجية ونباتية وحيوانية وإنسانية - أن «مناطق صحراوية تكونت في الأردن وفلسطين في هذه الفترة، الأمر الذي انعكس في توزُّع جديد للسكان. وانحصر التوزع الجديد في مناطق تتوافر فيها مصادر الماء والغذاء، إذ أقام السكان مستوطنات مؤقتة لجماعات صغيرة من الصيادين. وإزاء نضوب مصادر معيشته، لجأ إنسان هذا العصر إلى تنويع غذائه، وأضاف إليه بذور الأعشاب البرية الصغيرة، والقمح والشعير وغيرها. فأصبحت الحبوب على أنواعها عنصرًا مهمًا في غذائه، وبالتالي في أدوات عمله التي أصبحت تضم أدوات الطحن ومناجل الحصاد وصنانير صيد الأسماك وغيرها.

وعلى اعتبار الحضارة الكبّارية تتبع الباليوليت الأعلى والأخير، فهي تبشر بإنجازات كبيرة لاحقة، أبرزها بناء البيوت الأولى التي سكنها الصيادون والملتقطون في المواسم، إذ إنهم بنوها على شكل حفر دائرية صغيرة، على السفوح والمنحدرات والمصاطب، جُدُرها وأرضها من الطين والحجر، وسُقفها من الجلد والأغصان. وفي النقب، على الشاطئ الجنوبي - الشرقي لبحيرة طبرية، اكُتشف أقدم بناء معروف في بلاد الشام حتى الآن، يعود بناؤه إلى ما قبل نحو 14.000 سنة ق. م. وعلى الرغم من التطور الحضاري المادي، فإنه لا

يمكن اعتبار هذا العصر جديدًا تمامًا، وخصوصًا أن الاقتصاد البشري فيه ظل قائمًا على الصيد والجمع والالتقاط» [25].

رابعًا: الحضارة الناطوفية [26]

سميت الفترة الانتقالية بين العصر القديم والعصر الحديث العصر الحجرى الوسيط، ودامت نحو ستة آلاف سنة اعتبارًا من نحو عام 12000 قبل الميلاد، وتتمثل هذه الحضارة في بلادنا فلسطين بـ «الحضارة الناطوفية»، التي سميت لذلك باسم وادي النطوف شمال غرب القدس. «ويعتبر الناطوفيون خلفاء الكباريين [الحضارة الكبارية]، ولكن بخصوصية متطورة جديدة، فقد ازدادت رقعة السكن، وتطورت الأدوات المصنّعة» [27].

فقد «كانت الحضارة الناطوفية الفلسطينية حضارة (ميكروليثية) بالمعنى الصحيح، تتكون من نصال صوانية وآلات مدببة وأخصها ما يسمى بالنصل القمري (Lunar)، وهو نصل هلالي أو على شكل قوس ربما استخدم كرأس لسهام من البوص، وبالإضافة إلى ذلك توجد أيضًا كثير من مناقيش ذات أطراف مدببة. ومن أهم الآلات الصوانية الكبيرة الحجم في هذه الحضارة، نصال المناجل والمعاول (Picks)، مما يدل على الحياة الزراعية في الحضارة الناطوفية، وعلى أنها كانت حينئذاك تلم على علم بحصد الحبوب، مما استلزم استخدام مناجل بصفة منتظمة. فقد كشفت مس جارود وكذلك كشف تورفي - بيتر عن مناجل كاملة أو مكسورة من العظم، تزين مقابض المناجل الكبيرة منها رؤوس حيوانات منحوتة، بينما ثبتت بنصالها أسنان صغيرة من الصوان تمتد من طرف النصل إلى طرفه الآخر. وبعض الآلات التي سمتها مس جارود معاول (Picks) هي أقرب إلى الفؤوس (Hoes) التي استخدمت لغرف الأرض قبل بذر الحبوب، ومن هذا يتضح أن أقدم الناطوفيين الذين أمكن العثور على آثار لهم كانوا بلا شك في أول مرحلة بدائية لحضارة الفأس (Hoe- culture)، لذلك فانهم كانوا منتجي طعام، كما كانوا في نفس الوقت جامعي طعام» [28].

ويميل تشايلد إلى أن «اكتشاف المناجل الحجرية في كهوف فلسطين التي كانت تتخذ مساكن، مصحوبة بآلات خاصة بحرفة جمع الطعام، مما يدل على أنها ترجع إلى مجتمع كان في مرحلة انتقال بين الزراعة وجمع الطعام. ومن هذا يقال إن فلسطين وما جاورها كانت الموطن الأصلي لزراعة الحبوب [29]. إن الناطوفيين قد اكتشفوا الأهمية الغذائية للحبوب البرية التي حصدوها بمناجل من حجر وقد استخرجوا الحبوب في جرن ومدقة لقد كان هذا خطوة إلى الأمام نحو الزراعة» [30].

إن الأدلة الآثارية والنباتية الحديثة تشير إلى أن «زراعة القمح والشعير بدأت في فلسطين» [(31)].

قد يكون الناطوفيون زرعوا محصولًا ما، أو جمعوا أعشابًا، لكنهم إلى جانب ذلك «قاموا بصيد الأسماك من البحيرات، والمستنقعات، وبعض المجاري المائية الدائمة، التي أقام الناطوفيون بجوارها. وقد دلت على هذا الصيد، الخطاطيف، والصنانير، وبقايا عظام الأسماك، التي وجدت» [(32)].

كما «كان صيد الحيوانات نشاطًا هامًا أيضًا، دلت عليه البقايا العظمية وقد طال هذا الصيد الحيوانات التي ساعدت الظروف المناخية، التي سادت في فلسطين، على تكاثرها بجوار المواقع السكنية. فالغزال حيوان يعيش في الأماكن المكشوفة (السهوب) حيث المناخ الجاف قليل الأمطار، لذلك فقد ساد هذا الغزال بشكل واضح في كل المناطق. وهناك، بنسب متفاوتة، الأيل الأسمر الرافدي (Daim de Mesopotamie) والأيل، واليحمور، والخنزير البري (هذا الخنزير وجد بكثرة في عين الملاحة). بينما استمرت، هنا أو هناك، بعض الحيوانات التي تعيش في الغابات المغطاة بالأشجار التي سادت في العصر المناخي الرطب السابق. كما وجد الثور البري، في كل مكان تقريبًا، والخيليات التي أثار تمييزها تباينًا بين الباحثين» [(33)].

«إن بقايا المباني التي وجدت في مواقع الكهوف أو أمامها كانت من نوع بدائي. كما وجدت جدران ضخمة في وادي فلاح، أما في الأماكن الأخرى فقد عثر على القليل من المظاهر المعمارية. لذلك كله كان اكتشاف مركز استقرار في العراء في منطقة عنيان على قدر كبير من الأهمية، حيث تم الكشف عن وجود ثلاث قرى دائمة ومتتابعة تنتمي كلها إلى الحضارة الناطوفية الوسطى أو الباكرة. لقد احتوت كل قرية على ما يقارب الخمسين بيتًا دائريًا تصل أقطارها إلى سبعة أمتار مصطفة حول منطقة مركزية مكشوفة تحتوي على عدد كبير من المخازن المدهونة بالجص ومن المحتمل أنها كانت تستعمل لخزن الطعام. وتغطي القرية مساحة 2000م^2 على الأقل. كانت البيوت المصنوعة من الحجارة تصل في بعض الأماكن إلى ارتفاع متر، وكانت أرضيات الغرف في بعض أجزائها دون مستوى الأرض كما وكان البناء التحتي المصنوع من الحجر مدهونًا بالجص أيضًا. أما البناء الفوقي فكان مصنوعًا من القصب الذي يتوفر منه مخزون لا ينضب في البحيرة المجاورة. وكانت الأعمدة المركزية تشكل دعامات للسقوف المخروطية للمنازل أما المواقد المبنية من الحجارة فكانت تبنى في وسط الغرفة أو في أحد جوانبها، كما كانت الجاروشة والهاون يوضعان على أرض الغرفة. وكثيرًا ما عثر على مدافن الأطفال تحت بلاطة حجرية في أرض الغرفة» [(34)].

يقول ميرسيا إلياد، إن «النموذجين من مقبرة نطوفية: أ) دفن الجسم بكامله في وضع منحني؛ ب) طمر الجماجم، كانا معروفين من عهد (الباليوليتيك) الحجري وامتدت في (النيوليتيك). وبشأن الهياكل المكتشفة في عينان فقد افترض أن ضحية بشرية قد ضحي بها بمناسبة الدفن ولكن مدلولها مجهول. أما بالنسبة إلى مستودعات الجماجم، فقد جرت مقارنة الوثائق الناطوفية مع المستودعات المكتشفة في (أوفنت (Offent) وبافير (Baviere) ومغارة هوهلنستن (Hohlennten) وفي يرتنبورغ: كل هذه الجماجم كانت تعود لأفراد ربما ذبحوا من قبل صيادي الرؤوس أو من قبل أكلة لحوم البشر. وفي الحالة الأولى كما في الحالة الأخرى، يمكن استخلاص تصرف سحر - ديني، باعتبار أن الرأس (النخاع)، كان معتبرًا المركز للروح» [(35)].

الناطوفيون، «هم أول من عرف الفنون، وقد عثرنا في قراهم على العديد من التماثيل الصغيرة، الدمى البسيطة والمختزلة التي جسدت بعض الحيوانات، وبخاصة الغزال الذي نحت أيضًا على القبضات العظمية للأدوات. بعض تلك التماثيل أظهر بشرًا مختزلين لا جنس واضح لهم، ولكن تماثيل أخرى كانت أكثر دلالة» [(36)].

خامسًا: الحضارة الطاحونية

انتشرت في نحو الألف السابع قبل الميلاد حضارة جديدة لم تكن تعرف استخدام الفخار، يمكننا التعرف إلى هذه الحضارة بصورة أفضل من خلال مدينة أريحا، إذ يبدو أن السكان القدماء قد حل محلهم نهائيًا سكان آخرون ذوو حضارة متميزة وإن كان له صلة بطريق غير مباشر بالحضارة السابقة (الناطوفية). هذه هي الحضارة الطاحونية (Tahunian Culture).

يقول شوفاني: «نُسبت الحضارة الطاحونية، إلى وادي الطاحون في جبال القدس، وهي مرحلة متطورة عن الناطوفية، ومتكيفة أكثر وفق الأحوال المناخية الجديدة. وهناك من يرى أن الناطوفية، التي كانت واسعة الانتشار، قد أخلت مكانها لثلاثة أنماط من الاستيطان المتنقل إلى الزراعة: ساحلي، في وادي فلاح؛ جبلي، في وادي الطاحون، وغوري، في أريحا، وقد أدّت العوامل المحلية دورًا في تمايزها بعد نشوئها» [(37)].

انتشرت القرى الزراعية العائدة لهذه المرحلة، ومع انتهاء مرحلة النيوليت ما قبل الفخار، التي عرفت باسم الحضارة الطاحونية، فقد كان الموقع النموذج لها هو أبو غوش، بالقرب من القدس.

أبو غوش: يقع موقع أبو غوش فوق جبال القدس، على بعد 15 كم جنوب غرب القدس، وتبلغ مساحة الموقع نحو 2000م²، على ارتفاع 700م فوق مستوى البحر. «اكتشف الموقع عام 1929 من قبل رينيه نوفيل حيث قام بحفر

بعض الحُفر التجريبية فيه، ثم أعيد فتح حفر تجريبية عام 1952 من قبل جان بيرو، وأجريت تنقيبات أثرية على مساحة 340م2 في الموقع في الفترة الواقعة بين 1967 و1971 من قبل جنفيف دولفوس ومونيك لو شوفاليه. وقد أسفرت التنقيبات الأثرية عن الكشف عن أربع وحدات سكنية مستطيلة الشكل، جدرانها مبنية من الحجارة غير المشذبة وأرضياتها مطلية بالجص، ومدهونة باللون الأحمر. تبلغ أبعاد أفضل المساكن حفظًا 8×8م [وهو] ذو أرضية مطلية بالجص، ومدهونة باللون الأحمر، فوق رصفه من الحجارة، تم تجديدها أكثر من مرة، وتتراوح سماكة الجدران بين 50 و110 سم، والجدران مبنية بوجهين من الحجارة، وفيما بينهما حشوة من الحجارة الصغيرة. واحتوت الأرضية على موقد. كشفت تنقيبات بيرو ودولفوس وشوفاليه عن بقايا لنحو 30 هيكلًا بشريًا، دفنت غالبًا بشكل فردي باستثناء حالة واحدة. سجيت الهياكل غالبًا على جانبها الأيسر، وبوضعية الثني غالبًا، وكانت غالبيتها منزوعة الرأس للبالغين، ويلاحظ أن الجمجمة تمثلت في معظم الهياكل غير المكتملة بالفك السفلي فقط . كما زودت الهياكل بالمرفقات الجنائزية التي تمثلت بالأدوات الصوانية والمدقات والأجران الحجرية. كما عثر على مجموعة من الجماجم المجصصة مدفونة في مدافن خاصة، ومترافقة مع بعض المرفقات الجنائزية. تمثلت الأدوات الصوانية المكتشفة في الموقع بالمناجل، ورؤوس السهام والمناقيش إضافة إلى وجود بعض قطع الأوبسيديان. وعثُر كذلك على أدوات حجرية ثقيلة كالأحواض والأجران والمدقات، وأدوات عظمية، وأدوات زينة، وتماثيل حيوانية من الطين غير المشوي. أرخ الموقع إلى العصر الحجري الحديث قبل الفخاري (ب)» [(38)].

مرحلة النيوليت الفخاري، «أظهر تقرير لكل من ماكاليستر ودنكان في حفرياتهما عند جبل أوفل في القدس وجود كسر فخارية ذات حبل فخاري تعود إلى مرحلة العصر الحجري الحديث. وهو ما يشير إلى وجود سكن وحضارة في مدينة القدس في هذه المرحلة» [(39)].

سادسًا: العصر الحجري النحاسي

أثْبَتَتْ الدِّراسات الميدانيّة الأثريّة التي أجريت في مدينة القدس وأكنافها، أنَّ «أقدم المخلّفات البشريّة فيها تعود إلى الإنسان المتنقّل، والجامع للقوت، والصّياد، حيث عُثِرَ على أدوات صوّانيّة في منطقة البقعة في غربي المدينة استخدمها هذا الإنسان. بعدها قدِمَت خلال الفترة بين نحو 4500 حتى 3500 قبل الميلاد مجموعة من الرّعاة الرُحَّل إلى منطقة الظهورة/ القدس، حيث وُجدت كسر فخاريّة من أوان فخاريّة مدفونة داخل حُفَر طبيعيّة في الصّخر» [(40)].

في هذا السياق يقول، خزعل الماجدي: «ظهرت في القدس آثار تشير إلى العصر الحجري النحاسي (الكالكوليت) حيث عثر شيلوه Shiloh في الطبقة 21 من الطبقات الآثارية لمدينة القدس، وتحديدًا في المنطقة B عند قدم المنحدر الغربي على كسر صخرية وآثارها في التجاويف الطبيعية للصخور تعود إلى عصر الكالكوليت في النصف الثاني من الألف الرابع» [41].

يبدو أن «مجموعات رعوية - بدوية بدأت تحط رحالها في المنطقة خلال الألف الرابع قبل الميلاد، خاصة في المنطقة الواقعة في وادي سلوان، بالقرب من عين الماء المعروفة باسم «عين ستنا مريم». ويظهر أن هؤلاء آووا في بداية الأمر داخل مجموعة من الكهوف المحفورة في الصخر الطبيعي، حيث عثر بداخلها على كسر فخارية تعود لهذه الفترة. كما قاموا بنهاية الألف الرابع ببناء أول مسكن لهم في نفس المنطقة، إذ عثر بالقرب من نبع ستنا مريم على بقايا منزل مكون من غرفة واسعة، بنيت مباشرة فوق الصخر الطبيعي، مشكّلة بهذا نواة لقرية لم تصل لمستوى المدينة خلال الألف الثالث قبل الميلاد» [42].

---

(1) لمزيد من التفاصيل حول الوجود الإنساني في فلسطين، انظر: أحمد الدبش، فلسطين من هنا بدأت الحضارة من العصر الحجري القديم حتى العصر الحجري النحاسي (دمشق: صفحات للنشر والتوزيع، 2017).

(2) بشار خليف، دراسات في حضارة المشرق العربي القديم (حلب: مركز الإنماء الحضاري، 2003)، ص 152، نقــلًا عن: مجموعة من الباحثين، الوحدة الحضارية للوطن العربي القديم (دمشق: وزارة الثقافة، 2000).

(3) سلطان محيسن، بلاد الشام ما قبل التاريخ في العصر الحجري القديم: الصيادون الأوائل (دمشق: الأبجدية للنشر، 1989)، ص 71.

(4) المصدرنفسه، ص 76.

(5) المصدر نفسه، ص 79.

(6) زيدان كفافي، «سلوان بين التوراة والآثار،» المجلة العربية للعلوم الإنسانية (الكويت)، عدد خاص (تشرين الثاني/نوفمبر 2009)، ص 276.

(7) محيسن، بلاد الشام ما قبل التاريخ في العصر الحجري القديم: الصيادون الأوائل، ص 81.

(8) المصدر نفسه، ص 83.

(9) الياس شوفاني، الموجز في تاريخ فلسطين السياسي (منذ فجر التاريخ حتى سنة 1949) (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1996)، ص 14.

(10) تقي الدباغ، الوطن العربي في العصور الحجرية (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1988)، ص 45.

(11) عزمي عبد محمد أبو عليان، القدس بين الاحتلال والتحرير عبر العصور القديمة والوسطى والحديثة (300 ق م - 1967م) (الزرقاء: مؤسسة باكير، 1993)، ص 14.

(12) محيسن، بلاد الشام ما قبل التاريخ في العصر الحجري القديم: الصيادون الأوائل، ص 99.

(13) المصدر نفسه، ص 104.

(14) ميخائيل مكسِي إسكندر، القدس عبر التاريخ (الجيزة: مطبعة رمسيس، 1972)، ص 18.

(15) شوفاني، الموجز في تاريخ فلسطين السياسي (منذ فجر التاريخ حتى سنة 1949)، ص 21.
(16) فرنسيس أور، حضارات العصر الحجري القديم، تعريب سلطان محيسن، ط 2 (دمشق: مطابع الألف باء - الأديب، 1995)، ص 142.
(17) كارلتون ستيفنز كون أدوارد أ. هنت، السلالات البشرية الحالية، ترجمة محمد السيد غلاب (القاهرة: مكتبة الأنجلو، 1975)، ص 76.
(18) أور، المصدر نفسه، ص 142 - 143.
(19) محيسن، بلاد الشام ما قبل التاريخ في العصر الحجري القديم: الصيادون الأوائل، ص 113.
(20) أور، المصدر نفسه، ص 144.
(21) وليم أولبرايت، آثار فلسطين، ترجمة زكي إسكندر ومحمد عبد القادر محمد (القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 1971)، ص 61.
(22) أور، حضارات العصر الحجري القديم، مرجع سبق ذكره، ص 144.
(23) جيمس ميلارت، أقدم الحضارات في الشرق الأدنى، ترجمة محمد طلب (دمشق: دار دمشق للطباعة والنشر والتوزيع، 1990)، ص 22 - 23.
(24) شوفاني، الموجز في تاريخ فلسطين السياسي (منذ فجر التاريخ حتى سنة 1949)، ص 22.
(25) المصدر نفسه، ص 23.
(26) لمزيد من التفاصيل حول الحضارة الناطوفية في فلسطين، انظر: الدبش، فلسطين من هنا بدأت الحضارة من العصر الحجري القديم حتى العصر الحجري النحاسي.
(27) عمار عبد الرحمن، فنون ومعتقدات المزارعين الأوائل في المشرق العربي القديم «الإلهة الأم» (دمشق: روافد للثقافة والفنون، 2009)، ص 30.
(28) أولبرايت، آثار فلسطين، ص 61 - 62.
(29) ف. جوردن تشايلد، تقدم الإنسانية، ترجمة محمد السيد غلاب، الألف الكتاب؛ 248 (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997)، ص 65.
(30) ميرسيا إلياد، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ترجمة عبد الهادي عباس (دمشق: دار دمشق، 1987)، ج 1، ص 51.
(31) سونيا كول، ثورة العصر الحجري الحديث، ترجمة تقي الدباغ ونادية سعدي الدبوني، ط 3 (بغداد: وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد، 1965)، ص 10.
(32) جاك كوفان، ديانات العصر الحجري الحديث في بلاد الشام، ترجمة سلطان محيسن (دمشق: دار دمشق للطباعة والنشر والتوزيع، 1988)، ص 24.
(33) المصدر نفسه، ص 24.
(34) ميلارت، أقدم الحضارات في الشرق الأدنى، ص 32 - 33.
(35) إلياد، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ج 1، ص 52.
(36) سلطان محيسن، بلاد الشام ما قبل التاريخ في العصر الحجري القديم: المزارعون الأوائل (دمشق: الأبجدية للنشر، 1994)، ص 20.
(37) شوفاني، الموجز في تاريخ فلسطين السياسي (منذ فجر التاريخ حتى سنة 1949)، ص 36.
(38) خالد أبو غنيمة، «الاستيطان البشري في فلسطين والقدس خلال عصور ما قبل التاريخ،» مهد الحضارات (دمشق)، عدد خاص بالقدس (2009 - 2010)، ص 23.
(39) عبد الرحمن غنيم، تاريخ القدس القديم: قراءة جديدة (دمشق؛ القاهرة: دار الكتاب العربي، 2017)، ص 183.
(40) زيدان كفافي، «القدسُ قبلَ الاحتلالِ اليونانيّ،» أفكار (عمّان)، عدد خاص عن مدينة القدس، العدد 348 (2018)، ص 59.

(41) خزعل الماجدي، تاريخ القدس القديم منذ عصور ما قبل التاريخ حتى الاحتلال الروماني (عمّان، دار غيداء للنشر والتوزيع، 2017)، ص 58.
(42) زيدان كفافي، «القدس في العصرين البرونزي والحديدي الأسفار التوراتية مقابل النصوص التاريخية والآثار،» مهد الحضارات، عدد خاص بالقدس (2009 - 2010)، ص 59.

الفصل الرابـــــع
القدس في العصر البرونزي المبكر

تعَدّ هذه الفترة استكمالًا مباشرًا للتطور الذي تمّ احرازه خلال العصر الكالكوليثي، وقد أصبح المعدن يستعمل فيها بكميات أكبر. وأخذ الإنسان يصنع من النحاس الأحمر أدوات مختلفة كالسيوف والخناجر ورؤوس الرماح الكبيرة. وبالمناسبة، فإن «إطلاق اسم العصر البرونزي لا يعتبر تسمية صحيحة نوعًا ما بالنسبة للفترة الأولى والمتوسطة، لأن جميع الأدوات التي تحليها كانت من النحاس وليس من البرونز. والواقع أن هذه التسمية أطلقت في الأيام الأولى للأبحاث الأثرية، ولكن استعمالها شاع بين الناس كما تشيع كثير من التسميات المغلوطة» [(1)].

يقول أولبرايت: «في حوالى القرن الحادى والثلاثين قبل الميلاد، يبدأ العصر البرونزي **المبكر**. ويمكننا الآن بكل اطمئنان تقسيم هذا العصر الطويل الغامض إلى أقسام، ويرجع الفضل في ذلك بصفة خاصة إلى التتابع الواضح للطبقات في مجدّو [تل المتسلم]، وبيت شان [بيسان]، وأريحا، وأضيف إليها حديثًا بيت يراح وتل الفرعه بالقرب من شكيم [نابلس]. وفــضـلًا عن ذلك يمكننا الآن تأريخ كل مرحلة من مراحل هذا العصر طبقًا للترتيب التاريخي للأسرات المصرية كما يلي: 1 - العصر البرونزي المبكر الأول (القرن 31 - 29 ق.م)، ويعاصر الجزء الأخير من عصر ما قبل الأسرات في مصر.

2 - العصر البرونزي المبكر الثاني (القرن 29 - 26 ق.م)، ويعاصر الجزء الأخير من الأسرة الأولى.

3 - العصر البرونزي المبكر الثالث (القرن 26 - 23 ق.م)، ويعاصر عصر الأهرامات، من الأسرة الثالثة إلى الأسرة الخامسة.

4 - العصر البرونزي المبكر الرابع (أو الثالث مكرر)، ويمثل بينية استمرت حتى القرن الحادي والعشرين قبل الميلاد.

على أن الملاحظ أن هذه التواريخ قد حددت على أساس أدنى تواريخ معطاة للأسرات المصرية، وهي التي نعتبرها أدنى تواريخ صحيحة تقريبًا من الوجهة العملية للعشر أسرات الأولى، ومع كل زيادة في التواريخ المصرية، يجب أن تزاد تواريخ العصر البرونزي المبكر والعصر الكالكوليثي بما يقابل هذه الزيادة» [(2)].

اختلف العاملون في الآثار الفلسطينية في تفسير هذه المرحلة، وأطلقوا عليها مصطلحات وتسميات مختلفة تبعًا لمفاهيمهم في تفسير المكتشفات، أو للشواهد التي ظهرت في المواقع التي أشرفوا على التنقيب فيها. لذا «نسبها الأب رولاند ديفو إلى مرحلة متأخرة من العصر الحجري النحاسي (Late

Chalcolithic) اعتمادًا على حفرياته في تل الفارعة بالقرب من نابلس. وجاءت كاثلين كينون بمصطلح «ما قبل التمدن» (Proto-Urban) نتيجة لحفرياتها في تل السلطان، وتبعها هنسي، وأناني، وكالاواي» [(3)].

مع بداية العصر البرونزي المبكر في فلسطين، «حصل تغير مناخي كبير نحو 3500 ق.م واستمر حتى 2350 ق.م؛ هذه الفترة الطويلة التي شهدت تزايدًا في كميات الأمطار وانخفاضًا في درجات الحرارة في معظم أرجاء المنطقة. خلال الحقبة الأولى من هذه الفترة المثالية للزراعة، تواصل انخفاض مستوى مياه البحر، وجفت مناطق واسعة من المستنقعات وأصبحت حقولًا خصبة، صالحة للزراعة لأول مرة. دخول الزراعة إلى منطقة بيسان ووادي الأردن الشمالي، وانخفاض بحيرة بيسان إلى المجال الحالي لبحر الجليل (بحيرة طبريا) وجفاف مستنقعات العصر النحاسي، أفسح في المجال لتطور منطقة كانت، خلال معظم العصر البرونزي، إحدى أكثف المناطق سكانًا في فلسطين. وفي الوقت نفسه، فإن سعة منطقة المستنقعات لا بد أن تكون قد منعت زراعة قسم كبير من جزريل الأسفل والسهل الساحلي المنخفض إلى الشرق من الكثبان الرملية قبل الألف الرابع، والتي أصبحت قابلة للزراعة تدريجيًا خلال العصر النحاسي فقط. التوسع في الزراعة، خلال العصر النحاسي وأوائل العصر البرونزي أدى إلى نقص كبير في الغابات، لأن مساحات واسعة زرعت زيتونًا وأشجارًا مثمرة أخرى وكرومًا. فترة الاستقرار والتوسع الزراعي، التي شهدت استقرارًا كثيفًا، شهدت أيضًا من دون شك، تنوعًا إقليميًا في اللغات السامية، كما اتجهت إلى إقامة بنى سياسية هامة، جعلت العديد من الدراسين يتحدثون عن «مدنية» في فلسطين خلال العصر البرونزي القديم. ورغم أن هذا التصور قد يناسب بعض المواقع الكبيرة الحجم في سوريا (وأولها تل مرديخ - إيبلا)، فإن الافتقار إلى السلطة الإقليمية وبدائية التكيف مع الزراعة، حتى في أكبر المستوطنات، وغياب سلع الرفاه والكتابة - دعائم البيروقراطية المدنية - يجعل من الصعب الافتراض أن أيًا من المدن الأكبر (وبعضها كانت كبيرة تمامًا) قد شهدت حياتها تعقيدًا يزيد عما يلزم لتجارة إقليمية ودفاع مشترك وممارسة الطقوس الدينية. ما إذا كان يتوجب على المرء أن يتحدث عن ملكيات صغيرة أو مشيخات، أو ببساطة أكثر عن مخاتير، ربما كانت بسبب الافتقار إلى النصوص، نقطة لا أهمية لها. سي. س. ستيل (C. S. Steele) دافعت عن وجود شكل من المشيخات المتقدمة في إطار تصور للمستوطنات التي توحدت إقليميًا، إذ قامت علاقات بين مركز ومحيطه في فلسطين. كثير من حججها يبدو مهمًا لتشكيل تصور للوضع في فلسطين في العصر البرونزي القديم، مهما بدا ضروريًا أن تصرف النظر عن التجارة الضئيلة الحجم (مع مصر وما يترتب على ذلك من روابط سياسية)، واعتبارها هامة بالنسبة للاقتصاد الفلسطيني. لا يحتاج المرء للخروج من فلسطين وسوريا

لتفسير الرفاه وتعقيد الحياة لدى سكان فلسطين الزراعيين في ذلك الوقت. التجارب المتخصصة والمحاصيل النقدية (وأهمها الثمار وتربية الحيوان والحبوب أيضًا) وبضائع الرفاه (وأولها المعادن) والتجارة الإقليمية وعبر الإقليمية (وهي مظهر هام في أي زراعة متوسطة متقدمة)، بالإضافة إلى نخبة قليلة العدد، كهنوتية وسياسية ربما عسكرية أيضًا، وجدت، ويسهل تصور إعالتها لنفسها ضمن إطار الاقتصاد الداخلي والمجتمع في فلسطين. التجارة الدولية وجدت وجلبت بعض الثروة والنفوذ الأجنبي، ولكنها كانت هامشية بالنسبة للاقتصاد المحلي» [(4)].

فقد بنى الإنسان «في النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد مواقع محصنة منيعة، وهو ما أدى بالتالي إلى ظهور (المدينة) بكل ما تعنيه الكلمة. وذلك أنه في هذا العصر، نشأ مجتمع كانت لديه دوافع اقتصادية تمخض عنها تكوين مؤسسة تعرف الآن «بالدولة» بمؤسساتها المختلفة، وكان من شأنها أنها ميزت النظام السياسي في بلاد الشام. وقد سُمي هذا النظام بنظام «المدينة الدولة» أو دويلات المدن، على اعتبار أن كل [مدينة] تُكَوّنُ دولة مستقلة استقلالًا ذاتيًا، يتيح لها أن تتصرف بشؤونها على أسس تمليها عليها ظروفها البيئية والديمغرافية والسياسية.

إن هذا النظام [دويلات المدن] قد نما نموًا طبيعيًا داخليًا وليس على أيدي أقوام قدمت من الخارج، وخير دليل على ذلك، أن في مدينة جاوة وجبل المطوق (وغيرها)، دولًا يعود قيامها إلى المرحلة الأخيرة من العصر الحجري النحاسي، وأوائل المرحلة الأولى من العصر البرونزي القديم، كما أنه لم يثبت وجود إلى انقطاع ما بينهما وبين المواقع التي قامت في العصر البرونزوي المبكر، مثل موقعي تل الشونة الشمالية وأم حماد، إضافة إلى أن مظاهر المادة الحضارية لم تنقطع بين أواخر العصر الحجري النحاسي والمرحلة الأولى من العصر البرونزي المبكر في المدن والمواقع الأخرى (علمًا بأن بعض المواقع قد هُجرت كليًا ولم يعد يسكنها أحد من الناس). وينطبق هذا الحال على نمط الحياة التي عاشها الناس في كلا العصرين الحجري النحاسي والبرونزي» [(5)].

ومع ذلك، فإن «ما يتوفر لدينا من معلومات يؤكد أن ثورة عصر المدن قد طالت فلسطين بكل أبعادها - السكانية والمادية والروحية والعمرانية... إلخ. وباستثناء الوحدة السياسية، التي لم تتحقق قط خلال هذه العصور، فإن المدن الفلسطينية امتلكت كل السمات الأساسية لتلك التي برزت في العراق ومصر. فقد راح عدد سكانها يزداد، ورقعتها تتسع، وتخطيطها يرتقي، وتحصيناتها تعلو، وأبنيتها المركزية تشمخ، ومرافقها تتطور. والأكيد أنه جنبًا إلى جنب مع هذه التحوّلات، تطورت العلاقات الاجتماعية، وتميّزت الطبقات، واستقرت التراتبية السلطوية. ومعها تعمقت مركزية النظام السياسي،

وكذلك الاستقطاب الاجتماعي، من قمة الهرم - النبلاء - إلى قاعدته - العبيد - وما بينهما - تجار وجنود ومزارعون وحرفيون - وفي موقع خاص، الكهنة والكتبة والإداريون» [(6)].

تتميز المرحلة **الثانية** من العصر البرونزي القديم بتأسيس الكثير من المدن المسوّرة التي يعود الفضل في إنشائها إلى أصحاب المدافن ذات المداخل الرأسية. «ويلاحظ انتشار المدن المحصنة هذه في جميع المناطق الفلسطينية ومنها المنطقة الساحلية ومرج ابن عامر وسلسلة الجبال الغربية ووادي الأردن والهضاب الشرقية في الأردن وحتى موقع جاوة في الصحراء. كما أصبح تأسيس المدن ومرافقها الدفاعية والعامة والسكنية يفرض شيئًا من التخطيط المسبق، وغدت المدن الرئيسية تمثل وحدات سياسية مستقلة أشبه بدويلات المدن التي يتبعها عدد من القرى الزراعية. ويحتل عدد من هذه المدن هضابًا استراتيجية، ولكنها ليست بالضرورة فوق المرتفعات الجبلية العالية. ومن أهم المواقع: تل المتسلم وتل تعنك وبيسان والعفولة في مرج ابن عامر، وتل الفارعة بالقرب من نابلس، وخربة الكرك (Beit Yerah) على بحيرة طبرية، وأريحا وتل أم حماد الشرقي وغيرهما من مواقع وادي الأردن، وباب الذراع في منطقة اللسان شرقي البحر الميت، وكذلك التل (عي) وتل النصبة والقدس في الوسط، وتل الدوير وعراد (Arad) وتل أبو شوشة وتل بيت مرسيم في الجنوب، ورأس العين وخربة الشيخ ميصر وتل الشيخ أحمد العريني (جت/Gath) بالقرب من الساحل الفلسطيني. وهناك موقع جاوة في الصحراء على بعد نحو 7.5 كم إلى الشرق من الفرق حيث أظهرت الحفريات أسوار مدينة فوق مرتفع طبيعي» [(7)].

والعصر التالي لهذا العصر من الناحية الأثرية، وهو العصر البرونزي المبكر **الثالث**، «ولا شك أن هذا العصر يمثل أعلى درجات حضارة العصر البرونزي المبكر في كل من فلسطين ومصر، غير أن المدن والحصون كانت لا تزال مبعثرة متباعدة في المناطق الجبلية، ولم يكن تل بيت مرسيم قد لحقه العمران بعد، ومجدّو (17 - 16) تنتمي إلى المرحلة الأولى فقط من هذا العصر. إلا أنه كانت ثمة مدينة زاهرة في بيت يراح وقد وصل سمك أنقاض مراحل هذا العصر المتتابعة التي تراكمت فيها إلى مترين في المتوسط، وقد دمرت هذه المدينة بعد ذلك ولم تستعمر لمدة تزيد على ألفي عام.

ومدينة بيت يراح كانت محاطة بسور مشيد بكتل من الجلاميد البركانية، ويبلغ سمك هذا السور أربعة أمتار، وعلاوة على ذلك كانت محصنة من خارج السور أيضًا بمنحدر من أرض مدكوكة معبدة. وكانت بيسان (12 - 11) وأريحا (3) عامرتين بالسكان أيضًا خلال هذا العصر. على أن أهم مدينة كشف عنها من هذا العصر حتى الآن هي دون شك مدينة عاي (وهي التل الذي يقع شرق بيت إيل) حيث كشفت مدام ماركيه عن معبد (أطِلق المكتشفون عليه خطأ اسم

«قصر»). وفي هذا المعبد، الذي كان مستطيلًا وبابه الرئيسي في أحد الجانبين الطويلين كانت الجدران مكونة من مداميك من الحجارة التي سويت سطوحها بالدق بالشحوطة، بينما كان السقف محمولًا على أعمدة خشبية قائمة على قواعد منحوتة نحتًا جيدًا. والمبنى نفسه، في طرازه، يمكن اعتباره وسطًا بين معبد مجدّو (19) المستطيل الشكل الذي يرجع تاريخه إلى حوالى 3000 ق.م. وبين ثلاثة مبان متشابهة من القرن التاسع عشر ق.م. في مجدّو (15). ويمكن الحكم من طبقات المناطق المجاورة على أن معبد عاي ربما بني في حوالى القرن السادس والعشرين ق.م وبالقرب من هذا المعبد هيكل صغير، عثر بداخله على كمية من الأواني والصواني المكسورة من المرمر المصري، ذات أشكال مميزة لبدء عصر الأهرامات في مصر (الأسرة الثالثة). وعثر على مقبرة في تعنك، جنوب شرقي مجدّو تحاكي في بنائها طريقة البناء بالحجر في عصر الملك زوسر، وقطع الشقف التي وجدت بها تشير إلى نهاية العصر البرونزي المبكر الثاني أو بدء العصر البرونزي المبكر الثالث، أي نحو القرن السادس والعشرين ق.م» [(8)].

الاستقرار في القدس

لا يعرف أحد شيئًا عن الذين استقروا أول مرة في التلال والوديان التي أصبحت آخر الأمر مدينة القدس. وقد «اكتشفت بعض الأوانى الفخارية في بعض مقابر تل الأكمة جنوب الجدران الحالية للمدينة القديمة، وقال المؤرخون إنها ترجع إلى عام 3200 قبل الميلاد. وكان ذلك هو الوقت الذي شهد بداية ظهور المدن في مناطق أخرى من أرض كنعان [فلسطين]، ففي مجدّو، وفي أريحا، وفي عي، وفي لاخيش، وفي بيت شان، على سبيل المثال، اكتشف علماء الآثار في حفرياتهم بقايا معابد ومنازل ومصانع وشوارع ومجارٍ لمياه الشرب، ولكننا ما زلنا نفتقر إلى الدليل القاطع على أن الحياة المدنية قد بدأت في أورشليم [القدس] في تلك الفترة» [(9)].

حسب مخطط كينون، فإن «المدينة اليبوسية [مدينة القدس]، تشغل ذروة هضبة أوفل الضيّقة [الظهور]، مع امتدادات باتجاه المنحدر الشرقي نحو وادي قدرون [جهنّم]، حيث يقع نبع جيحون [عين أمّ الدرج]، الذي كان مصدر حياة المدينة عبر عصورها. ويظهر أن طول المدينة، لا يتجاوز الـ 350 مترًا، وعرضها، لا يتجاوز الـ 150 مترًا. ويبدو أن الحدّ الشرقي للسور، الذي بني على منحدرات الهضبة، كان محكومًا بموقع النبع، فخط السور ينبغي أن يهبط المنحدر، إلى الحد الذي يسمح بالدفاع عن النبع في أحوال الحصار، وأن لا يقترب من النبع كثيرًا، حتى لا يكشف المدافعين، ويجعلهم ضمن مرمى سهام المهاجمين المتمركزين على منحدرات جبل الزيتون المقابل. أما احتواء النبع داخل السور، فمسألة غير واردة لأن خط السور في هذه الحالة سيكون في

أسفل الوادي، وفي وضع يصعب الدفاع عنه تمامًا. لقد استجلب نبع جيحون [عين أُمّ الدرج]، المستوطنين الأوائل إلى هضبة أوفيل [الظهور]، منذ أواسط الألف الثالث قبل الميلاد. عثرت السيدة كينون على آثار سكن عرضي في الموقع، تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد» [(10)].

«يعود تاريخ المادة الأكثر قدمًا المأخوذة من حفريات كينون إلى العصر البرونزي المبكر (EB). في عدة كهوف عُثر على آثار استيطان، وتم اكتشاف مزيد من الأواني الفخارية في شقوق في صخر القاعدة. وأخاديد ماء وبين حشوات من أزمنة متأخرة. ولم يتم اكتشاف أي دليل من الفترة البرونزية الوسيطة التالية (البرونزي المبكر - البرونزي الوسيط، أو البرونزي الوسيط EB-MB, MB1) على التلة الجنوبية الشرقية أبدًا، ولا حتى أي أجزاء مبعثرة لأوان فخارية. لكن على جبل الزيتون استخرجت كينون مدفنًا من هذه الفترة، وقد نشر براغ ذلك» [(11)].

تقول عالمة الآثار الهولندية مارغريت شتاينر، بأنّ كينون «وجدت آثارًا في الكهفين (IV وV)، وهما ينتميان للعصر البرونزي المبكر، وهما: الكهف (IV): مجمل المادة المأخوذة من هذا الكهف يعود تاريخها إلى العصر البرونزي الوسيط 2، لكن على صخر القاعدة تم العثور على بعض الأواني الفخارية من العصر البرونزي المبكر. في الطبقات العليا من الكهف عُثر على منجل من صوان أعاد كروفوت باين (Crowfoot Payne) تاريخه إلى «ربما العصر البرونزي المبكر». الكهف (V): ظهرت مادة من العصر البرونزي المبكر. من المحتمل أن هذه كانت طبقات استيطانية، لكنها في دفاتر الميدان وصفت بأنها «طمي وطين مع حجارة». ويمكن أن تعزى الآنية الفخارية إلى العصر البرونزي المبكر الأول (EB I) أو بداية العصر البرونزي المبكر الثاني (EB II)» [(12)].

جاء تحليل شتاينر، للموقع في الفترة البرونزية المبكرة، كما يلي: «إضافة إلى الكهوف المذكورة سابقًا، قَدَّمت عدة كهوف أخرى، عثر عليها في أثناء حفريات سابقة ولاحقة، أواني فخارية من العصر البرونزي المبكر. ففي تجويف في الصخر في الحقل إلى الغرب من مربع كينون اكتشفت مكلستر ودنكن وِعاءين كاملين وميزاب جرة تعود إلى العصر المبكر الأول (EB I). وفي أثناء بعثة باركر تم اكتشاف كهف كبير (الكهف 3) في الحقل (9) إلى الجنوب من الحقل (7)، احتوى مدافن متعددة الأجزاء مع أوان فخارية مطلية باللون الأحمر: من نموذج العصر البرونزي المبكر (EB). وعندما أعاد مكلستر ودنكن حفر هذا الكهف وجدا إبريقًا صغيرًا له مقبض عال من تلك الفترة.

في أثناء حفريات شيلوه، اكتشفت أوان فخارية من العصر البرونزي المبكر الأول مختلطة مع مواد من أواخر العصر الحجري وأوائل العصر البرونزي، في

شقوق من صخر القاعدة. وفي المنطقة (EI)، على بعد نحو 100 متر إلى الجنوب من خندق كينون I، عُثر على مبنين حجريين تحت سور المدينة العائد إلى العصر البرونزي الوسيط 2 (MB II). وكانت هناك مقاعد حجرية تشكل صفًا بمحاذاة الجدران. وطبقًا لشيلوه يمكن أن يعود تاريخ الأواني الفخارية إلى نهاية العصر البرونزي المبكر الأول (EB I) وبداية العصر البرونزي المبكر الثاني (EB II).

لم يعثر على مواد من العصر البرونزي المبكر على التلة الغربية ولا في أي مكان آخر في القدس. وهكذا يبدو محتمـلًا أن القدس كانت مأهولة في العصر البرونزي المبكر الأول (EB I). وفي بداية العصر البرونزي المبكر الثاني (EB II) يظهر تحليل الأواني الفخارية الذي أجراه فرنكن أن الأواني جاءت من مناطق متعددة في فلسطين. ولم يكن سوى جزء قليل منها مصنوعًا محليًا. وقد يدل هذا على سكان (شبه) بدو. ولم يُعثر على أي أثر لاستقرار دائم أو خلافه من فترات العصر البرونزي المبكر اللاحقة الثانية (EB II) والثالثة (EB III)، سوى قطعة آنية واحدة من خربة كرك في واحد من أعمدة باركر» [(13)].

إذًا، «يعود تاريخ أقدم القبور التي تم اكتشافها إلى الجزء الجزء الأول من عصر البرونز المبكر. وقد أظهر تحليل الأواني الفخارية من بعض الكهوف، الذي أجراه فرنكين، أنها مصنوعة من طين عُثر عليه في مناطق مختلفة من فلسطين، مؤكدًا بذلك الفكرة القائلة إنها كانت قبورًا لرعاة متنقلين. لم يُعثر على مستقرات دائمة على التلة الجنوبية الشرقية. اكتشفت شيلوه مبنى صغيرًا فقط على بعد نحو مئة متر إلى الجنوب من النبع، يتألف من غرفتين ومقاعد بمحاذاة الجدار. ربما كان هذا مقامًا مقدسًا» [(14)].

---

(1) لانكستر هاردنج، آثار الأردن، ترجمة سليمان موسى (عمّان: منشورات اللجنة الأردنية للتعريب والترجمة والنشر، 1965)، ص 24.

(2) وليم أولبرايت، آثار فلسطين، ترجمة زكي إسكندر ومحمد عبد القادر محمد (القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 1971)، ص 74.

(3) معاوية إبراهيم، «فلسطين: من أقدم العصور إلى القرن الرابع قبل الميلاد،» في: الموسوعة الفلسطينية، ألفها نخبة من العلماء (بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية، 1990)، ص 59.

(4) توماس طومسون، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ترجمة صالح علي سوداح (بيروت: دار بيسان للنشر والتوزيع، 1995)، ص 124 - 125.

(5) محمد خير ياسين، جنوبي بلاد الشام تاريخه آثاره في العصور البرونزية (عمّان: منشورات لجنة تاريخ الأردن، 1991)، ص 11.

(6) الياس شوفاني، الموجز في تاريخ فلسطين السياسي (منذ فجر التاريخ حتى سنة 1949) (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1996)، ص 50.

(7) إبراهيم، «فلسطين: من أقدم العصور إلى القرن الرابع قبل الميلاد،» ص 63.

(8) أولبرايت، آثار فلسطين، ص 77 - 79.

(9) كارين أرمسترونج، القدس مدينة واحدة ثلاث عقائد، ترجمة فاطمة نصر ومحمد عناني، كتاب سطور؛ 4 (القاهرة: سطور، 1998)، ص 22.
(10) فراس السواح، تاريخ أورشليم والبحث عن مملكة اليهود، ط 3 (دمشق: دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، 2003)، ص 35 - 36.
(11) مارغريت شتاينر، القدس في العصر الحديدي (1300 - 700 ق.م)، ترجمة رزق الله بطرس وزياد منى (دمشق: قدمس للنشر والتوزيع، 2006)، ص 27.
(12) المصدر نفسه، ص 27.
(13) المصدر نفسه، ص 29 - 30.
(14) المصدر نفسه، ص 151.

الفصل الخامس
القدس في العصر البرونزي المتوسط

تبدأ حضارة العصر البرونزي المتوسط مع بداية الألف الثانية قبل الميلاد، أي نحو 2000 ق.م. «ويتميز العصر البرونزي المتوسط بصناعة متطورة للخزف من حيث انتقاء مادة الصلصال ومزجها وإدارتها على عجلة سريعة للغاية لإنتاج أشكال متنوعة وأنيقة من الأواني التي استكمل تصنيعها من طريق الصقل أو إضافة غطاء ملون (أحمر غالبًا) أو زخارف على سطحها الخارجي. وقد ضمّت أشكال الفخار الصحون والمزهريات والأباريق والمكاييل والسُّرُج التي يتخلل الواحدة منها فتحة واحدة بدلًا من أربع فتحات كما كانت تظهر في المرحلة الانتقالية السابقة. والزخارف التي يغلب وجودها في هذا العصر هي المتموجة والحلزونية. وكثيرًا ما تظهر الأشكال الحلزونية على الأواني الفخارية والجعارين والأختام والصخور. كل هذه الصفات جعلت فخار العصر البرونزي المتوسط سهل التمييز وخاصة عن المرحلة التي سبقته حيث كانت الأواني الفخارية صناعة يدوية ومتجانسة إلى حد كبير. وجميع الجرار كانت لكل منها قاعدة منبسطة وعريضة، وأخذت مثل هذه القاعدة تتلاشى في العصر البرونزي الوسيط ليحل محلها تدريجيًا قاعدة صغيرة أو مدببة تسهل تحريك الإناء أو نقله، خاصة إذا كان إناء للتخزين أو لنقل الإنتاج أو البضائع. وغالبًا ما تكون مثل هذه الأواني من الجرار الكبيرة. يظهر الاختلاف بين الفترتين في إدخال الأسلحة البرونزية وكان يرافق ظهورها الفخار المصنوع بالعجلة مثلما تبين ذلك في مواقع مثل تل المتسلم وتل السلطان وتل العجول وتل أبو شوشة. وتتضمن الأسلحة هذه خناجر بكتف عريض ونصلة محززة وفؤوس يتخللها فتحة للمقبض وكذلك رؤوس السهام بمقبض مثقوب حيث ظهرت مثل هذه الأدوات في عدد من المواقع في شمالي سوريا وخاصة الساحلية منها مثل رأس شمرا وجبيل وتل مرديخ وغيرها» [(1)].

تظهر لنا المخلفات المادية للبرونز الوسيط استمرارية حضارية متشابهة مع الفترة الانتقالية ومع البرونز المبكر. وإضافة إلى هذه الاستمرارية الحضارية، فإن «عصر البرونز الوسيط في سورية يعطينا صورة لوحدة ثقافية تامة تجمع كل المناطق في بوتقة واحدة. فمن أوغاريت وكركميش في الشمال وحتى أطراف الصحراء في الجنوب، تبدو الروابط واضحة في كل أثر مادي، سواء في الفخار أو الفنون التشكيلية المختلفة أو فن العمارة أو تقنيات إنشاء الأسوار الدفاعية. ورغم أن المنطقة قد استوعبت إليها تحركات بشرية واسعة من الخارج، إلا أن الطابع الثقافي المحلي بقي سائدًا ومتماثلًا في جميع

أنحائها، واستمرت الثقافة الكنعانية في مسيرتها لتتجاوز البرونز الوسيط إلى البرونز الأخير فعصر الحديد» [(2)].

يبدو أن الأفضل هو «تفسير فترات العصر البرونزي القديم الرابع - البرونزي الوسيط الأول والبرونزي الوسيط 2 (أ)، في ضوء السمات الفلسطينية المحلية. ويمكن للمرء أن يفهم التغير الجذري في أنماط الاستيطان والديمغرافيا، في ضوء استراتيجيات البقاء في فلسطين، والتي تحولت دوريًا من نمط الاقتصاد المتوسطي الذي يركز على المحصولات النقدية مثل الحبوب والزيت والثمار والخمر وتربية الحيوان، إلى اقتصاد محدود إقليميًا ومتأثر بالبيئة المحلية، وعرفت فترات انهيار وتحولات في الاقتصاد أدت إلى الاعتماد بصورة رئيسية على زراعة الحبوب والرعي.

بسبب اعتماد الاقتصاد المتوسطي على المحصولات النقدية، فإن مثل هذا التصور الشامل لاقتصاد المستوطنات في فلسطين يوجه الانتباه إلى العلاقات الدولية والإقليمية باعتبارها عنصرًا هامًا في رفاه فلسطين بكاملها. وهذا له أثره على فهمنا للتطور وظروف الاستقرار في البلدات والمدن (وخاصة على طول مسار طرق التجارة) والتغيرات السياسية في المناطق والأقاليم. التشابه الكبير بين أواني العصر البرونزي الوسيط الأول وأواني مواقع أخرى في سوريا يعطي الدليل الواضح على العلاقة الوثيقة، واعتماد شمال فلسطين، في الأقل، على التجارة مع سوريا الأكثر تقدمًا. وتطور صناعة البرونز (التي تستلزم استيراد التنك) في فلسطين، بشكل خاص وكل المبتكرات التكنولوجية في العصر البرونزي الوسيط، بما في ذلك تلك المتعلقة بالأواني والعمارة والتحصينات تجد مبررها في نمو التجارة مع وادي الرافدين، وقد شجعت على تطور الأشكال السياسية في المدن والدول المدينية. بحلول العصر البرونزي الثاني، احتلت فلسطين مكانها الثابت ضمن شبكة التجارة الدولية وواصلت الإسهام في التطور الثقافي والحضاري لعالم المسماريات طوال ما تبقى من العصر البرونزي، حتى بعد فتح تحوتمس الثالث لفلسطين وخضوعها سياسيًا وعسكريًا للإمبراطورية المصرية خلال العصر البرونزي الأخير» [(3)].

وفي محاولتنا التعرف إلى الأوضاع السائدة في فلسطين خلال هذا العصر، فإن «أول ما ينبغي القيام به هو التعرف على طبيعة المدن القائمة خلال هذه الفترة الزمنية، وتبين الدراسات أن المدن خلال هذا العصر، كانت تنقسم من حيث المساحة إلى ثلاثة أنواع: (1) مواقع كبيرة الحجم، تتراوح مساحتها ما بين 20 - 175 هكتارًا، وتشكل نسبته 5 في المئة من المجموع الكلي لمدن هذا العصر.

(2) مواقع متوسطة الحجم من 7 - 20 هكتارًا، وتشمل ما نسبته 10 في المئة من المجموع الكلي.

(3) مواقع صغيرة من 1 - 7 هكتار، وهي غالبية المدن السائدة في هذا العصر إذ تبلغ نسبتها 85 بالمئة من المجموع العام.

إن هناك زيادة كبيرة في عدد المستوطنات في منطقة السهل الساحلي، ويقابله انخفاض في عدد من المستوطنات البشرية في وسط وجنوب وادي الأردن، وكذلك في مناطق الهضاب الداخلية، وما يقرب من 80 في المئة من هذه المستوطنات في هذا العصر لم تكن موجودة خلال العصر السابق.

ولعل وجود هذه النسبة الكبيرة من المواقع التي قطنت لأول مرة خلال هذا العصر [يدل من جهة على أن هناك ازدهارًا كبيرًا خلال هذا العصر وتزايدًا سكانيًا] كما أنه دليل على تغير الظروف المعيشية عن العصر السابق، وتغير المعايير اللازمة للإقامة في موقع ما» [(4)].

أولًا: مرحلتا العصر البرونزي المتوسط

من الملاحظ أن الباحث وبناءً على الأحوال التي سادت فلسطين خلال هذه الحقبة «قسم العصر البرونزي المتوسط إلى مرحلتين رئيسيتين بحيث امتازت كل مرحلة بخصائص ومميزات خاصة، وكانت هذه التقسيمات كالآتي:

(1) المرحلة الأولى: وتشمل فترة MBI الممتدة من سنة 2000 - 1800 ق.م، حيث زودتنا الحفريات الأثرية بمعلومات هامة عن طبيعة هذه المرحلة حيث امتازت ببداية متواضعة لعودة مظاهر الحضارة المتمثلة بإعادة بناء المدن، بالإضافة إلى التبدل في أنماط الاستيطان التي شهدت تطورًا خلال هذه الفترة.

(2) المرحلة الثانية: وتشمل الفترتين MBII وMBIII والممتدة من سنة 1800/1750 - 1650، و1650 - 1500 ق.م، حيث تعتبر هذه المرحلة هي الأكثر تقدمًا وتطورًا على صعيد الحضارة، فقد أظهرت الدراسات أن هذه المرحلة وخلافًا عن سابقتها شهدت نموًا ملحوظًا [وتبدلًا شديدًا] في أنماط الاستيطان وبنسب عالية جدًا، وتجسد ذلك من خلال الانتشار الواسع للسكان وزيادة عدد المستقرات وعودة المدن المحصنة ونشوء مدن أخرى لم تكن موجودة» [(5)].

1 - المرحلة الأولى: MBI (1800 - 2000 ق.م) «إن الفارق ما بين المرحلة الرابعة للعصر البرونزي المبكر والمرحلة الأولى للعصر البرونزي المتوسط، خير دليل على التبدل الشديد في أنماط الاستيطان، إضافة إلى التقنية الجديدة وإلى الأسس الاقتصادية المتطورة وإلى البنية الاجتماعية الجديدة، وإلى بروز مؤسسة سياسية ناهضة أرست قواعدها ما بين عامي 2000 و1800 ق.م. وفي هذه الحقبة بدأت أسس التمدن تترسخ.

وإذا ما أخذنا بالاعتبار مساحات المدن واتساعها، نجد أن هنالك مدنًا كبيرة تبلغ مساحتها ما بين 20 و175 فدانًا، وتكوّن ما نسبته 5 في المئة من المجموع الكلي لمدن فلسطين. ومدن متوسطة، وهي ما بين 7 إلى 20 فدانًا، وتكوِّن هذه 10 في المئة من المجموع الكلي، أما القرى، وهي التي بين 1 إلى 7 أفدنة، فتكوِّن 85 في المئة من المجموع الكلي.

وهذه المعلومات تبرز نتائج في غاية الأهمية. إذ إن هذا يعني أن 65 في المئة من الناس كانوا يعيشون في مدن محصنة تبلغ مساحة كل واحدة منها 50 فدانًا أو يزيد. ومع ذلك، فإن معظم النصف الآخر من مواطن الاستيطان تقل مساحته عن فدانين. ويمكن تفسير ذلك بأن المدن الكبيرة تعتبر مراكز مدنية وتقيم فيها الدوائر المختلفة للدولة، فتقوم بتصريف الأمور، إضافة إلى أنها تشرف على نواحي الحياة الاقتصادية للمناطق الداخلية» [(6)].

وإذا ما أردنا الحديث عن طبيعة الاستقرار خلال المرحلة الأولى من العصر البرونزي المتوسط في جنوب بلاد الشام، نستطيع القول إن «الأمر لم يخرج عن كونه إعادة للسكنى في عدد [من] مواقع العصر البرونزي المبكر، والتي لم تتعد في طبيعتها عن قرى صغيرة. إلا أنه في بعض الحالات أعيد الاستقرار في بعض المواقع، مثل موقع جاوة في شمالي الأردن، وتل الفارعة الشمالية، كما أسست مواقع لأول مرة، مثل تل بلاطة بالقرب من نابلس في فلسطين. وتشير نتائج التنقيبات أن معظم المواقع العائدة لهذه الفترة لم تكن محصنة، إلا في حالات قليلة، مثل جاوة وخربة إسكندر في الأردن، وفي رأس العين وتل برقا في فلسطين. كذلك كشف عن عدد من المعابد التي تؤرخ للعصر البرونزي المتوسط الأول، في عدد من المواقع مثل تل الحيّات في غور الأردن، وتل المتسلم في سهل مرج ابن عامر. وسكن الناس في هذه المرحلة في مناطق متفرقة، مثل الساحل، وسهل مرج ابن عامر، وشمالي غور الأردن، والحرة البازلتية بشمالي الأردن. ومن المحيّر أن مناطق خصبة وصالحة للزراعة، مثل سهل الحولة بشمالي فلسطين، وسهل البقاع في لبنان لم يجر الاستقرار فيهما خلال المرحلة الأولى من العصر البرونزي المتوسط» [(7)].

رأى كثير من الباحثين أن «مواقع المرحلة الأولى من العصر البرونزي المتوسط لم تخرج عن كونها قرى ومواقع صغيرة، مما دفع يغال يادين للقول بأن سكان هذه المنطقة ظلوا يعيشون أحوالًا مشابهة للمرحلة الرابعة من العصر البرونزي المبكر. إلا أن الدراسات الحديثة أثبتت عدم صحة هذا الزعم» [(8)].

أ - المناطق المنخفضة (السهل الساحلي ووادي الأردن) فسرت الشواهد المادية التي أظهرتها الحفريات الأثرية في هذه المنطقة أن «المرحلة الأولى MBI **امتازت بوجود استيطان غير متحضر، ودلت على أن العديد من المواقع مثل: عسقلان ورأس العين وتل القدح وتل مبارك وعكا مواقع صغيرة، ومحدودة في الحجم والسكان، ونشأت بالقرب من ينابيع المياه ومصادر المياه الجوفية، وبالقرب من مناطق التربة الخصبة، واعتمدت في اقتصادها على العمل الزراعي المروي والجاف. ونلاحظ أن هذه السيطرة الواضحة للقرى الريفية الصغيرة في منطقة السهل الساحلي ووادي الأردن كانت بسبب الانخفاض لهذه المناطق التي هي أكثر ملاءمة لقيام الزراعة لوفرة المياه وتوفر التربة الخصبة» [(9)]. «أما سكان المواقع الساحلية فغالبًا ما اعتمدوا على صيد الأسماك والتجارة» [(10)].**

ب - مناطق المرتفعات

بالنسبة إلى مناطق الجبال والمرتفعات إن «التغير الذي حصل على طبيعة وأنماط الاستيطان في هذه المنطقة أظهر اختلافًا وتباينًا عن استيطان السهل الساحل وغور الأردن هذا بالرغم من ترابط الأحداث وتشابكها بين جميع المناطق. ففي المرحلة الأولى MBI كشف عن استيطان مخلخل ونادر ومعزول نشأ بمتاخمة الوديان ومجاري المياه، مثل مواقع عين سامية، والجيب» [(11)].

2 - المرحلة الثانية: وتشمل الفترتين MBII وMBIII (1800/1750 - 1650، و1650 - 1500 ق.م) أخذت حضارة العصر البرونزي المتوسط تتقدم، «زاد عدد المدن وكبرت، وبالتالي زاد عدد سكانها، وأدى توسع المدينة إلى أن تنقسم قسمين، المدينة العليا والمدينة السفلى. ومع أن هذه تعد إشارة إلى زيادة في عدد السكان، فإنها تدل على انقسامهم طبقات. تتميز هذه المرحلة بعدة ميزات، أولها ظهور عدد من المدن التي نشأت تدريجيًا مع بداية هذا العصر، وبلغت أوج ازدهارها خلال المرحلة الثانية من العصر البرونزي المتوسط، وربما كان السبب في ظهور هذه المدن تراجع السيطرة المصرية عن سوريا وجنوبي بلاد الشام بسبب دخول الهكسوس إلى مصر.

ومن مواقع هذه المرحلة في فلسطين تل رأس العين (أفيق) وتل المتسلم (مجدّو) وتل بلاطة (شكيم) وتل النجيلة وتل بولج وتل الفارعة الشمالي وتل الفارعة الجنوبي (شاروهين) وتل القاضي (دان) وتل بيت مرسم، عسقلان وتل القدح (حاصور) وتل أبو شوشة (جيزر) وتل تعنك وتل العجول، وهذا يعني أن التطور وظهور المدن قد شمل جميع الأراضي الفلسطينية» [(12)].

«تشير التقديرات إلى أن سكان فلسطين في طبقة/حقبة MBIIA بلغوا مائة ألف نفس، وفي طبقة/حقبة MBIIB وصلوا إلى 140 ألف نفس - اتسعت كردونات المدن وفي طبقة/حقبة MBIIB هذه بدأ عمل التحصينات حولها [(13)]. فإن كثافة السكان في هذا العصر تقدر بنحو 250 نسمة لكل كم^2» [(14)].

أ - المناطق المنخفضة (السهل الساحلي ووادي الأردن) بالانتقال إلى «المرحلة الثانية MBII وMBIII نلاحظ أن نفس المواقع شهدت تحولًا وتطورًا من الاستيطان شبه الثابت إلى الاستيطان الثابت؛ وشهد عدد كبير من المواقع الريفية تطورًا ونموًا ملحوظًا من حيث زيادة السكان والمساحة، فمواقع مثل عسقلان ودور شهدت مع نهاية المرحلة الأولى تحولًا من النمط الريفي إلى نمط أكثر تحضرًا فزادت مساحتها عن 650 دونم يسكنها عدة آلاف وتتبعها تجمعات صغيرة عبارة عن مزارع لا تتعدى مساحتها 2 دونم يقطنها أقل من 50 شخصًا يمارسون العمل الزراعي.

وما يلفت النظر في هذه المرحلة هو الانتشار الكبير لمواقع جديدة على طول الساحل الفلسطيني بأنماط ونماذج جديدة أبرز مظاهرها اتساع المساحة للموقع واحتوائه أنظمة دفاعية جديدة من خلال نظام التحصين بجدران مائلة زلقة، والتي دلت على درجة عالية من التنظيم والتقدم. ويعود السبب في طبيعة هذا التغير إلى عدد من العوامل، أبرزها العامل التجاري البحري لعدد من المواقع الساحلية التي أصبحت فيما بعد تشكل موانئ تجارية

ذات أهمية مثل: ميناء عكا، ودور، وعسقلان على طول الساحل الفلسطيني» [(15)].

أما «غور الأردن، توجد غالبية المواقع بالقرب من مصادر المياه القريبة من الأراضي الزراعية بشكل يوحي بأن سكان هذه المواقع مارسوا حياة الزراعة» [(16)].

ب - مناطق المرتفعات

وفي مرحلة MBII وMBIII شهدت مناطق المرتفعات تطورًا وازديادًا واضحًا في عدد المواقع الاستيطانية، وما يميزها أنها كانت مواقع صغيرة انتشرت في معظم مناطق المرتفعات في الشمال والوسط والجنوب، وسرعان ما أصبحت تمثل مواقع مركزية أبرز مظاهرها أنظمة الدفاع التي دلت على درجة عالية من التنظيم والقدرات الكبيرة في مجال التقنية وبخاصة في عمارة المنازل والقلاع المحصنة الخاصة بالزعماء والحكام، ومن هذه المواقع بلاطة، القدس، بيت مرسيم، أبو شوشة.

ثانيًا: الاستقرار في القدس

في العصر البرونزي المتوسط (2300 - 2000 ق.م)، «تم اكتشاف عدة مدافن يعود تاريخها إلى هذه الفترة، في القدس وحولها [...] مدفن منها على جبل الزيتون، احتوى على أحد عشر قبرًا رأسيًا. وتم اكتشاف أحد القبور الغنية في جوار سلوان. وإضافة إلى ذلك عثر وَرَن على بعض الأواني الفخارية على جبل الزيتون. وفي نحال رافاييم، تم في الفترة الأخيرة اكتشاف عدة قرى ومقابر من الفترة البرونزية الوسيطة، وفي الآونة الأخيرة. والقدس نفسها لم تكن مأهولة، ومناطق كينون لم تقدم قطعة واحدة من الأواني، لكن حتى شيلوه لم يذكر هذه الفترة في تقرير حفرياته» [(17)].

ففي عام 1961، «اكتشفت عالمة الآثار البريطانية، كاثلين كينون، جدرًا يبلغ سمكه نحو ستة أقدام ونصف قدم، يمتد بحذاء السفح الشرقي لتل الأكمة وله بوابة كبيرة بالقرب من عين جيحون، واستنتجت أن ذلك سور للبلدة ولا بد أن تكون له بقية تلتف حول الطرف الجنوبي للتل وتستمر بحذاء السفح الغربي. وكان يختفي في الشمال تحت أحد الأسوار التي بنيت حول البلدة في مرحلة لاحقة. كما اكتشفت كينون أواني فخارية بين الجدار والجرف الصخري يرجع تاريخها إلى نحو 1800 قبل الميلاد. كانت أضعف مناطق المدينة هي المنطقة الشمالية، وقد بنيت فيها قلعة صهيون في وقت لاحق. ومن المحتمل أن حصنًا ما كان قائمًا في الجانب الشمالي من المدينة إبان القرن الثامن عشر قبل الميلاد. وكانت الأسوار منخفضة على السفح الشرقي للأكمة، وربما كان السبب ضرورة إعداد مدخل للسرداب الممتد من عين جيحون» [(18)]. كان

المهندس البريطاني تشارلز وارين عام 1876، قد اكتشف القناة السردابية «التي كانت تربط عين جيحون الواقعة على حافة قدرون حيث تمتد القناة من العين حتى الحصن ثم تخترق الحصن، وتنتهي إلى خزان داخل السور وكان الماء يسقى من سطح الحصن بالسطل والحبل من البئر التي فيها الخزان. وقد سُمي هذا النفق نفق وارين (Warren’s Shaft). القناة عبارة عن سرداب مدرج عمقه 26 قدمًا تصل أفقيًا القمع المائل قليلًا والممتد شرقًا 92 قدمًا. وعند هذه النقطة خارج الجدار وتحت الأرض تمتد قصبة عمقها 40 قدمًا قاطعًا مستوى المياه قادمةً من عين جيحون 72 قدمًا أبعد شرقًا» [(19)].

وقد «اكتشفت مرافق مشابهة في مجدّو، وجازر، وجبعون، وكانت كينون تعتقد أن البئر كانت تستخدم في العصر البرونزي. ولكن نظريتها أصبحت اليوم مثار خلاف؛ إذ يشك البعض في أن يكون السكان قد بلغوا من المهارة التكنولوجية ما يمكنهم من بناء هذا المرفق في تلك المرحلة» [(20)].

«لكن الاكتشافات الجيولوجية الحديثة تشير إلى أن النظام ليس برمته من صنع الإنسان، بل إن سلسلة من الصدوع الجيرية الطبيعية والأنفاق والممرات استخدمت ودمجت في شبكة المياه، وهو الأمر الذي يفسر لنا مظهرها غير المنتظم، كما يثبت أن النزول لجلب الماء كان متاحًا دائمًا من خلال الصدوع والشقوق في الصخر، لكن قاطعي الحجارة في العصر البرونزي الأوسط والمتأخر قد سهلوا المرور خلال تلك الشقوق» [(21)]. ومن أهم الأدلة التي وجدها الجيولوجيون على قِدم النفق هو «فقدان عنصر الكربون المشع وجدرانه الصخرية، الأمر الذي يدل على أنها قد تشكلت قبل نحو 40.000 سنة من تاريخ بناء المدينة» [(22)].

«وقد شغل موقع مدينة القدس حين ذاك مساحة لا تزيد عن أربعة هكتارات ونصف على ذروة جبل أوفيل، أسفل الجدار الجنوبي للحرم الشريف» [(23)].

«قدّر بروشي عدد سكان القدس في العصر البرونزي الوسيط الثاني بألفي نسمة، مستخدمًا كثافة سكانية تبلغ أربعمئة شخصًا في الهتكار. أما الحسابات الأكثر حداثة فتعطى أرقامًا أدنى من ذلك. يستخدم بروشي وغوفنا الرقم (250) في دراستهما عن مستقرات العصر البرونزي الوسيط الثاني، بينما نتج عن دراسة مارفو لموقع أراد في العصر البرونزي الرقم (200 - 250). استنادًا إلى بحث عرقي - أثري؛ لندن يفضل رقمًا أقل من (200) الحد الأدنى، وهذا يجعل عدد السكان الكلي الأعلى ألف نسمة» [(24)].

في هذا السياق، تقول عالمة الآثار الهولندية مارغريت شتاينر، «لا نعرف إلا القليل عن هذه المدينة، إذ لم تنجُ من برنامج البناء في الأزمنة اللاحقة إلا شظايا من بيوت، لكن اللقى تسمح بإلقاء نظرة على حياة سكانها اليومية.

كان من أكثر من نصف الأواني الفخارية التي عُثر عليها في خنادق حفريات كينون من جرار التخزين الكبيرة، ومن ذلك نستطيع الاستنتاج أن مهمة المدينة (أو جزءًا منها) كان التخزين أو مركز السوق. وهذا يتفق مع الدليل المأخوذ من بعض قرى المزارع المعاصرة التي تم التنقيب عنها على طول هذه الوديان في جوار القدس. ويظهر تحليل حيوانات المنطقة أن اللحم والحليب كان يتم إنتاجهما هناك للسوق المركزية على نحو رئيس. وجرار التخزين المذكورة أعلاه كانت جميعها مصنوعة من الطين المستخرج من قرب هذه القرى، لذلك إما أن يكون الطين قد تم نقله إلى القدس ليعالج هناك، أو أنه، وهو الاحتمال الأقوى، كان يستخدمه صانعو الفخار المحليون الذين كانوا يبيعون منتجاتهم الكاملة إلى الأسواق في المدينة. كما عُثر على مشغل لصنع الفخار في إحدى القرى» [(25)].

---

(1) معاوية إبراهيم، «فلسطين: من أقدم العصور إلى القرن الرابع قبل الميلاد،» في: الموسوعة الفلسطينية، ألفها نخبة من العلماء (بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية، 1990)، ص 91.

(2) فراس السواح، آرام دمشق وإسرائيل في التاريخ والتاريخ التوراتي (دمشق: دار علاء الدين، 1995)، ص 22 - 23.

(3) توماس طومسون، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ترجمة صالح علي سوداح (بيروت: دار بيسان للنشر والتوزيع، 1995)، ص 141.

(4) جهاد محمد كفافي، «الأنظمة الدفاعية في فلسطين خلال العصر البرونزي المتوسط،» (رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، معهد الآثار والأنثروبولوجيا قسم الآثار، عمّان، 1999)، ص 31 - 32.

(5) محمد يوسف العدارية، «نماذج من أنماط استيطان العصر البرونزي المتوسط في فلسطين،» (رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، معهد الآثار والأنثروبولوجيا قسم الآثار، عمّان، 2005)، ص 54.

(6) محمد خير ياسين، جنوبي بلاد الشام تاريخه آثاره في العصور البرونزية (عمّان: منشورات لجنة تاريخ الأردن، 1991)، ص 120.

(7) زيدان عبد الكافي كفافي، بلاد الشام في العصور القديمة من عصور ما قبل التاريخ حتى الإسكندر المقدوني (عمّان: دار الشروق للنشر والتوزيع، 2011)، ص 263.

(8) المصدر نفسه، ص 294.

(9) العدارية، «نماذج من أنماط استيطان العصر البرونزي المتوسط في فلسطين،» ص 85 - 86.

(10) إبراهيم، «فلسطين: من أقدم العصور إلى القرن الرابع قبل الميلاد،» ص 92.

(11) العدارية، المصدر نفسه، ص 89.

(12) علي خالد الرحابنة، «العلاقات السياسية والتجارية المتبادلة بين مصر وجنوبي بلاد الشام خلال العصر البرونزي المتأخر (1550 - 1200 ق.م)،» (رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، معهد الآثار والأنثروبولوجيا قسم الآثار، عمّان، 2003)، ص 19.

(13) دونالد ريدفورد، مصر وكنعان وإسرائيل في العصور القديمة، ترجمة بيومى قنديل (القاهرة: مكتبة الأسرة، 2014)، ص 148.

(14) كفافي، «الأنظمة الدفاعية في فلسطين خلال العصر البرونزي المتوسط،» ص 35.

(15) العدارية، «نماذج من أنماط استيطان العصر البرونزي المتوسط في فلسطين،» ص 86.

(16) إبراهيم، «فلسطين: من أقدم العصور إلى القرن الرابع قبل الميلاد،» ص 92.
(17) مارغريت شتاينر، القدس في العصر الحديدي (1300 - 700 ق.م)، ترجمة رزق الله بطرس وزياد منى (دمشق: قدمس للنشر والتوزيع، 2006)، ص 30.
(18) كارين أرمسترونج، القدس مدينة واحدة ثلاث عقائد، ترجمة فاطمة نصر ومحمد عناني، كتاب سطور؛ 4 (القاهرة: سطور، 1998)، ص 25 - 26.
(19) خزعل الماجدي، تاريخ القدس القديم (عمّان: دار غيداء للنشر والتوزيع، 2016)، ص 85.
(20) أرمسترونج، المصدر نفسه، ص 26.
(21) هـ. ي. فرانكين، «القدس في العصر البرونزي (3000 - 1000 ق.م)،» في: كامل جميل العسلي، القدس في التاريخ (عمّان: الجامعة الأردنية، 1992)، الفصل الأول، ص 39 - 40.
(22) فراس السواح، تاريخ أورشليم والبحث عن مملكة اليهود، ط 3 (دمشق: دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، 2003)، ص 39، نقـلًا عن: دراسة للجيولوجي دان جيل (Dan Gill) المنشورة في مجلة علم الآثار التوراتي (تموز/يوليو - آب/أغسطس 1994).
(23) نيلز لمكه، «أورشليم في عصر مملكة يهوذا،» في: توماس ل. تومبسون وسلمى الخضراء الجيوسي، محرران، القدس: أورشليم العصور القديمة بين التوراة والتاريخ، ترجمة فراس السواح (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2003)، ص 176.
(24) شتاينر، القدس في العصر الحديدي (1300 ــ 700 ق.م)، ص 45.
(25) المصدر نفسه، ص 151 - 152.

الفصل السادس
القدس في العصر البرونزي المتأخر

مثّلت عملية التدمير والهجران في عدد من المواقع في سورية وفلسطين، علامة على فترة انتقالية من العصر البرونزي المتوسط إلى العصر البرونزي المتأخر، فهناك ما لا يقل عن 20 موقعًا أظهرت فجوة في نهاية العصر البرونزي المتوسط/الدور الثاني (ج) (MBII-C)، وبداية العصر البرونزي المتأخر (LBC). إن معظم هذه المواقع تقع في فلسطين، وهذا التدمير الواسع ومن ثم الهجران قاد عددًا من الباحثين إلى الاستنتاج أن هذا التدمير الذي حصل لمواقع في سورية وفلسطين في القرن السادس عشر ق.م كان بسبب الجيش المصري. وهذا التفسير يتفق مع الأدلة الأثرية اتفاقًا كبيرًا وبدرجة أقل مع الأدلة من النصوص الكتابية القديمة. خرج وينستين وديفر بالاستنتاج نفسه بأن المصريين هم الذين دمروا عددًا من المواقع الفلسطينية في العصر البرونزي المتوسط/الدور الثاني .(MB II) وبناء على ذلك، يمكن القول: إن التفسير التقليدي لنهاية العصر البرونزي المتوسط في سورية وفلسطين هو بسبب الجيوش المصرية من بداية الأسرة 18 (1550 - 1450 ق.م) عندما قام هذا الجيش بعملية منظمة لتدمير عدد من هذه المواقع الفلسطينية. وهذا بالتأكيد يدلل على أن هناك اتفاقًا بين وليام أولبرايت وكاثلين كينيون أن «السيطرة المصرية على فلسطين في منتصف القرن 16 ق.م مؤشر على نهاية العصر البرونزي المتوسط وبداية العصر البرونزي المتأخر».

حسب وجهة نظر هوفمير (Hoffmeier)، فإنه يمكن القول: «إنَّ معظم علماء الآثار السورية الفلسطينية يعتقدون بأن فترة العصر البرونزي المتوسط/الدور الثاني (MB II) انتهت بطريقة عنيفة وفي فترة زمنية قصيرة، مع طرد الهكسوس من مصر وما تبع ذلك من رغبة الملوك المصريين في تأسيس نوع من السيطرة المصرية في المنطقة. بينما يقترح علماء آثار آخرون أنَّ نهاية العصر البرونزي المتوسط كان تدريجيًا على مدى قرن من الزمان، فعلى سبيل المثال تحدّى بينكوفسكي وهوفمير وجهة النظر التقليدية في ما يتعلق بنهاية العصر البرونزي المتوسط وذلك من خلال فحص النصوص المصرية ذات العلاقة وشككا بالتفسير التقليدي» [(1)].

يقول محمد خير ياسين: «ذهب بعض علماء الآثار إلى القول بأن التدمير كان بفعل القوات المصرية التي لاحقت فلول قوات الهكسوس، ولكننا لا نملك أدلة كافية للتأكد من صحة ذلك. فليس من المحتم، بل لا يجوز أن نفترض، أن التدخل المصري وملاحقته للهكسوس قد أدى إلى هذا الدمار الذي لحق بمدن المنطقة، فليس من مصلحة مصر أن تترك هذه البلاد في حالة دمار كامل، إذ

تعتبر المنطقة حيوية لأمنها، بل إنه من المهم أن تظل هذه البلدان قوية وقادرة على الدفاع عن نفسها ضد القوات المعادية الموجودة في آسيا الصغرى إلى الشمال من البلاد السورية، شريطة أن تظل حليفة لمصر وتدور في فلك السياسة المصرية، وذلك حتى تكون قادرة على مساعدة مصر في حالة تعرضها لخطر قادم من ذلك الاتجاه، وهذا ما يمكن ان تكتشفه من الوثائق المصرية» [(2)].

وتؤكد المادة الأثرية المكتشفة في العديد من مواقع هذه المرحلة «عدم وجود انقطاع في الاستيطان خلال المرحلة الانتقالية بين العصر البرونزي المتوسط إلى العصر البرونزي المتأخر، كما استمرت صناعة الفخار الكنعاني بنفس التقاليد التي سادت خلال المرحلة السابقة، وكذلك الأمر بالنسبة لأنظمة التحصينات كالأسوار والبوابات التي عثر عليها في بعض المواقع الفلسطينية، فهي تشبه التحصينات الدفاعية المستخدمة في المرحلة السابقة، ومن هذه المواقع تل القدح (حاصور) وتل البطاش (تمنة) وعسقلان وتل الدوير (لاخيش) وبيسان (بيت شان) وتل أبو حوام وتل بلاطة (شكيم) وتل الفارعة الشمالي وتل المتسلم (مجدّو)، كما اختفت خلال هذه المرحلة التحصينات الترابية المائلة التي تنسب للهكسوس» [(3)].

يحدثنا توماس طومسون، عن عدة عوامل أدت إلى التحول من العصر البرونزي المتوسط إلى المتأخر بالقول: «ربما كانت أكثر التغيرات شمولًا في تاريخ التحول من العصر البرونزي المتوسط إلى المتأخر، قد اعترت أنماط الاستيطان. هذه التغيرات تتزامن تمامًا مع ارتفاع تدريجي لدرجات الحرارة وتحول نحو الظروف الجافة من نحو 1600 ق.م، وحتى 1300 ق.م، أو بعد ذلك بقليل. وبخلاف الانتشار الجغرافي الواسع للزراعة خلال العصر البرونزي المتوسط إلى عدة مناطق هامشية على طول أطراف منطقة المتوسط المناخية (وبشكل خاص الشريط الساحلي الجنوبي والمرتفعات الوسطى وتلال يهودا وشيفيلة Shephelah) أدى فقر المناخ خلال العصر البرونزي المتأخر إلى اضطراب ملحوظ في زراعة هذه المناطق الهامشية. وهذا أوجد فجوة كبيرة في الاستيطان دامت خلال القسم الأكبر من فترة العصر البرونزي، في عشرات من المناطق الهامشية الفرعية في فلسطين. وأكثر ما يلاحظ الاضطراب والتخلي في المرتفعات الوسطى. هذا الاضطراب والانهيار الهامشي يرتبط بنهاية العصر البرونزي المتوسط الثاني (ج). ولغايات التعليل التاريخي، من المهم أن نقر بأن مسار هذا التغير بدأ قبل وقت طويل من السيطرة العسكرية (خلال القرن الخامس عشر) التي مارستها السلالة المصرية الثانية على سهل فلسطين الساحلي ووديان الأراضي المنخفضة الوسطى. الاندفاع الإمبريالي المصري نحو فلسطين، لم يكن مجرد حملة

تأديبية، بل يعزى إلى المحاولات المصرية الرامية إلى تنظيم وحماية خطوط التجارة البرية مع وادي الرافدين وسوريا.

الحضور الإمبريالي المصري في فلسطين، لم يتم على حساب الأمن والرفاه في مستوطنات الأراضي المنخفضة، ويصعب بشكل خاص ربط هذا التدهور الطويل المدى في فلسطين بشكل عام، بمصر أو بدمج المنطقة في «الإمبراطورية» المصرية. الأحرى، هو أن الركود الاقتصادي الداخلي الذي ابتدأ من قبل والانهيار الجزئي، قد أديا إلى ضعف عسكري، مما خلق وبالتأكيد، وضعًا في القرن الخامس عشر، كانت فيه فلسطين عرضة لأي هجوم من الخارج ومهيأة للخضوع لسيطرة مصر الطامحة التي استعادت حيويتها، عسكريًا كان في فلسطين القليل مما يضطر المصريين إلى مقاومة الإغراء» [(4)].

أولًا: مراحل العصر البرونزي المتأخر

تتميز فلسطين خلال هذه الفترة بخضوعها للسيطرة المصرية، ومن هنا لا بد لنا من ربط تاريخ جنوب بلاد الشام بالتاريخ المصري. كما سيستخدم الباحث التقسيم الأكثر شيوعًا بين الباحثين لهذا العصر والذي ينطبق على الأردن وفلسطين، أما بداية ونهاية كل مرحلة فقد ربطت بقوائم الملوك المصرية.

(1) المرحلة الأولى من العصر البرونزي المتأخر الأول (LB IA) (1468 - 1575 ق.م)، ويمثلها في مصر الفترة الممتدة من بداية عهد أحمس الأول حتى بداية عهد تحتمس الثالث، وأهم مميزات هذه المرحلة هي طرد الهكسوس من مصر، وفي جنوب بلاد الشام تتميز هذه المرحلة بالتدمير الذي لحق بالعديد من المواقع الفلسطينية جراء مطاردة المصريين لفلول الهكسوس، ومنها تل العجول، تل أبو شوشة، تل الجريشة، وتل رأس العين وعكا.

(2) المرحلة الثانية من العصر البرونزي المتأخر الأول (LB IB) (1405 - 1468 ق.م)، ويمثلها في مصر المرحلة الممتدة من بداية عهد تحتمس الثالث حتى نهاية عهد أمنحوتب الثاني.

(3) المرحلة الأولى من العصر البرونزي المتأخر الثاني (LB IIA) (- 1405 1308 ق.م)، وتعرف هذه المرحلة من تاريخ مصر باسم فترة تل العمارنة التي تبدأ بتولي أمنحوتب الثالث عرش مصر، وتنتهي بموت حور محب آخر ملوك الأسرة المصرية الثامنة عشرة.

(4) المرحلة الثانية من العصر البرونزي المتأخر الثاني (LB IIB) (- 1308 1194 ق.م)، وتمثل هذه المرحلة عهد الأسرة المصرية التاسعة عشرة التي تبدأ بعهد رمسيس الأول وتنتهي بموت الملك تاوسرت آخر ملوك هذه الأسرة [(5)].

«ولا يزال الغموض يكتنف التسلسل التاريخي للأحقاب التاريخية لهذا العصر، فقد قيل إن ثمة فجوة تاريخية تلت أيام مطاردة الهكسوس. غير أن هذا غير مؤكد، بدليل أن تسلسل السويات الأثرية المتتابع في مدينة مجدّو (تل المتسلم) قد توالى دون أن تظهر تلك الفجوة، فالسوية التاسعة تلت مباشرة السوية العاشرة دون فجوة بينهما. ولم يستدل من الحفريات الأثرية على حدوث كوارث، بل إن بوابة مدينة مجدّو (تل المتسلم) قد أظهرت أن السكان كانوا يؤمّون المدينة باستمرار من أواخر العصر البرونزي المتوسط إلى أوائل العصر البرونزي المتأخر.

وثمة إصرار لدى أولبرايت على وجود هذه الفجوة. ولا يزال ثمة الخلط بين المرحلة الأولى لهذا العصر التي قد نسميها «العصر البرونزي المتأخر 1 أ» وبين العصر البرونزي المتوسط الذي ظل ينسب إليه لوقت طويل معظم الفخار المميز لهذه المرحلة. غير أن وضع الحد الفاصل بين هذين العصرين عند هذه النقطة يلائم خبراء الفخار أكثر من وضعه عند أي نقطة أخرى سبق اقتراحها حتى الآن. فبين 1550 ومنتصف القرن الخامس عشر ق.م نجد كميات كبيرة من نوع متماثل جدًا من الفخار، عليه زخارف من لونين بأفاريز مقسمة إلى حشوات تشبه الأفاريز المعمارية. والزخارف داخل هذه الحشوات تتجه في معظمها نحو الطيور والسمك والأشكال الهندسية. وكان الفخار الأكثر شيوعًا في هذه الفترة يتألف بصفة خاصة من أوانٍ عميقة وأنواع متعددة من الأباريق والقدور. ويحتل هذا النوع كل الصورة الفخارية في تل المجول (2) ومجدّو (تل المتسلم) (9)، غير أنه غير موجود بالمرة في تل بيت مرسيم، ولا شك أن ذلك ناتج من حدوث فترة انقطاع في عمران هذا الموقع بين تدمير المصريين له في نحو 1550 ق.م واستعماره من جديد في الطبقة C (ج) بعد عدة أجيال. وكان هذا الفخار شائعًا جدًا على الساحل الكنعاني حيث وصل إليه من قبرص، ومن قبرص صدر إلى مصر وما وراءها من بلاد. وإن خلو أريحا تمامًا حتى الآن من هذا النوع وأنواع الفخار الأخرى المعاصرة له، لدليل قوي على حدوث فترة انقطاع في تتابع العصور بها، كما حدث في تل بيت مرسيم المعاصرة» [(6)].

في هذا الصدد يقول محمد خير ياسين: «لا ضرورة للتسليم بأن ما تمر به مدينة من المدن في حياتها وما تتعرض له من تغيرات أو أحداث، يجب أن تتعرض له المدن الأخرى، إلا إذا كان الحديث عامًا شاملًا تعرضت له البلاد كلها. وكثيرًا ما أثرت هذه التعميمات في تفكير علماء الآثار، فأتت تحليلاتهم ضيقة وأدت إلى عدم تفهم كثير من الأمور، وبالتالي إلى الوقوع في كثير من الأخطاء. إن الدليل الذي يُعتمد عليه لوجود هذه الفجوة هو غياب الفخار المسمى بالفخار متعدد الألوان (البايكروم) من موجودات السويات التي تكون أطلال تلك المدن. وهذا الفخار هو المؤشر على أن المدينة قد عاصرت الحقبة

المحصورة بين عامي 1580 و1400 ق.م، وهذه السنوات هي سنوات المرحلة الأولى» [(7)].

يذهب طومسون، إلى وصف التغيرات التي حصلت فيها بأنها «نتيجة ركود اقتصادي وتراجع لعبت فيه المدن الأكبر دورًا بارزًا. وفي مناطق أخرى، أدت التغيرات إلى انهيار الزراعة الإقليمية والتخلي عنها، وواضح أنه بقدر ما كانت المنطقة معزولة، كان تأثير التغيرات على الاقتصاد المحلي أكثر خطورة. تأويلنا لهذه التغيرات يعاني من عدم وجود معيار للتسلسل الزمني يمكن أن نطبقه على كل فلسطين. وهناك أسباب كثيرة تدعونا للاعتقاد بأن هذا التحول الذي استغرق فترة طويلة من العصر البرونزي المتوسط 2 (ج)، إلى العصر البرونزي الأخير 2، لم يحصل في كل المناطق في وقت واحد» [(8)].

تدل المسوح والتنقيبات الأثرية التي تمت في فلسطين على «تراجع عدد مواقع العصر البرونزي المتأخر مقارنة بالمرحلة السابقة، فمن بين 270 موقعًا تعود إلى المرحلة السابقة سجل نحو 100 موقع يعود للعصر البرونزي المتأخر، أي أن نسبة التراجع تبلغ نحو 60 بالمئة. كما أظهرت التنقيبات الأثرية أن من بين 54 موقعًا يعود للمرحلة السابقة أعيد بناء واستيطان 22 موقعًا منها خلال العصر البرونزي المتأخر» [(9)].

يعني ذلك أن «العديد من مواقع المرحلة السابقة هجر خلال هذه المرحلة. وبعض من المواقع التي تركها سكانها تقع في المناطق الداخلية والجبلية، إذ تحول سكانها إلى البداوة والرعي، وهذا يدل على أن المناطق الداخلية والجبلية لم تشهد إحياءً لمدنها وقراها العائدة للمرحلة السابقة، في هذه المرحلة تغير النمط الاقتصادي؛ فخلال المرحلة السابقة كان النظام الاقتصادي الأكثر شيوعًا هو النمط الزراعي والزراعي الرعوي، وهذا أدى إلى نشأة المدن والقرى الزراعية في المناطق الجبلية والداخلية الصالحة للزراعة» [(10)].

1 - المرحلة الأولى والثانية من العصر البرونزي المتأخر الأول
(1575 - 1405 ق.م) «يستطيع الباحث العارف والمتابع ملاحظة طبيعة وسمات المكتشفات الأثرية من المرحلة الأخيرة للعصر البرونزي المتوسط واستمراريتها في المرحلة الأولى من العصر البرونزي المتأخر في جنوبي بلاد الشام. فعلى سبيل المثال، نجد أن طرق وأشكال التحصينات وأشكال وطرز وزخارف الآنية الفخارية التي كانت موجودة في العصر البرونزي المتوسط قد استمرت في المتأخر، لا سيما عن طريق التجارة مع كل من قبرص وبلاد الإغريق. ويبدو أن التجارة ازدهرت خلال القرن الخامس عشر قبل الميلاد بين مايسينيا في بلاد الإغريق وقبرص وبلدان شرقي البحر المتوسط. وقامت قبرص بدور الوسيط التجاري بين بلاد الإغريق ومصر ومدن ساحل المتوسط الشرقي، مثل رأس شمرا في سورية، وأبو حوَّام قرب حيفا في فلسطين. وعثر على كميات من الفخار القبرصي والمايسيني المستورد مباشرة أو عن طريق قبرص، في كثير من مواقع العصر البرونزي المتأخر في فلسطين والأردن» [(11)].

2 - المرحلة الأولى والثانية من العصر البرونزي المتأخر الثاني
(1405 - 1194 ق.م) «صورت [فترة] العصر البرونزي المتأخر الثاني بشكل مغاير عن العصر البرونزي المتأخر الأول، حيث مُثلت بشكل أفضل بكثير عن سابقتها في فلسطين. وأمكن تقسيم الفترة إلى مرحلتين ثانويتين، الأولى: العصر البرونزي المتأخر الثاني - أ، ويقابل ذلك عصر العمارنة في مصر، وتمتد فترته الزمنية من 1400 ق.م إلى 1300 ق.م. أما الثانية، العصر البرونزي المتأخر الثاني - ب، فتقابل في مصر، معظم فترة حكم الأسرة التاسعة عشرة، وامتدت فترته بين 1308 ق.م - 1194 ق.م. وقد ارتبط الانتقال للعصر البرونزي المتأخر الثاني - ب بحملة الفرعون سيتي الأول (1309 - 1291 ق.م) في سنوات حكمه الثلاث الأولى. أما مسألة ربط الحملة المصرية العسكرية التي تمّت في زمن الفرعون رمسيس الثاني (1290 - 1224 ق.م) بطبقة أثرية معينة فهي قابلة للتساؤل. لكن يبدو بشكل عام أن التواريخ التقريبية المستخدمة في تحديد الفترة صحيحة» [(12)].

«وحيثما توجد كمية وفيرة من فخار متنوع في مستودع واحد له صفات متجانسة (حتى تكون كل أنواع الفخار التي بالمستودع من نفس الوقت تقريبًا)، فإن وضع بعض قواعد بسيطة سيساعدنا في إيجاد الترتيب التاريخي لهذا المستودع في العصر البرونزي المتأخر. فوجود أي فخار ميسيني من بلاد اليونان يدل على أن تاريخه يتراوح بين 1400 و1230 ق.م.

إذًا توقف استيراد هذا الفخار بعد هذا التاريخ. وفيما عدا بضعة أمثلة قليلة جدًا لاستيراد فخار ميسيني أقدم، فإن كل قطعة من أصل إيجي وجدت في فلسطين إنما تنتمي حقيقة إلى العصر الميسيني المتأخر (الهيليني المتأخر

الثالث). والفخار الحلقي القاعدة من قبرص (وهو عادة أسود أو بني داكن أو رمادي غامق قاعدته مشكلة بالضغط في حلقة معدنية) نادرًا ما يكون تاريخه بعد العصر البرونزي المتأخر (2 أ)، إذ إنه اختفى بسرعة بعد بداية القرن الثالث عشر.

والسلطانيات القبرصية ذات المقابض التي على شكل عظمة اليد، وهي عادة ذات لون سمني أو رمادي مائل إلى الزرقة، ومزينة بوحدات زخرفية على شكل «سلم» جرى استعمالها خلال كلا المرحلتين (2 أ) و(2 ب)، على أنها كانت أكثر شيوعًا نسبيًا في المرحلة (2 ب)» [(13)].

ثانيًا: الاستقرار في القدس

لم يكتشف علماء الآثار في القدس أي أوان فخارية ترجع إلى الفترة الممتدة من القرن السابع عشر إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد. ووفقًا للمعلومات المتاحة لنا، فربما تكون المدينة قد اختفت إبان تلك السنوات.

أعلنت كينون بسرور كبير أنها عثرت على بقايا مدينة [القدس]، تتألف من نظام مصاطب كبير يحتضن سفح التلة الجنوبية الشرقية فوق (نبع جيحون). واعتمادًا على الأواني الفخارية المرافقة، كتبت كينون: «إن تاريخها يعود إلى القرن الرابع عشر - الثالث عشر قبل الميلاد، لهو أمر مؤكد على نحو معقول». مضيفة: «إن القطع الفخارية التي قدمت دليل التأريخ هي قطع مكسّرة كثيرًا» [(14)].

وارتأت كينون أن «سور المدينة «اليبوسي» كان هو ذاته سورها في العصر البرونزي المتأخر (1550 - 1000 ق.م) كما أثبتت أنه لم يكن هناك أي أثر لانشغال المنطقة شمال الخط الذي يفترض بأنه السور الذي بُني في العصر البرونزي الأوسط» [(15)].

جاءت المخلفات الأثرية المكتشفة في القدس والمؤرخة لهذه الفترة قليلة جدًا. كما أن «عدد المواقع المؤرخة للعصر البرونزي المتأخر الواقعة في المناطق المحيطة بالقدس تراجع عن عدده خلال الفترة السابقة. وعلى الرغم من هذا، فقد كشفت الحفريات التي أجراها سلفستر سالر في عام 1954، في منطقة جبل الزيتون عن قبر غني بموجوداته الأثرية. كما عثر ديمتري برامكي في عام 1935 على بئر للماء عثر بداخله على موجودات أثرية متعددة تعود إلى الفترة الواقعة بين (1550 - 1200 ق.م). وإضافة لهذا وغيره فقد تم الكشف في الجهة الجنوبية الشرقية عن عدد من المنشآت الحجرية التي تؤرخ للفترة المذكورة أعلاه مكونة من عدد من المصاطب الحجرية بارتفاعات مختلفة مكونة مرتفعًا ضخمًا» [(16)].

«وقد أدت الحفريات التي قامت بها كاثلين كينون إلى الكشف عن سلسلة من المصاطب المليئة بالأحجار والتي مكنت السكان من العيش في تلك المنطقة التي تتميز بالمرتفعات والمنخفضات، وقالت إنها تعتقد أن هذه المصاطب المستوية حلت محل المساكن القديمة المتفرقة، والشوارع التي تتسم بالانحدار الشديد. وقالت الباحثة إن بناء المصاطب استغرق وقتًا طـويـلًا إذ بدأ العمل فيها في منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد، ولم يكتمل إلا في مطلع القرن الثالث عشر قبل الميلاد. وكانت بعض جدران المصاطب يصل ارتفاعها إلى ثلاثة وثلاثين قدمًا وكان العمل يتوقف أحيانًا بسبب بعض الكوارث الطبيعية مثل الزلازل أو تآكل التربة. وكانت هذه المباني الجديدة لا يقتصر الانتفاع بها في الإسكان بل كانت جزءًا من تحصينات المدينة» [(17)].

«أظهرت دراسة الأواني الفخارية التي عُثر عليها في حشوة هذه المصاطب، في كلٍ من لايدن والقدس، أن النظام لا يمكن تاريخه إلى ما بين القرنين (14 - 13 ق.م). معظم الأواني الفخارية تنتمي إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد، أو في أقدمها إلى نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وهي الفترة الانتقالية بين العصرين البرونزي المتأخر والحديدي الأول. وهذا يعني أن نظام المصاطب لا يمكن أن يخص مدينة أورشليم [القدس]. ولم يُعثر على أي أثر من مدينة يعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، لا على التلة الجنوبية الشرقية، ولا في محيطها المباشر. ولم يتم اكتشاف أي بقايا لأسوار مدن، ولا بيوت ولا مبان كبيرة ولا حتى تراكمات لأوان فخارية من العصر البرونزي المتأخر على صخر القاعدة أو من الحشوات اللاحقة في كثير من الحفريات التي جرت في تربة القدس» [(18)].

يقول فرانكين: «إن التحقيقات الأثرية لم تؤيد حدوث أي تغيير في الطبيعة السكانية في نهاية العصر البرونزي المتأخر (1550 - 1000 ق.م) وبذلك قد يكون اليبوسيون قد أعادوا بناء الموقع في أوائل القرن الرابع عشر وشغلوه طوال أربعمئة سنة» [(19)].

---

(1) طالب عبد الله الصمادي، «من المسؤول عن تدمير مواقع العصر البرونزي الوسيط [المتوسط] في سورية وفلسطين؟،» مجلة جامعة دمشق، العددان 1 - 2 (2006)، ص 260 - 262.

(2) محمد خير ياسين، جنوبي بلاد الشام تاريخه آثاره في العصور البرونزية (عمّان: منشورات لجنة تاريخ الأردن، 1991)، ص 174.

(3) علي خالد الرحابنة، «العلاقات السياسية والتجارية المتبادلة بين مصر وجنوبي بلاد الشام خلال العصر البرونزي المتأخر (1550 - 1200 ق.م)،» (رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، معهد الآثار والأنثروبولوجيا قسم الآثار، عمّان، 2003)، ص 42 - 43.

(4) توماس طومسون، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ترجمة صالح علي سوداح (بيروت: دار بيسان للنشر والتوزيع، 1995)، ص 143.

(5) الرحابنة، المصدر نفسه، ص 42.
(6) وليم أولبرايت، آثار فلسطين، ترجمة زكي إسكندر ومحمد عبد القادر محمد (القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 1971)، ص 99 - 100.
(7) ياسين، جنوبي بلاد الشام تاريخه آثاره في العصور البرونزية، ص 175.
(8) طومسون، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ص 144.
(9) الرحابنة، «العلاقات السياسية والتجارية المتبادلة بين مصر وجنوبي بلاد الشام خلال العصر البرونزي المتأخر (1550 - 1200 ق.م)،» ص 44.
(10) نجد اسبير مزاهرة، «المجتمعات البدوية في بلاد الشام في العصر البرونزي المتأخر (1550 - 1200 ق.م)،» (رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، معهد الآثار والأنثروبولوجيا قسم الآثار، عمّان، 2007 - 2008)، ص 54.
(11) زيدان عبد الكافي كفافي، بلاد الشام في العصور القديمة من عصور ما قبل التاريخ حتى الإسكندر المقدوني (عمّان: دار الشروق للنشر والتوزيع، 2011)، ص 347 - 348.
(12) ربا صالح الوزني، «دراسة للقوارير الفخارية القبرصية المكتشفة في جنوبي بلاد الشام: دراسة تحليلية مقارنة،» (رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، كلية الآثار والأنثروبولوجيا قسم الآثار، عمّان، 1996)، ص 26 - 27.
(13) أولبرايت، آثار فلسطين، ص 100 - 101.
(14) المصدر نفسه، ص 49.
(15) عبلة المهتدي، القدس تاريخ وحضارة (3000 ق.م - 1917م) (بيروت: دار نعمة للطباعة، 2000)، ص 23 - 24.
(16) زيدان كفافي، «القدس في العصرين البرونزي والحديدي الأسفار التوراتية مقابل النصوص التاريخية والآثار،» مهد الحضارات، عدد خاص بالقدس (2009 - 2010)، ص 60.
(17) كارين أرمسترونج، القدس مدينة واحدة ثلاث عقائد، ترجمة فاطمة نصر ومحمد عناني، كتاب سطور؛ 4 (القاهرة: سطور، 1998)، ص 39 - 40.
(18) مارغريت شتاينر، القدس في العصر الحديدي (1300 - 700 ق.م)، ترجمة رزق الله بطرس وزياد منى (دمشق: قدمس للنشر والتوزيع، 2006)، ص 49.
(19) هـ. ي. فرانكين، «القدس في العصر البرونزي (3000 - 1000 ق.م)،» في: كامل جميل العسلي، القدس في التاريخ (عمّان: الجامعة الأردنية، 1992)، ص 48.

الفصل السابـــع
اخــــتـــــلاق «أورشـــــلــــيــــم» فــي النصوص المصرية القديمة

هناك ظاهرة شائعة رافقت قراءة النصوص الأثرية المكتشفة، وهي تزوير وتحريف القراءات لإيراد اسم أو حدث معين في النص. وبعد كل هذا يجيء دور تعميم وترسيخ هذه «المعرفة»، والأخطر من هذا أن هذه القراءات «الزائفة» يتم تكرارها في أروقة البحث العلمي حتى بعد الكشف عن ضلالها.

يقول محمد الأسعد، في كتابه **مستشرقون في علم الآثار: كيف قرأوا الألواح وكتبوا التاريخ؟**: «والغريب أن الكثير من الأساطير التي يشيعها هؤلاء «العلماء» ينكشف زيفها لدى بعض المختصين، ولكن تظل لها سطوتها التي تستمدها من خطاب تحميه مؤسسات تحولت إلى شبه معابد، وعلماء تحولوا إلى كهنة يتحدثون بلغة لا يفهمها الجمهور العادي، فتزيدهم نفوذًا وسطوة» [(1)].

أولًا: نصوص اللعنات

كما حدث عندما تم قراءة اسم «أورشليم» في «نصوص اللعن»، بينما النص الأصلي يتحدث عن «أوشاميم»!

«ويرجع تاريخ «نصوص اللعن» إلى ما يتراوح بين 1850 و1750 ق.م. وهذه النصوص تعد عمـلًا من أعمال السحر التي تستهدف إفناء الأشخاص والأشياء التي يشكل وجودها تهديدًا للفرعون أو لمصر. ويصور الطقس الذي نعنيه هنا الفرد في الطين المحروق أو الحجر أو الخشب، المنقوش منه وغير المنقوش أو بكتابة الأسماء على الأوعية الفخار. وكانت صيغة اللعنة تتلى، دون شك، ثم يكسر الوعاء. ويمدنا كل معبد من معابد الأهرامات الكبرى، على وجه التقريب، خلال المملكة القديمة بشطف من تماثيل لأجانب مكبلين بالقيود (نوبيين أو آسيويين)، ولكن ما نشر حتى الآن لم يتجاوز بضعة أجزاء حول تلك النقوش (نوبية). وفيما يتعلق بالأسرة الثانية عشرة ومطلع الأسرة الثالثة عشرة لم يصل إلى أيدينا سوى أربع قطع تتصل بصورة أو بأخرى بالموضوع، تماثيل صغيرة من حلوان، ومن مطلع الأسرة الثانية عشرة (لم تصلنا أي أسماء آسيوية)، وصلت إلى أيدينا تماثيل صغيرة وفخاريات من حصن نوبي يسمى «ميرجيسا» Mirgissa، يرجع تاريخه إلى وقت يقع بين 1900 و1850 ق.م. وفخاريات أخرى جرى شراؤها من السوق وانتهى المطاف بها حاليًا في برلين بألمانيا، وهي ترجع إلى حكم سنوسرت الثالث أو حكم أمين - أم - حات، بالإضافة إلى تماثيل صغيرة أخرى مصنوعة من الصلصال عثر عليها المنقبون في «سقارة»، واستقرت الآن في بروكسل عاصمة بلجيكا، ويرجع تاريخها إلى

جيل أو جيلين بعد الأوانى التي تحتفظ بها برلين، وهو الأمر الذي يعني أنها ترجع إلى وقت أو آخر خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر ق.م» [(2)].

الصورة الرقم (٧ - ١) دمية طينية من سقارة كتبت باللغة الهيروطيقية (وثائق اللعنة)

في هذا الصدد، يقول أولبرايت: «هذه الوثائق الغريبة تتكون من أوان وتماثيل صغيرة مكتوب عليها بخط هيراطيقي رديء أسماء ثورات قائمة فعـلًا أو الثورات التي يحتمل قيامها في مصر والبلاد المجاورة، وكان يظن بناء على هذا أنها تقع تحت رحمة فرعون مصر. فاذا هددت بعض القبائل أو المدن بالثورة أو العصيان، فما على فرعون مصر إلا أن يكسر الأشياء المكتوب عليها أسماؤها والتعاويذ اللازمة في احتفال سحري، وفي التو ينتهي العصيان بمأساة تقع على رأس العصاة بطريقة ما. وقد تم نشر مجموعتين من هذه الأشياء حتى الآن، المجموعة الأولى من الأواني بمتحف برلين ونشرها كورت زيتة في عام 1926، والمجموعة الثانية من التماثيل الصغيرة في متحف بروكسل ونشرها بوزنر G. Posener عام 1940. ومن المرجح أن يرجع تاريخ المجموعة الأولى إلى نهاية القرن العشرين ق.م، ويرجع تاريخ المجموعة الثانية إلى أواخر القرن التاسع عشر ق.م. وهما يظهران نقصًا كبيرًا في العدد النسبي للوحدات القبائلية وزيادة مقابلة في عدد ولايات المدن، وهو ما يطابق تمامًا الأدلة المستمدة من توزيع الفخار» [(3)].

الصورة الرقم (٧ - ٢) أربع قطع من الفخار

لدينا ثلاث مجموعات قديمة من النصوص ذات الصلة التي تدرج أسماء لكل من بلدات وحكام فلسطين، ويشار إليها عادة باسم «نصوص اللعن» لأنه يبدو أنها قد استخدمت من جانب المصريين للعن بلدات وأمراء العدو المدرجة عليها. «تشير المجموعات الثلاث من النصوص إلى فلسطين على مدى جيلين إلى حدٍ أقصى، يمكن الآن تحديد تاريخها بالفترة الواقعة ما بين عامي (1810 و1770 ق.م) أي في ذورة العهد البرونزي الأوسط. تظهر أسماء كثيرة لبلدات فلسطين الأكثر شهرة لأول مرة: بيبلوس (جبيل) وشكيم [نابلس]، وعسقلان، وحاصور، وبيت شمش وفيلا وأورشليم. وتُدرج البلدات مع الأسماء السامية الغربية لـ(أمرائها) أو (زعمائها). ويتم تقديم بعض البلدات باسم حاكم واحد، فيما تقدم أخريات بحاكمين أو أكثر. بعضها يُقدم بوصفه مقسمًا بين بلدة شمالية وجنوبية أو عليا وسفلى، وكل واحدة مع (أميرها) الوحيد. وبعض البلدات، مثل جبيل، تُدرج ببساطة بوصفها (سكان) البلدة، من دون اسم حاكم» [(4)].

وبالنسبة إلى محتويات هذه الوثائق وتفسيرها، «فالجزء الأقدم منها (مجموعة برلين) يذكر أسماء عدد من الأمراء والمواقع الثائرة الخاضعة للنفوذ المصري. فهي تتضمن أكثر من عشرين منطقة، وأكثر من ثلاثين حاكمًا من الحكام لعنتهم هذه الوثائق. ومن المدن الفلسطينية المعروفة التي ذكرت فيها: عسقلان، والقدس، والشيخ رحاب (تل الصارم). وتذكر هذه المجموعة حكام هذه المدن، وهم: حكام مدينة القدس (Yaqar-Ammu)، وحاكم آخر هو (Seti-Anu)، وحاكم مدينة عسقلان (Khalu-Kim). أما بقية الأسماء التي وردت في هذه المجموعة فهي أسماء مناطق غير معروفة وغير محددة.

أما فيما يتعلق بالمجموعة المتأخرة (مجموعة سقارة/بروكسل) فهي تحوي أكثر من أربعة وستين موقعًا كثير منها معروفة ومحددة. ونذكر - أيضًا - حكام المدن، حيث ورد أكثر من مائة وعشرين حاكمًا. ومن المواقع المعروفة: عكا

والشيخ رحاب (تل الصارم)، ورأس العين، وعسقلان، وتل القدح (حاصور)، وبلاطة (شكيم)، والقدس» [5].

يقول ريدفورد: «ورغم أنه أصبح الآن مؤكدًا أن أواني (طاسات) برلين ومجموعة «ميرجيسا» لا ترجع إلى أكثر من جيل إلى جيلين قبل التاريخ الذي تعود إليه تماثيل «بروكسل» الصغيرة الحجم، وتتسم باختلافات تميز عدد وترتيب الأماكن في المجموعتين فضلًا عن العلاقة التي تربط الأفراد الذين وردت أسماؤهم بتلك الأماكن. فمن ناحية، هناك زيادة مذهلة في عدد الأماكن المذكورة، من خمسة أماكن، وحسب، في «ميرجيسا» إلى أكثر من ستين مكانًا في مجموعة «برلين». ومن ناحية أخرى، نجد في كل من «ميرجيسا» و«برلين» أن العديد من الشيوخ/ الأمراء Chiefs مرتبطون باسم مكان واحد منفرد، ولا أقل من ثلاثة في ست حالات. وفي نصوص «بروكسل»، مع ذلك، نجد أن كل مكان مرتبط بشيخ/ أمير واحد. وبالإضافة إلى ذلك ففي أوانى «برلين» نرانا نفتقر، على ما يبدو، إلى أي ترتيب جغرافي لسياق الأماكن: فـ «رحوب» في «الجليل» تتبعها مباشرة «أشناه» في غرب «يهودا». و«أرقاطة» شمالي «بيبلوس» تسبق «عشقلون/عسقلان». ولكن نصوص «بروكسل» تصنف أسماء الأماكن وفقًا لـ«الإقليم»، ما لم تُصنف في سياق مذكرات الرحالين» [6].

يرى عالم المصريات الفرنسي، نيقولا جريمال، في كتابه **تاريخ مصر القديمة**: «لهذه القوائم أهميتها الكبرى، ولكن شهادتها غير موثوق فيها نظرًا للدور الذي تضطلع به، إذ رأى القائمون على أداء هذه الشعائر أنه من المفيد الجمع بين أعداء الوقت الراهن والقوائم القديمة التي عفى عليها الزمن حتى تعم الفائدة من التعزيمة السحرية وتصبح أكثر شمولًا، وذلك بدلًا من وضع قوائم جديدة كاملة ومطابقة للمواقع. وبعد كل ما قلناه نجد أن المصادر المباشرة تؤكد سلامة ما أدرج من أسماء في هذه القوائم بالنسبة لمنطقة النوبة كأهل «كوش» و«المجاو» وأهل «واوات» والـ «نحسيو» والـ «يونتيو». أما المعلومات المتاحة عن فلسطين فهي أكثر غموضًا رغم وفرة الأسماء، ونذكر منها بيبلوس وأورشليم وسيشم وعسقلان» [7].

يقول رمضان عبده: «إن نصوص اللعنة تذكر العديد من رؤساء المدن الفلسطينية والسورية، منها رو - وشلم - م، عسقلان، عشتاروت، اجرون، بيت شمس، بيت شان، سشم، هاتزور، يافا، اكر (عكا)، سكمم زبلون، سيمون، زبول هاداو، وأبو راهان، وأسماء أخرى من الصعب التعرف على أماكنها الحالية» [8]. يرى غاردنر، أنه «لا يمكن تحديد معظم أسماء الأماكن وإن وجدنا من بينها ما يحتمل أن يكون عسقلون وششم» [9].

ثانيًا: اختراع أورشليم

جاء في النصوص ما يلي: «حاكم أوشاميم ياقارعامو وكل توابعه الذين كانوا معه. حاكم أوشاميم سيتي - عانو، وجميع توابعه الذين معه» [(10)].

«في عام 1926، قام العالم الألماني سيث (K. Sathe) بترجمة نصوص اللعن المصرية والتعليق عليها. وقد لفت نظر سيث (K. Sathe) كلمة «أوشام» (Awsamm) في عدد من هذه النصوص ففسرها بأنها «أورشالم»» [(11)].

يرى ليتسر غراب، في دراسته «الجماعات الإثنية في أورشليم»، «أن الكلمة التي وجد فيها الباحثون إشارة إلى «أورشليم» هي (Rw’szmm) الهيروغليفية. فقد قرئت الكلمة على أنها اسم مكان، ورُجِّح أن طريقة لفظها هي الطريقة المصرية للفظ كلمة أورشليم، التي كانت بالنسبة إليهم اسمًا أجنبيًا لبلد أجنبي يُقرأ على نحو يشبه (أ) رو - شاليموم («U» rushalimum)، وهي قراءة قريبة من قراءة وثائق تل العمارنة اللاحقة للاسم، ولكن هذه القراءة لقيت معارضة من الباحث (الإسرائيلي) ناداف نعمان (N. Na’aman) الذي يرى أن الشطر الأول من الكلمة يجب أن يقرأ روش (ros) ويعني رأس. أما الشطر الثاني فيقرأ راميم، لتصبح الكلمة «روش - راميم» (Roshramem)» [(12)]. أما قراءة أحمد فخري، للاسم فهي «أوشاميم» [(13)].

وبالرغم من أن أحمد فخري، في كتابه **مصر الفرعونية**، وعبد الحميد زايد، في كتابه **القدس الخالدة**، ذكرا أن الكلمة هي «**أوشاميم**»، إلا أنهما قاما بكتابتها «**أورشليم**» أيضًا!

وهنا نجد لزامًا علينا طرح السؤال التالي: هل يمكن لغويًا قراءة كلمة «**أوشاميم**» بـ «**أورشليم**»؟! للإجابة عن هذا السؤال علينا إعادة قراءة النقش بهدوء، فالنقش أوردته فايزة محمود صقر، في بحثها «مدينة القدس في النصوص المصرية القديمة» بهذه الصيغة [(14)]:

وفي تفسير النقش، يقول محمد بهجت قبيسي، في كتابه **ملامح في فقه اللهجات العربيات من الأكادية والكنعانية وحتى السبئية والعدنانية**: j: مخصص أرض وليس مخصص مدينة.

أُ شام [وم] مثل التنوين= **شامٌ**.

حيث [أُ] سابقة تفيد التنبيه، حيث أقول: [أمهيبة] بمعنى [مهيبة] (اسم علم من نقوش أغاريت). وأقول [أُغاريت] لتعني [غريت = جرية = قرية = مدينة]

(نقوش أغاريت).

فإذا كانت «**أورشليم**» فأين الراء وأين اللام [15].

ثم إنّ المخصّص الدالّ على الكلمة هو لأرض واسعة (φ) ولو كان لمدينة لوضع مخصّص المدينة (▽).

إذًا القراءة الصحيحة للكلمة هي «**أوشاميم**» وليست «**أورشليم**»، فلم تعرف «نصوص اللعنات»، مدينة تسمى «**أورشليم**»!

ثالثًا: رسائل تل العمارنة

تعَدّ رسائل تل العمارنة من أهم المصادر التي يمكن الوقوف عليها لمعرفة أحوال الشرق الأدنى القديم في منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد، أيام الملك أمينوفيس الثالث (1400 - 1380 ق.م)، ومن ثم أيام ابنه امنحوتب الرابع (اخناتون) وقد «كتبت هذه الرسائل على ألواح طينية بالخط المسماري الأكادي، وهي اللغة التي كانت شائعة منذ عصر الدولة البابلية القديمة بوصفها لغة دولية للمراسلات الدبلوماسية والتجارية في منطقة الشرق القديم. وقد اكتشفت هذه الرسائل عام 1887 مصادفة من قبل إحدى الفلاحات المصريات المسنّات التي كانت تحفر بحثًا عن السباخ في الأطلال المجاورة لقرية تل الحديثة بالعمارنة التي تبين بعد ذلك أنها بقايا مدينة اختياتون التي بناها أخناتون، وأدى الحفر خلسة الذي قام به السكان المحليون إلى ظهور ألواح جديدة، مع ظهور مكتشفات عديدة بالمنطقة مع بدايات أعمال الكشف المنظم التي جرت في ذلك الموقع، والرقم الكلي للألواح التي عثر عليها بذلك الموقع مجهول بسبب بيع أعداد منها سرًا إلى هواة جمع التحف بعد العثور عليها مباشرة» [16].

فإذا بها تكشف عما نطلق عليه الآن «دار السجلات - أو ديوان الرسائل». «وكشفت هذه القروية في هذه البقعة عن مئات من الألواح الطينية (المصنوعة من اللبن) عليها نقوش تمثل علامات غريبة الشكل. وعندما عاين الأثريون وتجار العاديات المحليون هذه الألواح لم يبالوا بها أول الأمر وظنوها مزيفة. وعندما تبينت أصالتها كان عدد الألواح وأجزائها (أي شظاياها) التي تبقت قد بلغت نحو ثلاثمائة وخمسين قطعة [17].

ويقدر عدد هذه الرسائل بـ «نحو 382 رقيمًا (نصًا)، وهي 350 رسالة، والباقي نصوص متفرقة مختلفة الموضوعات. ولا شك أن قسمًا آخر منها ضاع خلال مرحلة بدايات العثور عليها، وقد قدّرها سيس Sayce الذي كان من أوائل المهتمين بها بنحو 150 - 200 رقيم» [18].

المعروف حاليًا 382 لوحًا، تمثل 75 في المئة (أو أكثر) من عدد الألواح الكلية، «وتسمى البقعة التي عثر بها على أكبر عدد من الألواح حاليًا باسم المبنى 19، أما الاسم الأصلي فقد كان أكثر إيحاء وهو «دار رسائل الفرعون - حياة،

انتعاش، صحة»، كانت تلك البقعة هي موقع دار حفظ مراسلات الملك الأجنبية.

توصف الرسائل بأنها رسائل تبادلها ملوك مصريون من الأسرة الثامنة عشرة (أمنحتب الثالث، أمنحتب الرابع، توت عنخ آمون) مع ملوك كبرى ممالك الشرق القديم (ميتاني، خَتِّي، بابل) وملوك آشور، وآرزاوا وألاشيا، وملوك أو حكام كانوا يحكمون مدنًا في بلاد الشام (سورية، لبنان، فلسطين، الأردن) خلال القرن الرابع عشر ق.م.

وهنا ننبه إلى عدة أمور جديرة بالذكر، وهي: (1) يعود قسم كبير من النصوص إلى عهد حكم أمنحتب الثالث في طيبة، ويبدو أنها نقلت إلى آخت آتون عند انتقال أمنحتب الرابع/ أخناتون إليها. ولذلك ليس من المستبعد أن تكون هناك رُقم بقيت في طيبة، أو تلفت، أو ضاعت آنذاك.

(2) وصف الرسائل بأنها «متبادلة» - كما هو شائع - ليس دقيقًا، في الوضع الراهن. وذلك لأننا لا نجد ضمن الـ 350 رسالة سوى عشر رسائل مرسلة من مصر، بينما سائر الرسائل الأخرى مرسلة إلى مصر، وذلك إلى الملك، وإلى بعض كبار الموظفين في البلاط الملكي، وإلى المندوبين الملكيين بين مصر وبلاد الشام.

(3) ثمة جمل مذكورة في رسائل مرسلة إلى مصر تشير بوضوح إلى وجود رسائل أخرى، لا نعرفها بعد، مثل: فيما يتعلق بما كتب أخي (أو: بما كتبت) إليّ، لقد كتبتُ إليك (سابقًا) لأجل... (أو: قائـلًا:)، ها قد أصغيتُ إلى الكلام الذي كتبته إليّ» [(19)].

«وترجمة هذه الرسائل صعبة وغير متفق عليها. والسبب أن من كتبوها كانوا يستخدمون لغة غريبة عنهم مشتقة عن البابلية القديمة بعد أن أدخل الكنعانيون عليها بعض التعديلات ثم جمدت مع الزمن إلى لغة دارجة أو بمعنى أصح إلى ما يشبه لغة المصطلحات الدبلوماسية التي لا يفهمها سوى من يستخدمونها» [(20)].

وعلق ريفراني على ذلك بأن «لغة الرسائل مليئة بالصور البلاغية، والكنايات وباقي الألوان البلاغية في الكتابة، والتي يمكن أن تؤدي إلى ترجمات متناقضة. وبعيدًا عن تلك الإشكالية، فهناك المشاكل التي وقعت نتيجة ترجمة النصوص إلى لغات ليست لغة من قام بالترجمة، وقد يظهر غموض وحيرة في نصوص الرسائل، يعود ببساطة إلى أن الكاتب الذي كتبها في تلك العصور ليس من أبناء اللغة الأكادية (باستثناء واضح للرسائل الواردة من الممالك التي تتحدث الأكادية مثل بابل وآشور) وكانت تظهر مصاعب أحيانًا في نقل معانٍ دقيقة بتلك اللغة كما أملاها ملوكهم.

فضـلًا عن ذلك، هناك صعوبة في فهم المراسلات السورية - الفلسطينية وترجمتها ترجمة صحيحة، وذلك للجوء الكتبة الذين كتبوها إلى استعمال مفردات مهجورة، ومفردات محلية، ومصطلحات كنعانية.

لقد طوّر الكتبة المحليون في سوريا - فلسطين ما يمكن تسميته باللغة الهجينة التي يغلب عليها الكنعانية، والتي طرحت تحديات أخرى من نوع خاص عدا التحديات التي تفرضها ترجمة اللغات المهجنة، ولا بد أن يظل كل ذلك ماثـلًا بأذهاننا في محاولاتنا إعادة بناء تاريخ مرحلة العمارنة من خلال نصوص الرسائل، هذا عدا أن كثيرًا من المعلومات مبتسرة، بسبب تهشم أجزاء من الألواح» [(21)].

ولا يقل تفسير هذه النصوص صعوبة عن ترجمتها. وحتى الآن لم تصنف هذه الرسائل في صورة تسلسلية متفق عليها عالميًا، فمن ضمن الصعوبات التي تعوق تلك الحالة الرديئة لهذه الألواح، التي وجدت حوافها مقطوعة مما أفقدها العناوين التي تدلنا على اسم المرسل والمرسل إليه. كذلك فالرسائل غير مؤرخة. وأخيرًا فهي ليست بها إشارات تسهل علينا قراءتها [(22)].

لسوء الحظ، إن المصادر التوراتية قد استخدمت كمراجع لترجمة قراءة رسائل تل العمارنة على الرغم من أن تأليفها يعود إلى مراحل متأخرة جدًا.

ينعكس هذا بما ذهب إليه الباحث العربي فراس السواح، في كتابه **الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم**: «وقد قمنا بدراسة جميع رسائل تل العمارنة المتعلقة بالدويلات السورية في بلاد الشام، بكل عناية، فتبين لنا بما لا يدع مجالًا للشك بأنها مراسلات قد جرت مع ملوك سورية وفلسطين» [(23)]. ويحاول السواح تقديم الدليل على ذلك من خلال عرض بعض تلك الرسائل. «نقرأ في النص EA, NO 190، وهو عبارة عن إحدى رسائل ملك أورشليم الكنعانية في فلسطين إلى الفرعون ما يلي: إلى الملك مولاي. هكذا يقول خادمك «عبدي هبة». انظر إلى ما فعله «مِلْك - ايلو» [Milkilu] و«شوارداتا» [Shuwardata] بأراضي الملك، مولاي. لقد دفعوا بقوات من «جازر» [Gezer] ومن «جت» [Gath] ومن «كيله» [Keilah]. أخذوا أراضي «روبوتو» [Rubutu]، وأراضي الملك سلمت إلى شعب «العابيرو». حتى بلدة في أراضي «أورشليم» من أملاك سيدي اسمها «بيت لحم» [Bit-Lahm] قد أعطيت إلى «كيله»، فليصغ مليكي إلى خادمة «عبدي هبة» ويرسل قوات تعيد الأراضي الملكية إلى الملك. وإذا لم تصل القوات، فإن أراضي الملك ستغدو للعابيرو» [(24)].

يضيف السواح: «في هذا النص، كما في أي نص تاريخي آخر، هناك مواقع لم يتم التعرف عليها، وأخرى مرجحة، وثالثة ثابتة بالدليل الأركيولوجي. فموقع «كيله» مشكوك بأمره، و«روبوتو» يرجح أن تكون في مكان ما جنوب غربي

موقع «مجدّو». أما «جازر» فمدينة كنعانية هامة تقع على المنحدرات الغربية للسلسلة المركزية في فلسطين» [25].

وأما «جت» فكانت إحدى مدن الفلستيين الرئيسية وحصنًا من حصونهم. أمكن لعلم الآثار التعرف عليها في موقع «تل جت» في الشريط الساحلي الفلستي جنوبًا [26].

يلفت نظرنا في النص أعلاه ورود ذكر بلدة «بيت لحم» لأول مرة في السجلات القديمة، وترد هنا مترافقة مع «أورشليم» باعتبارها تقع في منطقتها [27].

هكذا، استخدم السواح النصوص التوراتية لتفسير إحدى رسائل تل العمارنة، والتي ذكرها تحت رقم (190).

ومن المفيد، أن نوجز بعض الملاحظات على ما ذكره السواح: - أخطأ السواح بترقيم الرسالة حيث ذكر أنها EA, NO 190، وصحتها هي EA, NO 290. وقد وردت الرسالة في كتاب «مراسلات تل العمارنة الدولية: وثائق مسمارية من القرن 14 ق.م»، كما يلي: «قل للملك سيدي. هكذا يقول خادمك «عبد خبا/هبة» خادمك: 3) لقد جثوت لدى قدمَي الملك سيدي سبعًا فسبعًا.

5) انظر إلى الفعل الذي ارتكبه ملكي لي وشووَرْدات لقد وجّها بحق بلاد الملك، سيدي. قوات جزري (و) قوات جيمتي وقوات قِلْتو.

11) إنهما يحتلان بلاد مدينة روبرت، بلاد الملك باتت منفصلة تابعة للعفيرين.

14) والآن، إضافة إلى ذلك مدينة اسمها بيت نينورتا تابعة لبلاد أوروسليم، مدينة تابعة للملك، باتت منفصلة وصارت إلى جانب رجال مدينة قِلْتو.

19) ليت الملك يهتم بأمر عبدي خبا خادمك، وليته يرسل قوات محاربة، ولتعدْ بلاد الملك إلى الملك. وإن لم تكن هناك قوات محاربة فإن بلاد الملك ستنفصل (وتتبع) العفيرين.

25) هذا الفعل ضد البلاد كان بأمر ملكي لي وبأمر شووَردْات، [ومع] مدينة جينتي. فليهتم الملك ببلاده» [28].

- قسم السواح المواقع إلى عدة أنواع: **أولى**، مواقع لم يتم التعرف إليها، **وأخرى** مرجحة، **وثالثة** ثابتة بالدليل الأركيولوجي. إذًا لا يوجد إجماع على هذه المواقع! فعلى سبيل المثال، موقع «كيله»، اعتبره السواح، مشكوك بأمره، وقرأها بعض الباحثون «قِلْتو»، وطابقها مع خربة «قيلا» أو خربة «كوفين» جنوب غرب القدس. وموقع «روبوتو» رجح السواح أن يكون في مكان ما جنوب غربي موقع «مجدّو». واعتقد آخرون أنها خربة حميدة، غربي بيت لحم. أما موقع «جازر» التي اعتبرها السواح مدينة كنعانية هامة، وأورد بعض النصوص التوراتية حولها. ذكرها آخرون باسم جَزْري، وهي تل جَزَر الواقع على

بعد 25 كم شمال غرب القدس. وقد وردت في الوثائق المصرية بصيغة (ق ذ ر). وموقع مدينة جت، اعتبرها السواح، «تل جت» إحدى مدن الفلسطينيين، وأورد ما ذكرته التوراة عنها. في حين قرأها باحثون آخرون «جيمتي» واعتقدوا أنها تل صافت في مناطق بئر السبع، جنوب غربي فلسطين.

- أشار السواح إلى مدينة «بيت لحم» في الرسالة، مع العلم أن المدينة اسمها «بيت نينورتا»! ولم تذكر إلا في هذه الرسالة، ولم يتعرف عليها الباحثون!

- أما في ما يخص «القدس»، في رسائل تل العمارنة، تقول عالمة الآثار مرغريت شتاينر في خلاصة كتابها **القدس في العصر الحديدي (1300 - 700 ق.م)**: «في أثناء الحفريات الكثيرة التي جرت في القدس وحولها، لم يُعثر على أي أثر لمدينة محصنة: لا أسوار كبيرة ولا بيوت ولا حتى أي قطع من أوان فخارية سائبة، إلا ما ندر، في الحشوات اللاحقة وطبقات الأنقاض الكثيرة. يبدو أنه لا يمكنني إلا الاستنتاج أنه لم تقم أي «مدينة» في القدس في أثناء فترة (رسائل تل العمارنة). ومن الناحية الأثرية، لم تكن القدس ببساطة مأهولة أثناء العصر البرونزي المتأخر. يبدو لي هذا واحدًا من الأمثلة الكثيرة التي يبدو فيها أن النصوص وعلم الآثار يناقض واحدهما الآخر» [(29)].

من المفيد هنا، أن نورد هنا المقاطع التي ذكر بها اسم «أورشليم» في رسائل تل العمارنة وهي: **الرسالة المعروفة بالرمز «EA 285»:** رسالة موجهة من عبدي خبا إلى الملك المصري أمنحتب الرابع، يؤكد ولاءه، ويطلب منه أن يهتم بوضعه، ويرسل له رسولًا. لم يتم ذكر «أورشليم» بالمطلق!

الرسالة المعروفة بالرمز «EA 286»: رسالة موجهة من عبدي خبا إلى الملك المصري أمنحتب الرابع، يؤكد ولاءه، ويفند ذم المندوبين الملكيين له، واتهامهم إياه بالتمرد، بل يتهمهم بالتعاون مع العفيرين [العابيرو] ضد الحكام الموالين للملك المصري. لم يتم ذكر «أورشليم» بالمطلق!

الرسالة المعروفة بالرمز «EA 287»: رسالة موجهة من عبدي خبا إلى الملك المصري أمنحتب الرابع، يشتكي من التحالف المضاد له، بقيادة ملكي لي حاكم جَزْري، ويرجوه أن يساعده، ويضع حدًا لأفعالهم المتكررة. وينبه إلى أن السيادة المصرية تنهار جراء تعاونهم مع العفيرين [العابيرو]. ثم يتحدث عن سوء الأوضاع الاقتصادية في بلاده، وتخلي المندوبين الملكيين عنه. ويذكر بهدايا أرسلها إلى الملك، ولكنها نهبت.

ويزعم البعض أن «أورشليم» ذكرت في الفقرة (25): «انظر إلى **بلاد مدينة أوروسليم** (URUUru-^{Salimki})، لم يعطها لي أبي ولا أمي، بل إن يد الملك القوية هي التي أعطتنيها». وفي الفقرة (40): «حتى يأتي بوورو مندوب الملك إلى

بلاد مدينة أوروسليم». وفي الفقرة (60): «انظر! لقد ثبّت الملك اسمه في **بلاد مدينة أوروسليم إلى** الأبد، وهو لا يستطيع تركها؛ بلدان **مدينة أوروسليم**».

الرسالة المعروفة بالرمز «EA 288»: رسالة موجهة من عبدي خبا إلى الملك المصري أمنحتب الرابع، يتابع شكواه، وتأكيد ولائه. ويرسل إلى الملك هدية متميزة علّه يحظى بدعمه في الحرب والحصار الذي فرضه عليه. إنه يستغرب صمت الملك المصري، وسيادته تنهار بيد حكام صغار يتعاون مع العفيرين [العابيرو]، والقتل يطال أنصاره. لم يتم ذكر «أورشليم» بالمطلق!

الرسالة المعروفة بالرمز «EA 289»: رسالة موجهة من عبدي خبا إلى الملك المصري أمنحتب الرابع، يعلمه بتجاوزات حكام المدن، وخروجهم على الطاعة لمصر، ويطلب منه الاهتمام والتحقيق في ممارساتهم وتعاونهم مع العفيرين. ويركز على أعمال حاكم جَزْري الذي يقود تحالفًا ضده، ويحتل مدنًا تابعة له. السيادة المصرية تنهار رويدًا رويدًا، وهو الوفي المخلص له محاصر، وثمة حاجة ماسة إلى تدخل عسكري مصري.

ويزعم البعض أن «أورشليم» ذكرت في الفقرة (14): «والآن [فيما يتعلق بـ] **مدينة أوروسليم** (URUUru-^{Salimki})**؛** إنْ كانت هذه البلاد تعود إلى الملك، فلمَ لا تكون ضمن اهتمام الملك مثل مدينة خَزّة».

الرسالة المعروفة بالرمز «EA 290» رسالة موجهة من عبدي خبا إلى الملك المصري أمنحتب الرابع، يتابع الشكوى ووَصف حرب خصومه عليه، بقيادة ملكي لي حاكم جَزْري ويطلب العون العسكري.

ويزعم البعض أن «أورشليم» ذكرت في الفقرة (14): «والآن، إضافة إلى ذلك مدينة اسمها بيت نينورتا تابعة لبلاد أوروسليم، مدينة تابعة للملك، باتت منفصلة وصارت إلى جانب رجال مدينة قِلْتو» [(30)].

هنا، نكرر ما ذكره محمد بهجت القبيسي، نحن «نشك في ورود اسم «أورشليم» ومع ذلك هذا يستدعي منا الرجوع إلى النصوص الأصلية وليس إلى ما كتبه بعض المؤرخين الغربيين، وفي هذه الحالة فإننا لا نؤيد ولا نرفض ورود اسم «أورشليم» حتى الرجوع للنص الأصلي» [(31)].

---

(1) محمد الأسعد، مستشرقون في علم الآثار: كيف قرأوا الألواح وكتبوا التاريخ (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2010)، ص 115.

(2) دونالد ريدفورد، مصر وكنعان وإسرائيل في العصور القديمة، ترجمة بيومى قنديل (القاهرة: مكتبة الأسرة، 2014)، ص 139.

(3) وليم أولبرايت، آثار فلسطين، ترجمة زكي إسكندر ومحمد عبد القادر محمد (القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 1971)، ص 85 - 86.

(4) توماس طومسون، الماضي الخرافي (التوراة والتاريخ)، ترجمة عدنان حسن ووزياد منى، ط 2 (دمشق: قدمس للنشر والتوزيع، 2003)، ص 230.

(5) محمد يوسف العدارية، «نماذج من أنماط استيطان العصر البرونزي المتوسط في فلسطين،» (رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، معهد الآثار والأنثروبولوجيا قسم الآثار، عمّان، 2005)، ص 56 - 57.

(6) دونالد ريدفورد، مصر وكنعان وإسرائيل في العصور القديمة، ترجمة بيومى قنديل (القاهرة: مكتبة الأسرة، 2014)، ص 141 - 142.

(7) نيقولا جريمال، تاريخ مصر القديمة، ترجمة ماهر جويجانتي؛ مراجعة زكية طبوزادة ط 2 (القاهرة: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، 1993)، ص 217.

(8) رمضان عبده علي، تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضاراته، الجزء الثاني (الأناضول - بلاد الشام) (القاهرة: دار نهضة الشرق للطباعة والنشر والتوزيع، 2002)، ص 247.

(9) سير ألن جاردنر، مصر الفراعنة، ترجمة نجيب ميخائيل إبراهيم؛ مراجعة عبد المنعم أبو بكر (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973)، ص 153.

(10) عبد الحميد زايد، القدس الخالدة (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2000)، ص 41.

(11) عصام سخنيني، القدس تاريخ مختطف وآثار مزورة (عمّان: اللجنة الملكية لشؤون القدس، 2009)، ص 63 - 64.

(12) ليستر غراب، «الجماعات الإثينية في أورشليم،» في: توماس ل. تومبسون وسلمى الخضراء الجيوسي، محرران، القدس: أورشليم العصور القديمة بين التوراة والتاريخ، ترجمة فراس السواح (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2003)، ص 212 - 213.

(13) أحمد فخري، مصر الفرعونية (القاهرة: مكتبة الأسرة، 2012)، ص 186.

(14) فايزة محمود صقر، «مدينة القدس في النصوص المصرية القديمة،» ورقة قدمت إلى: مؤتمر القدس، جامعة القاهرة، كلية الآداب، قسم التاريخ، ومركز بحوث الدراسات التاريخية 21 - 23 آذار/ مارس 1998، ص 156.

(15) محمد بهجت قبيسي، ملامح في فقه اللهجات العربيات من الأكادية والكنعانية وحتى السبئية والعدنانية (دمشق: دار شمأل، 1999)، ص 325.

(16) تريفور برايس، رسائل عظماء الملوك في الشرق الأدنى القديم: المراسلات الملكية في العصر البرونزي المتأخر، ترجمة رفعت السيد علي (القاهرة: دار العلوم للنشر والتوزيع، 2006)، ص 367.

(17) سيريل ألدريد، أخناتون، ترجمة أحمد زهير أمين (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992)، ص 20.

(18) فاروق إسماعيل، مراسلات العمارنة الدولية وثائق مسمارية من القرن 14 ق.م (دمشق: صفحات للدراسات والنشر والتوزيع، 2017)، ص 14 - 15.

(19) المصدر نفسه، ص 15 - 16.

(20) ألدريد، أخناتون، ص 163.

(21) برايس، رسائل عظماء الملوك في الشرق الأدنى القديم: المراسلات الملكية في العصر البرونزي المتأخر، ص 368 - 369.

(22) ألدريد، المصدر نفسه، ص 164.

(23) فراس السواح، الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم، ط 3 (دمشق: دار علاء الدين، 1997)، ص 57.

(24) المصدر نفسه، ص 57.

(25) يمكن مراجعة أخبارها في التوراة فني المواضع التالية: الكتاب المقدس، «سفر يشوع،» الأصحاح 10، الآية 33 والأصحاح 16، الآيات 3، 10 و21 والأصحاح 21؛ و«سفر الأيام الأول،» الأصحاح 6، الآية 67، والأصحاح 20، الآية 4؛ «سفر القضاة،» الأصحاح 1، الآية 29؛ «سفر صموئيل الثاني،» الأصحاح 5، الآية 25، و«سفر الملوك الأول،» الأصحاح 9، الآيات 15 - 17.

(26) يمكن مراجعة أخبارها في التوراة في المواضع التالية: الكتاب المقدس، «سفر صموئيل الأول،» الأصحاح 6، الآية 17 والأصحاح 7، الآيات 14 و17؛ الأصحاح 4؛ «سفر صموئيل الثاني،» الأصحاح 21، الآيات 15 - 22؛ «سفر يشوع،» الأصحاح 11، الآية 22، و«سفر العدد،» الأصحاح 13، الآية 33، و«سفر التثنية،» الأصحاح 2، الآيتان 10 - 11 وغيرها...

(27) السواح، المصدر نفسه، ص 57 - 58.

(28) إسماعيل، مراسلات العمارنة الدولية وثائق مسمارية من القرن 14 ق.م، ص 587.

(29) مارغريت شتاينر، القدس في العصر الحديدي (1300 - 700 ق.م)، ترجمة رزق الله بطرس وزياد منى (دمشق: قدمس للنشر والتوزيع، 2006)، ص 152.

(30) إسماعيل، المصدر نفسه، ص 576 - 587.

(31) محمد بهجت القبيسي، في: التزوير الصهيوني للنقوش والآثار: القدس نموذجًا، ندوة في المركز الثقافي العربي في كفر سوسة، كانون الثاني/يناير 2011.

الفصل الثامن
القدس في العصر الحديدي

عند نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ازدادت شدة القحط طويل المدى الذي وسم مناخ العصر البرونزي المتأخر. وعطّل الجفاف الميقيني الكبير، الذي أخذ اسمه من فترة القحط التي ساهمت في انهيار ميقينة القديمة، الحضارة في كل أنحاء القسم الشمالي والشرقي من حوض البحر المتوسط. وتبعه انهيار التجارة الدولية، والدمار العشوائي لكثير من مدن هذه المنطقة الضخمة وبلداتها. لكن من الصعب أن يكون الجفاف وحدة أحدث كل هذه السلسلة من النكبات. على كل، فقد أدّى دورًا مهمًا. وانهارت إمبراطوريات الحثيين وميقينة، وكذلك دولة عمورو (أمورو) في سورية الشمالية. وقد استمر الجفاف نحو قرنين من الزمن. كانت مصر القوة المتوسطية الكبرى الوحيدة التي نجت دون أن تمس بأذى، حيث الزراعة المرتبطة بفيضان النيل لم تكن معرضة لخطر الجفاف مثل الاقتصادات المتوسطية المعتمدة على الهطل المطري في اليونان والأناضول وسورية - فلسطين.

«مع بداية نحو عام 1250 ق.م عانى البحر المتوسط هبوطًا شديدًا في مستواه ارتفعت معدلات درجة الحرارة ونقص الهطل المطري بشكل حاد. وقد بلغ الجفاف ذروته في نحو عام 1200 ق.م ودام حتى نحو عام 1050 ق.م. اختلف الجفاف بشكل ملحوظ من منطقة إلى أخرى، فكانت آثاره على أشدها في بحر إيجة وعلى طول الساحل الأناضولي. ومع انهيار ميقينة، أصبحت أعداد كبيرة من البشر لاجئين.

لقد اجتثت المجاعة والموت جوعًا على نطاق واسع مجتمعات بأكملها، وأجبرت الناس على مغادرة بيوتهم ومزارعهم، فانتقل كثيرون إلى مصر، برًا وبحرًا. وتم استجرار لاجئين آخرين إلى السهل الساحلي الفينيقي وإلى فلسطين، فوطّنوا عائلاتهم حيثما استطاعوا. وعلى مدى أجيال عدة، اندمجوا بالجماعات السكانية المحلية على طول الشاطئ المتوسطي كله. ومع انتقالهم برزت ثقافة جديدة ومتميزة اتسمت بالخصائص الإيجية والمشرقية.

مع توافر أدلة كثيرة على أن اندماج هؤلاء اللاجئين كان تدريجيًا وسلميًا، فما لا شك فيه أن البعض استولى على الأراضي بالقوة. ومع ذلك استقبل الآخرون بالعداء. طردت القوات العسكرية كثيرين حيثما كانت ما تزال تمتلك السلطة»[(1)].

دعا المؤرخون هذه الجماعات التي ظهرت في أواخر القرن الثالث عشر بـ «شعوب البحر»، وعزوا إليها تدمير ثقافة العصر البرونزي المتأخر، مثلما عزوا

تدمير ثقافة العصر البرونزي المبكر إلى الأموريين في أواخر الألف الثاني قبل الميلاد.

في هذا الصدد، يقول فنكلشتاين وسيلبرمان: «عَرَضَتْ نظريات أكثر حداثةً تفسيراتٍ مختلفة بشكل مثير. يشير البعض إلى تغيير مناخي مفاجئ دمَّر الزّراعة، وسبب مجاعةً واسعة الانتشار. يفترض آخرون انحلالًا وتعطُّلًا كاملًا للمُجتمعات في كافة أنحاء شرقي البحر الأبيض المتوسط، بنحو أصبح معه من العسير تحمُّل أيِّ تغيُّر اقتصادي، أو ضغط اجتماعي. في كلا السِّيناريُويَيْن المُحتملَيْن الأخيرَيْن، لم تكن المُفاجئة لـ «شعوب البحر» هي السّبب، بل كانت المُسَبَّب. بكلمة أُخرى؛ أرسل انحلال وتوقُّف اقتصاديَّات القَصْر للعصر البرونزي المتأخِّر حُشُودًا من الناس الذين شُرِّدوا من أوطانهم، ليَهيمُوا في شرقي البحر الأبيض المتوسط؛ بحثًا عن أوطان، ومعايش جديدة» [(2)].

أصيب اقتصاد فلسطين بضعف شديد بفعل الكساد العميق للتجارة البحرية. فقد «كان العصر البرونزي المتأخر متميزًا بتجارة دولية واسعة شملت منتجات فلسطينية مثل الحبوب والخمور والزيوت والأقمشة والمنسوجات المصبوغة والأخشاب التي كانت توزع على نطاق واسع عبر منظومة البحر الأبيض المتوسط من مصر عبر بحر إيجة وصولًا إلى أماكن بعيدة مثل إيطاليا. مثل هذه الطرق التجارية المفتوحة حول البحر الأبيض المتوسط خلال العصر البرونزي المتأخر أفادت فلسطين إفادة مباشرة بفضل موقعها الاستراتيجي. غير أن أي اختلال أو فوضى في هذه الطرق التجارية الدولية واقتصاد البحر الأبيض المتوسط كان محكومًا بأن يؤثر على مصائر فلسطين وشعبها. وهذا تحديدًا ما حصل مع حلول نهاية العصر البرونزي المتأخر حين تعرضت المراكز الحضرية عبر عالم البحر الأبيض المتوسط للتدمير، بدءًا بتدمير مدن قبرص الساحلية مرورًا بانهيار الإمبراطورية الحثية في الأناضول ووصولًا إلى خراب وهجران العديد من المراكز الحضرية على امتداد الساحل السوري - الفلسطيني. أما التأثيرات داخل فلسطين فقد تجلت تجليًا شديد الوضوح مع تعرض العديد من البلدات مثل حاصور وأفيق وبيت شميس وجازر وتل بيت مرسيم وتل أبو خوام ولاخيش وغيرها للتدمير. إن اختفاء الأواني الفخارية المستوردة من قبرص هو إشارة إلى حدوث خلل وانقطاع في التجارة الدولية وصولًا إلى حدوث إنهيار كارثي في المنطقة كلها» [(3)].

سواء كان ذلك بسبب الحريق أو الزلزال أو القوة العسكرية أو الثورة أو انهيار البنى الاقتصادية والسياسية فقد «دمر العديد من مدن العصر البرونزي الأخير في المناطق الزراعية الأصلية في فلسطين، إبان القرنين الثالث عشر والثاني عشر. بعضها، مثل حاصور، عاد الاستيطان إليها في ظروف تتسم بالفقر الشديد وتغير كبير في البنى السياسية. بعضها هجرت، فيما حافظ بعض آخر، مثل مجدّو على البقاء واستمرار الاستيطان، خلال هذه الفترة الانتقالية

الصعبة. وفي ظل هذا المناخ المتسم بتدهور كبير في الأراضي الزراعية الداخلية في فلسطين، يبتدئ وجود مستوطنات جديدة في الأراضي المنخفضة الغنية بالمياه ووديان المرتفعات الرئيسية، وفي بعض المناطق الهامشية الفرعية التي كان سكانها في السابق قليلي العدد، ذلك لأن السكان بحثوا عن مناطق أوسع لتأمين غذائهم بعد أن تناقص الإنتاج. ويبدو أن أقدم هذه المستوطنات الجديدة قد تمركزت في السهل الساحلي، وعلى طول مسار الطرق التجارية. وضمن تواصل ثقافة العصر البرونزي الأخير، تزاوج التقلص الحاد في حجم المدن الأكبر، مع ازدياد عدد المستوطنات الصغيرة في السهل الساحلي بمعدل أربعة أضعاف، الأمر الذي يدل على نقص في العدد الإجمالي للسكان وتفرقهم (بسبب عجز المدن الأكبر عن إعالة سكانها) إلى وحدات زراعية أصغر وأقدر على تأمين اقتصاد ناجع. بحلول القرن الثاني عشر (ويتزامن ذلك مع تطور أشكال الأواني في العصر الحديدي الأول) حصل مثل هذا التغير في وادي يزرعيل ووادي بيسان. والظاهر أن تفرق السكان في المناطق الأكثر هامشية قد تواصل، لا في المناطق الواطئة فحسب، بل وفي المناطق المعزولة في الجليل وتلال أفرايم كذلك. التغير الجذري في نمط الاستيطان في هذه المناطق المرتفعة، أدى إلى تطور بعيد المدى في الكيانات الاجتماعية والسياسية والثقافية: بعيدًا عن سيطرة مراكز المدن، ثم التطور تدريجيًا في اتجاه مجتمعات منظمة إقليميًا، هذا التطور هو الذي سيؤدي إلى تحول في الهياكل السياسية في سوريا - فلسطين» [(4)].

يقول كيث وايتلام، في دراسته القيمة «إعادة اكتشاف تاريخ فلسطين القديمة»: «ليس ما نستطيع أن نراه إلا دليـلًا على أن الرد في فلسطين على هذا الاختلال والتمزق الحاصل في الاقتصاد كان تحولًا كاسحًا لمواقع التوطن إلى عمق المرتفعات والسهوب مع نشوء المئات من القرى الريفية الصغيرة في تلك الأقاليم التي كانت ضئيلة الكثافة السكانية في العصر البرونزي المتأخر وتحررًا لها من السيطرة المباشرة للبلدات الرئيسية. ما لبث الريف أن بات مرقطًا بالمئات من القرى الصغيرة غير المسورة المنبثقة بأكثريتها في القرن الثاني عشر قبل التاريخ الشائع، المنظمة وفق أنماط مختلفة حيث العديد منها فوق قمم التلال بالقرب من الأراضي الصالحة للزراعة. ليست عملية ظهور واستخدام المباني ذوات الأعمدة والصوامع والصهاريج والمدرجات والأشكال الخزفية البسيطة مثل الأواني ذوات الحواف المقلوبة إلا نتيجة الشروط التضاريسية والبيئية التي باتت تواجه أهالي المرتفعات وأماكن التوطن الهامشية. إن ما ينطوي على مقدار كبير من الأهمية أن مثل هذه الملامح المادية تشير أيضًا إلى أن الرد السكاني والتوطيني المتميز على حالة الاختلال والتمزق الحاصلة في نهاية العصر البرونزي المتأخر كان في

الغالب أصيلًا ونابعًا بدلًا من كونه في المقام الأول نتيجة أي تغييرات (إثنية) في المنطقة» [5].

الكثير من علماء الآثار التوراتيين، يميلون إلى القول بأن «مولد إسرائيل يرجع إلى موجة جديدة من الاستيطان في المرتفعات الوسطى في بلادنا فلسطين. إذ اكتشف الآثاريون بقايا عدد من القرى غير الحصينة يبلغ نحو مائة قرية من الأرض الجبلية شمالي أورشليم (القدس)، وقالوا إنها ترجع إلى عام 1200 ق.م تقريبًا. وكانت تلك الأراضي القاحلة غير صالحة للزراعة حتى ذلك الوقت، ولكن بعض الأساليب التكنولوجية اكتشفت قبل ذلك التاريخ بقليل مما مكن الناس من الاستيطان فيها، وقد تمكن المستوطنون الجدد من العيش فيها عيش الكفاف بتربية الأغنام والماعز والأبقار، ولا توجد أدلة على أن المستوطنين كانوا أجانب، فالآثار الحضارية التي وجدت في هذه القرى لا تختلف عن آثار السهل الساحلي. وقد انتهى علماء الآثار من ذلك إلى أنه لا يكاد يكون من المؤكد أن المستوطنين كانوا من أبناء فلسطين الأصليين» [6].

يفهم آهلشتروم، «أن الدافع وراء التزايد في التوطن في المرتفعات قليلة السكان في القرنين الثالث عشر والثاني عشر قبل الميلاد، كان مدفوعًا بالرغبة في الهرب من الحروب والاضطرابات في تلك الفترة. ويلجأ إلى رسائل تل العمارنة ليبين أن من الممكن استقراء أن القلاقل الاجتماعية والمخاوف كانا من القوى الأولية التي دفعت حركة الجماعات السكانية من الاتجاهات كافة. إلا أن الأدلة عن القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد كانت كنعانية، مثلما كانت الثقافة المادية في النقب لفترة 1200 ق.م، وهذا واضح من أنماط البيوت والفخاريات. وتلخيصه للفترة على أنها تقدم استمرارية ثقافية ودينية ومادية تعود إلى مرحلة أواخر العصر البرونزي حتى العصر الحديدي الأول يتردد صداه في كتب لمكه وكوت ووايتلام (1987) وكوت (1991) وطومسون (1992)» [7].

لقد أقرت الأوساط البحثية الحديثة أن البينات والمعلومات الأثرية تؤكد أن التحول على صعيد التوطن لم يكن على نحو كبير إلا ردًا محليًا أصيلًا على الضغوط والمنغصات الحاصلة في نهاية العصر البرونزي المتأخر بدلًا من أن يكون نتيجة مجيء كيان (إثني) معين من خارج حدود فلسطين. وكما يلاحظ فنكلشتاين فإن «ما قيل من قبل يشير إشارة واضحة إلى أن الثقافة المادية لمواقع العصر الحديدي الأول في المرتفعات لا يجوز النظر إليها من زواية منطلقات (إثنية). فهذه الثقافة المادية تميل أكثر إلى عكس مفهوم الخلفية البيئية، الاقتصاد القائم على الاكتفاء الذاتي، والأطر الاجتماعية لهذه التجمعات من أهالي المرتفعات...» [8].

«إنَّ تزايد التوطن في المرتفعات هو النتيجة الأكثر وضوحًا لإعادة ترتيب المجتمع الفلسطيني، إلا أنه لا يمكن أن يوصف بدقة بأنه فريد أو أنه نتيجة لتسرب جماعة (إثنية) جديدة. وقد حدثت تحولات توطنية مشابهة في أماكن أخرى من شرقي المتوسط، وكانت جزءًا من دورة على مدى قرون من التطور والركود والانهيار والانبعاث والتجدد في تاريخ فلسطين» [(9)].

على أية حال، «إن التحول الاستيطاني الذي حصل في نهاية العصر البرونزي المتأخر وأوائل العصر الحديدي، كان رد فعل على خلل طرأ على الحياة الاقتصادية كان له أثر كبير في كل جوانب المجتمع الفلسطيني ومستوياته، ولم يكن نتيجة مباشرة لصراع طبقي أو غزو أو تغلغل خارجي».

لذا يصعب على الباحث التفريق بين ما يمكن نسبته إلى هذه أو تلك المجموعات البشرية التي سكنت فلسطين في أواخر الألف الثاني قبل الميلاد. فوجود هذا الصنف من الفخار أو ذاك في منطقة معينة لا يدل بالضرورة على سكنى هذه المنطقة من مجموعة إثنية مختلفة، ولكنها غالبًا ما تعني أن هذه المنطقة وقعت تحت تأثيرات خارجية سواء أكان عن طريق التجارة أو تنقل مجموعات حرفية، أدخلت هذه الصناعة أو أصبحت تقلدها. ويبالغ الأثريون والمؤرخون، ومنهم التوراتيون، بالحديث عن الهجرات في هذه المرحلة، ولا يركزون على التحولات الاجتماعية والاقتصادية التي عايشها وحمل لواءها سكان فلسطين الأصليون، فمن المحتمل أن يكون قد سكن فلسطين في القرون الثلاثة الأخيرة للألف الثالث قبل الميلاد مجموعات بشرية مختلفة بالإضافة إلى غالبية السكان الفلسطينيين، إلا أنَّ من الصعب جدًا التعرف على هذه المجموعات من المصادر التاريخية المتوافرة لدينا، وإنها لصعوبة أكبر وخطأ منهجي كبير محاولة نسب مادة حضارية لمجموعة بشرية دون غيرها، وبخاصة أنَّ انتشارها يغطي كامل الأرض الفلسطينية ويتعداها إلى مناطق أخرى في الشمال والشرق. وقد وقع في مثل هذا الخطأ المنهجي الكثيرون من الباحثين التوراتيين ونسبوا مجمل الحضارة المادية للعصر الحديدي المبكر إلى القبائل الإسرائيلية وأسموها «إسرائيل 1» اعتمادًا على النصوص التوراتية وما يمكن أن ينسجم معها من تفسيرات لنتائج المسوحات والتنقيبات الأثرية. وفي الحقيقة كانت غالبية مواقع العصر الحديدي الأول الرئيسية مأهولة بالسكان في المراحل البرونزية السابقة رغم وجود عدد من المواقع التي تم تأسيسها في العصر الحديدي لأول مرة.

واختلفت مخططات المواقع السابقة بعض الشيء مع أنه يظهر في بعض المواقع إعادة استعمال الأساسات التي بقيت من العصر البرونزي الأخير. وبشكل عام فقد كانت مباني العصر البرونزي المتوسط والأخير تخضع للتنظيم، بينما نجد مواقع العصر الحديدي الأول أقل عددًا وتنظيمًا ولا تتبع المدن مخططات متجانسة. وهناك بعض المواقع التي يحيط بها سور مزدوج -

عبارة عن جدارين متوازيين بينهما تجويف ويصل بينهما أحيانًا جدران عريضة - ظهرت في تل القدح وتل قصيلة وأشدود وتل الفول وتل الجزيري وتل بيت مرسيم وعراد وغيرها. ويتضمن العديد من هذه المواقع حصونًا دفاعية كتلك التي كشف عنها في تل الفول وتل القدح وخربة مشاش وتل القصبة وتل زورور. أما المباني العامة التي كشف عنها حتى الآن فمحدودة جدًا وأوضحها معبد تل قصيلة، وكذلك معبد بيسان (الطبقات الخامسة والسادسة) حيث لا يزال التأثير المصري واضحًا من خلال التفاصيل المعمارية والكتابات الهيروغليفية التي تتضمن تعيين رمسيس الثالث في بداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد لحاكم أو قائد عسكري اسمه رمسيس أوسر - خيبش ووجدت داخل المعبد مكتشفات دينية متنوعة بالأسلوبين المحلي والمصري وبعضها تقليد للصناعة المصرية.

تطورت البيوت السكنية في العصر الحديدي وأخذت طابعًا مميزًا طوال مراحل هذا العصر في كثير من المواقع، فقد تم الكشف عن أعداد كبيرة من البيوت التي تضم ساحة أقيم حولها مجموعة من الحجرات (2 - 4 حجرات) التي كثيرًا ما تتوسطها أعمدة تدعم السقف. تضم الباحة في العادة آبار جمع المياه ومرافق الطبخ والتخزين. وقد شيدت هذه البيوت من الحجارة أو الآجر الطيني أو كليهما، أما حُفر التخزين فهي غالبًا ما تكون مقصورة ومقطوعة في الأرض على شكل مجموعات وكأنها تخدم أغراضًا جماعية. وجدت مثل هذه المنازل في مختلف مناطق جنوبي بلاد الشام بما في ذلك مرج أبن عامر (تل المتسلم والعفولة) ووادي الأردن (تل القدح، تل السعيدية، وتل دير علا) وفي منطقة الجبال الغربية (تل الفارعة الشمالي، عين سمش، تل بيت مرسيم، تل بئر السبع، خربة مشاش، خربة الردانة، التل أو عي) ومنطقة الجبال الشرقية (سحاب، السماكية، طويلات، تل الخليفية).

نستنتج من هذا التوزيع صعوبة التعرّف، بل استحالته، على بناة هذه المنازل من الناحية الإثنية، مع العلم أن المنقبين الإسرائيليين والباحثين التوراتيين نسبوها إلى الإسرائيليين الأوائل «إسرائيلي 1» دون توافر أي برهان على ذلك. بنيت هذه الآراء على مفاهيم توراتية لا علاقة لها بالمصادر التاريخية أو بالشواهد الأثرية. على أية حال، إن تطور هذه البيوت «ليس مفاجئًا بل مستمدًا من العمارة الفلسطينية التي ترسخت في الألف الثاني قبل الميلاد وقبل ذلك. لم يقتصر استعمال هذا النوع من البيوت على السكن وإنما استعمل بعضها كمرافق صناعية كتلك التي عثر عليها في تل بيت مرسيم وتل السعيدية وسحاب، حيث وجد فيها أعداد كبيرة من ثقالات النسيج وأدوات أخرى مرتبطة بهذه الصناعة. انتقلت ادعاءات التوراتيين والأثريين الإسرائيليين من العمارة إلى المكتشفات جرة فخارية كبيرة الحجم تأخذ شكلًا شبه بيضوى ويلتف حولها بين العنق والكتف طوق ألصق بالإناء وعرف

بالمصادر الأجنبية بـ (Collared-rimjar). وقد أشير في دراسة أخرى إلى أن وجود هذه الجرار مرتبط بالإنتاج الزراعي لسكان فلسطين والأردن لفترة طويلة من الزمن، ولا يمكن أن تكون من اختراع مجموعة بشرية دون غيرها، وإنما تطورت هذه الجرة عن جرار أخرى مشابهة لها عرفت في العصرين البرونزي الوسيط والأخير، وقد وجدت بأعداد كبيرة وفي مناطق مختلفة من الأردن وفلسطين تخرج عن إطار الخارطة الجغرافية لسكان العصر الحديدي الأول التي رسمها التوراتيون ومن يسير في فلكهم. لقد تبين أيضًا في الدراسة المشار إليها أنه تم إنتاج هذا النوع من الجرار في مراكز صناعية رئيسية وكان لا بد من إنتاجها بمواصفات فنية محددة لتنسجم وحاجة الناس إليها، خاصة إذا علمنا أن أعدادًا كبيرة من هذه الأواني الفخارية متجانسة في الحجم والشكل والتصنيع. والغريب في الأمر أن جميع المواقع التي وجدت فيها مثل هذه الجرة ذات الطوق وصفت بأنها إسرائيلية قديمة (Early Israelite) وتكاد تكون في كثير من الحالات المؤشر الوحيد لهذا التعريف» [(10)].

وهكذا ما لبثت اللقى الأثرية الجديدة العائدة إلى العصرين البرونزي المتأخر والحديدي التي قادت إلى نقاشات شديدة، أن أفضت، خلال فترة تزيد قليلًا عن العقد، إلى انقلابات وتحولات مدهشة في فهمنا لهذه الفترة ذات الأهمية البالغة؛ «فالعديد من الباحثين ما عادوا ينظرون إلى تدمير المراكز الحضرية في فلسطين ونمو المئات من المواقع الريفية في المرتفعات والسهول بوصفها تأكيدًا لقيام إسرائيل بإخضاع فلسطين أو لهجرة بني إسرائيل إلى داخل المنطقة. فقد بات الآن مسلمًا به على نحو عام أنه كانت ثمة استمرارية ثقافية ذات شأن بين العصرين البرونزي المتأخر وأوائل العصر الحديدي، وأن المئات من المواقع الصغيرة في المرتفعات والأطراف كانت بأكثريتها محلية أصلية. يؤكد وليم دفر ومعه عدد كبير من علماء الآثار الآخرين أن أواني هذه المواقع تظهر استمرارية واضحة من العصر البرونزي المتأخر إلى العصر الحديدي. يقول دفر: «يجب التأكيد في ضوء علم الآثار اليوم أن ما يثير الدهشة، وعلى نحو متزايد مع تقدم البحوث، هو التواصل، لا التفاصل، على صعيد الثقافة المادية بين العصرين البرونزي المتأخر والحديدي الأول». وما يهم هنا هو عدم وجود أي قطيعة ثقافية بين العصر البرونزي المتأخر والعصر الحديدي» [(11)].

يتضح من ذلك، أن اللغز بالنسبة إلى الآثاريين هو في أنهم افترضوا أن إسرائيل قد سكنت مناطق معينة من البلاد (فلسطين)، ولذلك صار من الممكن تمييز الاحتلال الإسرائيلي. وحتى بعد أن اتضح أن نماذج خزفية ومعمارية معينة قد عُثر عليها في أجزاء متفرقة من فلسطين، أو في مناطق لا يشير الكتاب (التوراة) على أنها إسرائيلية، فقد استمر السعي للعثور على إسرائيل. «إن خطاب الدراسات التوراتية هو الذي شجع هذا السعي الأغشى

نحو ماض متخيَّل، وهو وضع تعزز من خلال الحاجات السياسية لدولة إسرائيل لأن تجد لنفسها مكانًا في الماضي. وعلى الرغم من أن الكم المتزايد من المعطيات الآثارية ونسب التوجهات التاريخية الاجتماعية إلى النصوص الكتابية قد بدد النموذج السائد، فقد ظلت له سطوته على تصورات الباحثين الغربيين والإسرائيليين ووعيهم بحيث إنه قد صمد بثبات في وجه التناقض المهيمن. وذلك هو أفضل التفسيرات لقوة خطاب الدراسات الكتابية في طمس التاريخ الفلسطيني وإعاقة أية تركيبة بديلة للماضي» [(12)].

أولًا: الاستقرار في القدس

1 - المرحلة الأولى من العصر الحديدي (نحو 1200 - 1000 ق.م) إن الصورة التقليدية (التوراتية) عن أورشليم [القدس] خلال العصر الحديدي الأول (1200 - 1000 ق.م). هي صورة مدينة صغيرة قوية التحصينات يسكنها اليبوسيون من أهلها الأصليين، وعاصمة لدولة - مدينة مستقلة. وقد استولى على المدينة في ما بعد الملك داود وجعلها عاصمة له. «ونظرًا لانعدام المصادر التاريخية المتعلقة بهذه الفترة من حياة أورشليم [القدس]، تقريبًا، فإن المصادر التوراتية قد استخدمت كمراجع تاريخية على الرغم من أن تأليفها يعود إلى مراحل متأخرة» [(13)].

لكن ما عُثر عليه بالواقع يحكي حكاية مختلفة. «عُثر على سلسلة من المصاطب بنيت فوق مبنى أكثر قِدمًا، كشفها كل من كينون وشيلوه، وكان على أرضيتها المكسوة بالجص حافة جرة كاملة، يعود تاريخها إلى العصر الحديدي الأول. ولم يُعثر على أي طبقات استيطانية في أي مكان آخر على التلة، ولا على أسوار مدينة أو مبان كبيرة. كان نظام المصاطب يتألف من (7) «درجات» على الأقل، تنزل على منحدر التلة ومرتبطة من جانبها الجنوبي بجدار صلب. المبني بكامله على ارتفاع (20م) على الأقل. وكانت معظم الدرجات صغيرة، باستثناء المصطبة الثالثة التي كانت كبيرة بما يكفي للبناء عليها. يمكن الزعم أن المباني الهامة المرتبطة بهذا النظام كانت قد أنشئت فوق التلة. كان تاريخ الحشوة والنظام، من حفريات كينون وشيلوه كليهما، يعود بها إلى العصر الحديدي الأول بشكل أكيد» [(14)].

«وهنا يجب التساؤل لماذا تم القيام بمثل هذه المهمة الكبيرة. فتحليل دقيق لرسوبات الصخور المستنتجة من تقارير الخرائط والتنقيبات يفترض جوابًا: وجود طرف صخري مرتفع، ويناسب أن يكون جدار الحماية الشمالي، وأخاديد متآكلة كبيرة في الصخر إلى الجنوب منها، يستلزم ملؤها للحصول على مساحة بناء محمية هناك. ما هو نوع البناء الذي يزين قمة الهضبة؟ في الأساس يمكن أن يكون أي شيء من مزرعة مبانيها إلى حرم مقدس. ومع

ذلك، إذا كانت نظرية الطرف الصخري مع الأخاديد المتآكلة إلى الجنوب منها صحيحة، إذن من المحتمل وجود تحصين لبعض الأنواع. لذلك، عوضًا عن البلدة لدينا معقل محصن صغير يحتاج إلى معالجة كبيرة من الجهد لبنائه. فهو لا يستطيع أن يستوعب أناسًا كثرًا، لكن بإمكانه أن يشرف على كل ما يحيط به. وإذا كان ذلك صحيحًا - لا يوجد أي جزء من المبنى الفعلي - فإنه سيكون لمبنى المحصن الوحيد في الهضبة الغربية للبلاد التي عرفت في عصر الحديد الأول.

وإذا ما كان هذا البناء قد بني بواسطة المزارعين المحليين، فإن قضية الإمبراطورية المصرية أو أي جماعة أخرى تبقى قضية مفتوحة. فعمارتها لا تقارن بالمساكن المصرية المعاصرة لها، ولا بالقرى المحلية. لذلك فإن نظام المصطبة يفترض عوامل مؤثرة أخرى، بالرغم من أن الفخار المرتبط بها يتألف بكامله من أواني وجدت عمومًا في القرى على بلد الهضبة» [(15)].

في هذا السياق، يقول زيدان كفافي: «تصمت النصوص المكتوبة خلال الفترة بين نحو 1200 و1000 قبل الميلاد عن الحديث حول القدس، وحتى الآثار المكتشفة فيها، هذا إن وجدت، لا تعطي الانطباع بوجود مدينة كبيرة. وعلى أية حال، فإن الحديث حول القدس في هذه الفترة لا يزال غير واضح بحاجة لمزيد من البحث» [(16)].

2 - المرحلة الثانية من العصر الحديدي (نحو 1000 - 900 ق.م) إن مسألة أورشليم [القُدسْ] في بداية فترة العصر الحديدي الثاني (القرنين 10 - 9 ق.م)، كانت مطروحة في معظم الكتب والمواد، ومعظمها يصور المدينة كبيرة جميلة، ذات تحصينات وقصور ومخازن، ومعبد رائع الصنعة.

وقفت السيدة كينون على ذروة هضبة أوفيل الضيقة، تنظر ذات اليمين وذات الشمال، وهي تفكر في طريقة للتوفيق بين الأخبار التوراتية بخصوص نشاطات داود الدفاعية والإنشائية في عاصمته، وبين واقع المدينة التي كشفت عن حدودها وحجمها وأبعادها. فمحرر سفر صموئيل الثاني يخبرنا أن داود قد حصن المدينة، وبنى لنفسه فيها قصرًا كبيرًا أشاده له بناؤون فينيقيون من صور، وأنه قد تزوج عددًا من النساء واتخذ لنفسه عددًا آخر من السراري، ولدنَ له بنين وبنات [(17)]. ولكن الدراسة الأثرية الميدانية لم تثبت للمنقبة كينون حصول أي تغيير على السور اليبوسي، أو وجود أثر لترميم أو إصلاح أو إضافة عليه خلال القرن العاشر. أما القصر الكبير الذي استجلب داود لبنائه خشبًا وبنائين من فينيقيا، فإن ذروة الهضبة التي يُفترض أنها كانت مزدحمة ببيوت العامة، لا تترك متسعًا لتشييد قصر مثله.

هنا، وبدلًا من أن تصرف كينون النظر نهائيًا عن كون أورشليم [القُدسْ] القرن العاشر هذه عاصمة لإمبراطورية موحدة كبيرة (كما هو متوقع من قبل عالم متحرر من سلطة الرواية التوراتية)، فقد راحت تسوق التعليلات الواهية،

وتقول بأن داود كان مشغولًا عن تحصين مدينته بالحروب الخارجية في المناطق البعيدة. أما عن قصره الكبير، فنقول إنه كان موجودًا في مكان ما على ذروة الهضبة، ولكنه لم يكن بالضخامة التي يوحي بها النص التوراتي. لأن بناء مثل هذا القصر الكبير كان يتطلب إزاحة عدد كبير من البيوت السكنية، لذا فقد قنع داود بقصر متواضع. وهذا ما دفع فيما بعد ابنه سليمان إلى ترك قصر أبيه وبناء قصر ملكي حقيقي خارج سور المدينة اليبوسية. ثم تختم كينون تعليلاتها الواهية بقولها: إن الوضع البائس للعاصمة من الناحية العمرانية يعزى إلى طموح داود لبناء مملكة واسعة، وانشغاله بالسياسة عن الإعمار. وتقول كينون في مكان آخر: «لم تكشف التنقيبات عن مخلفات مادية مهمة خارج أورشليم تعود إلى عصر داود. والسبب في ذلك راجع إلى أن داود لم يشتهر بتشييد الأبنية بسبب انشغاله بتوسيع مناطق نفوذه. فبعد أن جمع القبائل الإسرائيلية في مملكة موحدة، وأوجد قاعدة قوية له، قام بضم مساحات واسعة من المناطق المجاورة. فكانت إسرائيل في عهده تعادل بقية ممالك آسيا الغربية في قوتها ومساحتها» [(18)].

الأمر المُفاجئ والمُدهش - كما أشار إليه عالم آثار جامعة تلّ أبيب، ديفيد أوسّيشكين (David Ussishkin) - «أنَّ العمل الميداني هُناك وفي الأجزاء الأخرى من أورشليم الكتاب المُقدَّس أخفقت في تزويد دليل هامٍّ على أنَّ المدينة كانت آهلة بالسُّكَّان في القرن العاشر قبل الميلاد. هُناك فُقدان لأيِّ بناء معماري تذكاري، وليس هذا فحَسْب، بل وكذلك لم تُوجد آثار حتَّى لأيّ قطع فخَّاريَّة بسيطة. إنَّ أنماط الآثار المُميَّزة جدًا للقرن العاشر في المواقع الأخرى، نادرة الوجود في أورشليم [القُدسْ]. بعض العُلماء جادلوا بأنْ لاحقًا أزالت نشاطات البناء المُكثَّفة عن آثار هامَّة تعود إلى العصر البرونزي وللقُرون المُتأخِّرة من العصر الحديدي، ولكن؛ لا آثار تعود إلى القرن العاشر قبل الميلاد.. أكثر التّقييمات تفاؤلًا لهذا الفُقدان لأيِّ دليل عن آثار تعود إلى القرن العاشر هُو أنَّ أورشليم [القُدسْ] لم تكن في تلك الفترة أكثر من مُجرَّد قرية مُرتفعات نَمَطيَّة صغيرة» [(19)].

في هذا السياق، تقول عالمة الآثار شتاينر: «لم يتم الوصول إلى اتفاق بعد على تأريخ للأواني الفخارية من هذه الفترة. فالأواني الفخارية والمباني التي نُسبت عمومًا إلى القرن العاشر قبل الميلاد (وبهذا تكون نُسبت لفترة المَلَــكية المتحدة بحسب النصوص التوراتية)، يمكن بسهولة أن يعود تاريخها إلى القرن التاسع قبل الميلاد، والأواني الفخارية التي عُثر عليها في القدس ليست مفيدة جدًا في هذا المجال، لأنها في معظمها من الحشوات. وبقية الأواني الفخارية ذات الطبقات الحمراء التي يعتبرها هوليداي نمطية لعهدي داود وسليمان، بالكاد تكون موجودة في القدس.

عُثر على عدة مبان عامة من القرنين العاشر والتاسع قبل الميلاد. والمبنى الأكثر بروزًا فيها هو (المبنى الحجري المدرج/Stepped Stone Strucutre). لقد كان مكلستر قد اكتشف بعض عناصره وسماها (منحدر يبوس/Jebusite Ramp). وعثرت كنيون وشيلوه على أجزاء أخرى، وهي تتألف من غطاء من الحجارة وبعض المصاطب المجاورة الممدودة فوق المباني الموجودة سابقًا والأنقاض على منحدر التلة. من المؤكد في الأصل أنها كانت بارتفاع (27م) وعرض (40م) في الأعلى، ما يجعلها المبنى الأكثر ضخامة والأكثر إثارة من نوعه على الاطلاق. ويتصل بهذا المبنى الدفاعي جدار معقل يسير نحو الشمال اكتشفت منه كينون جزءًا جدًا فوق التلة.

عثرت كينون على عناصر بناء من النوع الذي يستخدم عادة للمباني العامة؛ مثل عدد من الحجارة المنحوتة ورأس عمود كبير من طراز ما قبل الأيولي (Proto-aeolic)، في أنقاض دمار قرب المبنى الحجري المدرج، بينما عُثر على قطعة من جدار من هذه الحجارة المنحوتة في موقع كينون (SII) إلى الشمال من ذلك. وقد جاءت بعض الأغراض الدالة على الترف من حفريات شيلوه، قبضة برونزية قد تكون تمثال إله (بعل؟)، وجزء من حامل آنية فخارية كبيرة عليه صورة رجل ملتح. تدل هذه اللقى على وجود أسوار دفاعية وتحصينات ومبان عامة وربما حتى معبد لـ«بعل؟» في المستقرة. وما هو غير موجود في السجل الأثري هو البيوت. ومقارنة مع اللقى من العصر البرونزي الوسيط والقرن السابع قبل الميلاد، فإن الفرق مذهل. في تلك الفترات تم بناء سور مدينة نزولًا نحو منحدر التلة لحماية الحي السكني هناك. ويظهر أن قمة التلة لم تقدم مكانًا كافيًا لسكان المدينة فاضطروا لاستخدام المنحدر. ولكن لم يكن الأمر كذلك في القرن العاشر قبل الميلاد. في ذلك الوقت كان المنحدر مغطى جزئيًا بالمبنى الحجري المدرج، لكن لم يتم اكتشاف أبدًا أي سور مدينة نزولًا نحو المنحدر ولا أي بيوت. يبدو أن منطقة البناء كانت مقتصرة على قمة التلة. كما يبدو أن المدينة كانت محصنة (إذا كان الأمر كذلك) بأسوار على طول هذه القمة. من الممكن أن جدار المعقل هذا، المذكور أعلاه، كان يقوم بمهمة ربط هذه المنطقة المكتضة بالمباني بحي آخر يبتعد شمالًا. وأظهرت الحفريات في المنطقة بين تلة المعبد في الشمال و«مدينة داود» القديمة في الجنوب أن المباني الأكثر قدمًا هناك يعود تاريخها إلى القرن التاسع قبل الميلاد» [(20)].

استنادًا إلى الدلائل الأثرية، تخلص عالمة الآثار شتاينر، إلى أن «أورشليم كانت خلال القرن العاشر والقرن التاسع قبل الميلاد بلدة متواضعة تشغلها بصورة رئيسية الأبنية الإدارية، أما مساحتها فلم تزد عن 30 أكرًا [12 هكتارًا]، ولم يسكن فيها أكثر من 2000 نسمة. أي أنه في زمن ما من القرن العاشر والتاسع قبل الميلاد جرى تشييد بلدة جديدة تحتوى على أبنية عامة ولكن من

دون منطقة سكنية واسعة. ونحن هنا نصف هذه البلدة بالجديدة لأن بلدة عصر البرونز الوسيط لم تكن قائمة خلال عصر البرونز الأخير وعصر الحديد الأول.... ومن المستبعد أن هذه البلدة كانت عاصمة لدولة كبرى كتلك الموصوفة في النص التوراتي، مملكة إسرائيل الموحدة» [(21)].

3 - المرحلة الثالثة من العصر الحديدي (نحو 920 - 586 ق.م) في الحقبة الثالثة من العصر الحديدي، تبدو الصورة أكثر وضوحًا للمدينة. بين القرنين التاسع والسادس قبل الميلاد، «تحولت القدس من مدينة إدارية إلى مركز حضري حقيقي وتوسع حجمها من اثني عشر هكتارًا إلى نحو خمسين هكتارًا. في النصف الثاني من القرن التاسع سار هذا التوسع ببطء. امتلأ المكان الخالي على تلة أوفل بمبان إدارية أو «رسمية»، ونشأ حي مدني لصغار الحرفيين والتجار على السفح الشرقي للتلة الجنوبية الشرقية، فوق نبع جيحون. وجد أفيغاد آثارًا لاستيطان على التلة الغربية أيضًا» [(22)].

في هذا الصدد، تقول عالمة الآثار الهولندية، مارغريت شتاينر، عن تطور المدينة: «في القرون الثلاثة الأخيرة من الفترة الثانية من العصر الحديدي، أظهرت القدس تطورًا واضحًا في حجمها وتنوعها الاقتصادي. وبدءًا من نهاية القرن الثامن قبل الميلاد تمّ بناء أسوار مدينة جديدة، ليس على التلة الجنوبية الشرقية فحسب، بل على التلة الغربية أيضًا. لقد كشفت حفريات أفيغاد (65 مترًا) من سور «ذي مداميك من حجارة مربعة غير منتظمة» عرضه نحو سبعة أمتار. ومع أنه لم يكن بالإمكان تتبع مسار سور المدينة الجديدة هذه، فقد قدّرنا أنها أحاطت بمنطقة تبلغ مساحتها نحو خمسين هكتارًا على الأكثر، مع أن الحجم الدقيق والحدود لا تزال موضع جدل. وقد كانت القدس المدينة الأكبر كثيرًا من أي مدينة أخرى في المنطقة.

يبدو أن توسع المدينة في القرن السابع قبل الميلاد كان في معظمة نتيجة بناء المناطق السكنية، وليس المباني العامة الضخمة. على التلة الجنوبية الشرقية، وهي المنطقة الوحيدة التي توافرت فيها المعلومات عن طبيعة الاستيطان داخل أسوار المدينة، لم يعد المبنى الحجري المتدرج الضخم يستخدم، وبالتالي لم يقم إلا بمهمة البنية التحتية للبيوت. والمبنى الأكبر على التلة هو المسمى «مبنى الحجارة المنحونة» (Ashlar House) الذي كشفه شيلوه وفسره، بسبب حجمه (12 × 13م) وتقنية بنائه المصقول بحجارة منحوتة، على أنه مبنى عام. لكن المبنيين(VI وVII) اللذين كشفتهما كينون أمكن أن يصلا إلى الأحجام المشابهة بسهولة، ومع ذلك لم تكن لها مهمة عامة، إذا كنت قد فسرت اللقى التي عُثر عليها في هذه البيوت تفسيرًا صحيحًا. وكما كان الأمر على التلة الجنوبية الشرقية، لم يُعثر على مبان ضخمة من هذه الفترة في أي مكان على التلة الغربية، باستثناء أسوار المدينة

الموصوفة أعلاه. لقد كشفت الحفريات على التلة الجنوبية الشرقية استيطانًا أقل كثافة تدريجيًا لمنطقة المدينة هناك» [23].

«كانت مساحة القدس وقتذاك نحو (50 هكتارًا)، لكن حجمها وحدودها بدقة لا يزالان موضع جدال، ومن الممكن أنها كانت تتسع لسكنى عشرة آلاف نسمة. لقد كانت محصنة بأسوار ساترة عرضها من (5 - 7) أمتار، وكانت جميعها قد بنيت في نهاية القرن الثامن قبل الميلاد. والمنطقة داخل أسوار المدينة شغلتها، على التلة الجنوبية الشرقية على الأقل، وحدات سكنية فقط. ولم تكشف أي من الحفريات الكثيرة التي جرت هنا أو في أجزاء أخرى من القدس بقايا لمبان عامة كانت أعيد بناؤها خلال القرن السابع قبل الميلاد. كانت الأشياء التي تم كشفها بيوتًا تخص ما يمكن تسميته بنخبة القدس: الحرفيين والتجار الأغنياء. لقد تم بناء حي سكني فوق المبني الحجري المدرج وكان سور المدينة الجديد قد تولى مهمته الدفاعية. لقد أتاحت الشوارع بعرض مترين، والتي تتقاطع بزاويا قائمة، الوصول إلى البيوت ذات الطابق أو الطابقين.

وفي أحد البيوت الذي كشفته كينون، اكتشفت مشغـلًا للأعمال البرونزية فيه أدوات حجرية وقطع من البرونز والحديد وكثير من الأوزان الحجرية. قدم «بيت الأختام» المشهور (51 ختمًا): بقايا لسجل محفوظات. وفسر شيلوه هذا بسجل دولة، لكن الأختام عُثر عليها مع أوان فخارية منزلية مكسرة (أواني طبخ) وبعض الأغراض الصغيرة الأخرى التي تدل على حياة عائلية: سكين من حديد وأقراط للأذنين من البرونز ويد هاون حجرية. لذلك فأن تفسر هذه الأغراض بالسجل الخاص يبدو أكثر معقولية. وعلى أحد الشوارع تم كشف أكثر من مئة ثقل نول تدل على نحو أكيد على أعمال الحياكة التجارية. وفي الجزء الجنوبي من التلة الجنوبية الشرقية كشف شيلوه ضاحية أخرى يهيمن عليها بناء ضخم أطلق عليه اسم «بيت الحجارة المنحوتة» (Ashlar House) فسره من كَشفه بمبنى عام من نوع ما، لكنه قد يكون بيتًا خاصًا لأنه لم يكن أكبر من البيوت الخاصة وكان يقع نحو الشمال. واكتشفت كينون ثلاث قطع فخارية تحت أرضيات الشارع المحاذي لمشغل البرونز، وكانت من طبيعة إدارية، وذكرت جرار حبوب وزيت الزيتون، وكلاهما من منتجات التصدير الهامة.

بضائع الترف كانت تستورد. فقد كشفت الحفريات في المدينة وحولها المستوردات التالية: أثاثًا خشبيًا من شمال سورية، عاج فيل من سورية أو بلاد ما بين النهرين، أصدافًا للزينة من البحر الأحمر وجرار نبيذ من اليونان أو قبرص، لكن البرونز من المؤكد أنه كان إما من قبرص أو من شرق الأردن. وعُثر على ثلاثة أسماء بخط المسند محفورة على أوان فخارية محلية من يهوذا، وهذا قد يعطي الدليل على وجود تجار أجانب» [24].

(1) توماس طومسون، الماضي الخرافي (التوراة والتاريخ)، ترجمة عدنان حسن ووزياد منى، ط 2 (دمشق: قدمس للنشر والتوزيع، 2003)، ص 255 - 256.
(2) إسرائيل فنكلشتاين ونيل أشر سيلبرمان، التوراة مكشوفة على حقيقتها، ترجمة سعد رستم (دمشق: الأوائل للنشر والتوزيع، 2005)، ص 128.
(3) كيث وايتلام، «إعادة اكتشاف فلسطين،» في: كيث وايتلام [وآخرون]، الجديد في تاريخ فلسطين القديمة، ترجمة عدنان حسن وزياد مني (دمشق: قدمس للنشر والتوزيع، 2004)، ص 32.
(4) توماس طومسون، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ترجمة صالح علي سوداح (بيروت: دار بيسان للنشر والتوزيع، 1995)، ص 151 - 152.
(5) وايتلام، «إعادة اكتشاف فلسطين،» ص 34.
(6) كارين أرمسترونج، القدس مدينة واحدة ثلاث عقائد، ترجمة فاطمة نصر ومحمد عناني، كتاب سطور؛ 4 (القاهرة: سطور، 1998)، ص 55.
(7) كيث وايتلام، تلفيق إسرائيل التوراتية طمس التاريخ الفلسطيني، ترجمة ممدوح عدوان، ط 2 (دمشق: قدمس للنشر والتوزيع، 2002)، ص 287.
(8) وايتلام، «إعادة اكتشاف فلسطين،» ص 35.
(9) وايتلام، تلفيق إسرائيل التوراتية طمس التاريخ الفلسطيني، ص 312.
(10) معاوية إبراهيم، «فلسطين: من أقدم العصور إلى القرن الرابع قبل الميلاد،» في: الموسوعة الفلسطينية، ألفها نخبة من العلماء (بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية، 1990)، ص 114 - 115.
(11) وايتلام، «إعادة اكتشاف فلسطين،» ص 35 - 36.
(12) وايتلام، تلفيق إسرائيل التوراتية طمس التاريخ الفلسطيني، ص 274.
(13) مارغريت شتاينر، «حدود متوسعة: تطور أورشليم في عصر الحديد،» في: توماس ل. تومبسون وسلمى الخضراء الجيوسي، محرران، القدس: أورشليم العصور القديمة بين التوراة والتاريخ، ترجمة فراس السواح (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2003)، الفصل الثالث، ص 110.
(14) مارغريت شتاينر، القدس في العصر الحديدي (1300 - 700 ق.م)، ترجمة رزق الله بطرس وزياد منى (دمشق: قدمس للنشر والتوزيع، 2006)، ص 153.
(15) مارغريت شتاينر، «القدس في العصر البرونزي والحديدي (الدليل الآثاري)،» مهد الحضارات (دمشق)، عدد خاص بالقدس (2009 - 2010)، ص 60.
(16) زيدان كفافي، «القدس في العصرين البرونزي والحديدي الأسفار التوراتية مقابل النصوص التاريخية والآثار،» مهد الحضارات، عدد خاص بالقدس (2009 - 2010)، ص 60.
(17) الكتاب المقدس، «سفر صموئيل الثاني،» الأصحاح 5، الآيات 6 و11 - 13
(18) فراس السواح، تاريخ أورشليم والبحث عن مملكة اليهود، ط 3 (دمشق: دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، 2003)، ص 56 - 57.
(19) فنكلشتاين وسيلبرمان، التوراة مكشوفة على حقيقتها، ص 178.
(20) شتاينر، القدس في العصر الحديدي (1300 - 700 ق.م)، ص 153 - 154.
(21) شتاينر، «حدود متوسعة: تطور أورشليم في عصر الحديد،» ص 115 - 116.
(22) شتاينر، القدس في العصر الحديدي (1300 - 700 ق.م)، ص 85.
(23) المصدر نفسه، ص 147.
(24) المصدر نفسه، ص 155.

الفصل التاسع
مـمـلـكـة عـلـى الـــورق

لما كان داود وسليمان التوراة يشكلان مرتكزًا وأساسًا للمزاعم الصهيونية، ولما كان يُنظر إليهما، كما هو الحال، كجدٍ للصهيونية المعاصرة، فيجب أن نوضح أن جهود الباحثين التوراتيين في البحث عن المملكة الداودية - السليمانية ليست ذات أهمية تاريخية وأثرية فقط، إذا ما أخذنا في الاعتبار أن دولة إسرائيل الحديثة ترجع مطالبتها التاريخية والطبيعية إلى دولة العصر الحديدي تلك. فقد أشار إعلان الاستقلال لدولة إسرائيل الحديثة الذي أصدره مجلس الأمة المؤقت في تل أبيب في 14/5/1948؛ أشار إلى «إعادة بناء الدولة اليهودية» (Re-establishment of the Jewish State)، وما هذا التعبير إلا صياغة لوعد بلفور الذي أعلن قبل واحد وثلاثين عامًا من إنشاء الدولة، ذلك الوعد الذي تحدث عن «إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين».

إن الباحثين التوراتيين وكذلك علماء الآثار قد بحثوا عن دولة كبرى في العصر الحديدي، قوية وذات سيادة مستقلة ومؤسسها داود وابنه سليمان وتصورا أن هذه المملكة قد وجدت بالفعل. وقد هيمنت تلك «الحقيقة» المزعومة على خطاب الدراسات التوراتية خلال معظم القرن الحالي، وأتاحت مجالًا لتطوير كثير من فرضيات التراث التوراتي، وهذه «الحقيقة» المزعومة أسهمت أكثر من أي شيء آخر في إهمال وتحقير الشعب الفلسطيني وثقافته، مع إغفال التاريخ الذي بقي آلافًا من السنين لفلسطين، ذلك التاريخ الذي تعامى عنه علماء الآثار بالمعنى الحرفي لكلمة التعامي.

في ذلك يقول لورنس دفدسن، في دراسته القيمة «الأثريات الكتابية والصحافة: صياغة التصورات الأمريكية لفلسطين في العقد الأول من الانتداب»: «إن علم الآثار في فلسطين، شدد على مواقع العهد القديم. إن العهد القديم، وبالتالي التاريخ اليهودي القديم في فلسطين (كما هو مصور في التوراة) هو الذي سعى اللاهوتيون إلى إثبات صحته. وحتى أولئك المسيحيون، الذين اعتبروا فلسطين وطنًا ليسوع، كانوا سيجدون أنفسهم، جراء اتباعهم تغطية علم الآثار في فلسطين، أنه قد تمّت إعادة توجيههم نحو في فلسطين الملكين داود وسليمان، وخلفائهم ما قبل المسيحية، رغم بقائها ذات أهمية دينية. ففيما سعى الصهاينة ماديًا إلى تحويل فلسطين إلى وطن قومي يهودي، ساهم عمل علماء الآثار في تحويل فلسطين، على الصعيد النفسي، إلى أرض يهودية» [(1)].

من القضايا المهمة التي تشير إلى مغالطات المؤرخين وتبنيهم وجهة نظر التوراة، وأحيانًا كثيرة المغالاة فيها موضوع «المملكة الداودية - السليمانية»،

فمعظم الذين كتبوا في هذا الموضوع من الباحثين التوراتيين والغربيين وساندهم في ذلك أصحاب وحراس الفكر الآسن من الأكاديميين العرب، أشاروا إلى أن هذه المملكة، التي عادة ما تُرْبَطُ بالفترة (960 - 930 ق.م)، كانت أعظم إمبراطوريات المشرق العربي، وأن حدودها امتدت لتغطي كل بلاد الشام، ولم تقتصر على فلسطين فحسب. وبالرغم من أن التوراة لا تكل عن مديح عصر داود وسليمان واعتباره العصر الذهبي الإسرائيلي، والإشادة بما يقال عن إنجازات عصرهما الثقافية والعمرانية والإدارية، فمن الطبيعي أن نتوقع العثور على أثر واحد على الأقل يعود إلى تلك المرحلة، عمرانيًا كان أم توثيقيًا أو نقشًا، أو ما إلى ذلك. لكن في الحقيقة، حتى هذه اللحظة، لم يتمكن الآثاريون من العثور على أي دليل يشير، صراحة أو كناية، على المملكة الداودية - السليمانية في فلسطين.

إن مصدرنا الوحيد عن أعمال داود وسليمان وعن دورهما السياسي والعمراني هو التوراة، والتوراة وحدها، إذ لم يعثر المنقبون على أي أثر من هذا الدور. فلا توجد مصادر تاريخية تدعم السجل التوراتي، كما لا تسهم المخلفات الأثرية في إيضاح ذلك. لا شك في أن للباحث أن يطرح تساؤلات في حالة انعدام الوثائق والبيانات، فالمملكة الدوادية - السليمانية المزعومة التي تأسست مع نهاية الألف الثاني قبل الميلاد في فلسطين، كما يزعم بعض الباحثين الغربيين ومن يواليهم من أصحاب الفكر الآسن في جامعتنا ومراكز أبحاثنا، لا بد أن تكون قد سبقتها مدة طويلة وأن يكون تأسيسها قد تمخض عن صراع محتدم بين دويلات المدن آنذاك، فأين هي مقدمات تأسيس المملكة الدوادية - السليمانية؟!

إذا كان علماء الآثار يبحثون عن أرشيف تاريخي للمرحلة السابقة لممالك داود وسليمان، فإنهم لم يعثروا على ذلك في فلسطين، علمًا بأن الدول المجاورة قد قدمت أرشيفًا تاريخيًا للمرحلة نفسها.

يعلن أمنون بن ثور، عالم الآثار في الجامعة العبرية، «أن المسألة تشبه نقطة زيت تسقط فجأة قد تجدها في كل مكان إلا هنا» [(2)].

ففي السنوات الأخيرة، بدأ الإجماع على فكرة وجود المملكة الدوادية - السليمانية يتداعى تدريجيًا، «فقد أصدر ليتش نقدًا معتدلًا في حدته للاستخدام التاريخي للقصص التوراتية من منظور (أنثروبولوجي) بنيوي. والموضوع السائد في كتابه هو أن الكتاب العبري بوصفه نصًا مقدسًا لا يوفر مصدرًا تاريخيًا ولا يعكس بالضرورة حقيقة عن الماضي. إنه يمثل عند «ليتش» تبريرًا للماضي يكشف عن عالم القصّاصين أكثر مما يكشف عن أية حقيقة تاريخية؛ ويطرح أسئلة مهمة جدًا تثير شكوكًا حول التقديمات السائدة لحكمي داود وسليمان، وتُسائل تاريخية هذه المرحلة الهامة كما قُدمت في الموروثات الكتابية؛ أنا شخصيًا أرى ذلك غير قابل للتصديق. ليس هناك أي دليل أثري

على وجود هذين البطلين أو على وقوع أي من الأحداث التي ارتبطت بهما. ولولا قداسة هذه القصص لكان وجودهما التاريخي مرفوضًا بالتأكيد» [3].

مما قاله العالم روني ريك في هذا الصدد: «آسف أن السيد داود والسيد سليمان لم يظهرا في هذه القصة» [4].

«إن السمة الأكثر إدهاشًا في الخطاب [الكتابي] هي الصمت المطبق للسجل الآثاري حول ما يتعلق باللحظة التعريفية [فترة سليمان وداود] في تاريخ المنطقة. إنه الصمت الذي ساهم بشكل أساسي القوى ضمن مشروع، وتحديدًا بسبب أنه أكد تحامل المؤرخين الكتابيين الذين قرروا أن كتابة التاريخ تعتمد على المصادر المكتوبة، كما صرح غاريبيي وليتش وفلاناغان، أن صمت السجل الآثاري هو الذي يطرح أكثر الأسئلة جدية حول تقديم إمبراطورية إسرائيلية بوصفها تعبيرًا عن ثقافة حضارة نهضوية ويوحي بأننا نتعامل مع ماضٍ مخترع» [5].

يشير مِلَّر، إلى أنه «ليس هناك دليل على المملكة الداودية - السليمانية خارج التقاليد والموروثات الكتابية، المؤرخون الذين يتحدثون عن هذا الكيان إنما يفترضون مسبقًا صحة المعلومات التي يأخذونها من الكتاب العبري» [6].

يقول زئيف هيرزوغ، عالم الآثار «الإسرائيلي»، «لقد جرت أعمال تنقيب في مناطق واسعة من المدينة [القدس] على امتداد المائة والخمسين سنة الماضية، وقد أظهرت هذه التنقيبات بقايا مهمة من المدن التي تعود إلى عصر البرونز الوسيط وعصر الحديد الثاني، إلا أنه لم تكتشف أي آثار لبناء يعود إلى فترة المملكة المتحدة باستثناء شظايا فخارية قليلة... ومن الواضح أن أورشليم في زمن داود وسليمان لم تكن إلا مدينة صغيرة، وربما قلعة صغيرة لملك، وفي كل الأحوال لم تكن قط عاصمة لإمبراطورية كما يصفها «الكتاب»... وهكذا فإن المملكة المتحدة العظيمة ليست إلا اختلاق حذلقة تاريخية» [7].

شكك عالم الآثار «الإسرائيلي» يسرائيل فنكلشتاين، من جامعة تل أبيب بوجود أي صلة لليهود بالقدس، جاء ذلك خلال تقرير نشرته مجلة **جيروساليم ريبورت** «الإسرائيلية» توضح فيه وجهة نظر فنكلشتاين، الذي أكد أنه «لا يوجد أساس أو شاهد إثبات تاريخي على وجود داود، هذا الملك المحارب الذي اتخذ القدس عاصمة له والذي سيأتي (الميا) من صلبه للإشراف على بناء الهيكل الثالث، مؤكدًا أن شخصية داود كزعيم يحظى بتكريم كبير لأنه وحّد مملكتي يهودا وإسرائيل هو مجرد وهْم وخيال لم يكن لها وجود حقيقي. كما يؤكد فنكلشتاين أن وجود باني الهيكل وهو سليمان بن داود مشكوك فيه أيضًا» [8].

يقول العلّامة طومسون في كتابه **الماضي الخرافي (التوراة والتاريخ)**: «جرى تقديم [القرن العاشر ق.م] بوصفه العصر الذهبي لإسرائيل وعاصمتها في أورشليم. كانت تلك الحقبة مرتبطة بالمملكة المتحدة التي تضم السلطة السياسية لشاول وداود وسليمان وتسيطر على الجسر البري الضخم من النيل إلى الفرات. إضافة إلى مفهومها عن الهيكل الذي بناه سليمان بوصفه مركزًا لعبادة يهوه. تلك الصور لا مكان لها في أوصاف الماضي التاريخي الحقيقي. إننا نعرفها فقط كقصة، وما نعرفه حول هذه القصص لا يشجعنا على معاملتها كما لو أنها تاريخية، أو أنه كان يقصد منها أن تكون كذلك. ولا يتوافر دليل على وجود مملكة متحدة، ولا دليل على وجود عاصمة في أورشليم، أو وجود أي قوة سياسية موحدة متماسكة، هيمنت على فلسطين الغربية، ناهيك عن إمبراطورية بالحجم الذي تصفه الحكايات الأسطورية. ولا يتوافر أي دليل على وجود ملوك يدعون شاول أو داود أو سليمان؛ ولا نملك دليلًا على وجود هيكل في أورشليم في هذه الفترة المبكرة. ما نعرفه عن إسرائيل ويهوذا القرن العاشر لا يسمح لنا بتفسير انعدام الدليل هذا بوصفه فجوة في معرفتنا ومعلوماتنا حول الماضي، أو مجرد نتيجة للطبيعة العرضية للآثاريات. ما من متسع ولا سياق، لا شيء مصطنع أو أرشيف يشير إلى مثل هذه الحقائق التاريخية في القرن العاشر في فلسطين. لا يمكن للمرء أن يتكلم على دولة بلا سكان. ولا يمكنه أن يتكلم عن عاصمة من دون بلدة. والقصص ليست كافية» [(9)].

إذن «لا يوجد متسع لمملكة متحدة تاريخية أو لملوك كأولئك الذين جرى تقديمهم في القصص الكتابية لشاول وداود وسليمان. إن الحقبة المبكرة التي تؤطر فيها التراثات حكاياتها هي عالم خيالي من زمن غابر لم يوجد على هذا النحو أبدًا... لم يكن من الممكن أن توجد مملكة لأي شاول أو لأي داود ليكون ملكًا عليها، ببساطة لأنه لم يكن ثمة ما يكفي من الناس. دولة يهوذا لم تكن فقط غير موجودة بعد، بل إننا لا نملك أي دليل على وجود أي قوة سياسية في أي مكان في فلسطين كانت كبيرة بما يكفي، أو متطورة بما يكفي لأن تكون قادرة على توحيد الاقتصادات والأقاليم العديدة لهذه البلاد. في هذا الوقت كانت فلسطين أقل توحدًا بكثير مما كانت عليه لأكثر من ألف عام. ويكاد الحديث أن يكون غير ممكن تاريخيًا عن أورشليم القرن العاشر. فلو وجدت إطلاقًا، ولم تعثر سنوات من التنقيب على أي أثر لبلدة من القرن العاشر، لكانت ما تزال تبعد قرونًا عن امتلاك المقدرة على تحدي أي من (العشرينيات) أو أكثر، من بلدات فلسطين القوية المتمتعة بالحكم الذاتي» [(10)].

إن الصورة التقليدية التي تقدمها أسفار العهد القديم عن أورشليم مطلع العصر الحديدي الأول، مدينة داود وسليمان، هي صورة مدينة كبيرة جميلة، ذات تحصينات وقصور ومخازن، ومعبد رائع الصنعة. «وفي المقابل، فإن

مؤلفات صدرت حديثًا لطومسون، وديفيد جاميسون درايك، ترى أن أورشليم القرن العاشر قبل الميلاد، «لم تكن أكثر من بلدة صغيرة لعبت دور السوق المحلية للمنطقة. إن البقايا الأثرية التي اكتُشفت حتى الآن لتدل على أن أورشليم كانت خلال القرن العاشر والقرن التاسع قبل الميلاد بلدة متواضعة تشغلها بصورة رئيسية الأبنية الإدارية، أما مساحتها فلم تزد عن 30 أكرًا، ولم يسكن فيها أكثر من 2000 نسمة. أي أنه في زمن ما من القرنين العاشر والتاسع قبل الميلاد جرى تشييد بلدة جديدة تحتوى على أبنية عامة ولكن من دون منطقة سكنية واسعة. ونحن هنا نصف هذه البلدة بالجديدة، لأن بلدة عصر البرونز الوسيط لم تكن قائمة خلال عصر البرونز الأخير وعصر الحديد الأول. ومن المستبعد أن هذه البلدة كانت عاصمة لدولة كبرى كتلك الموصوفة في النص التوراتي، مملكة إسرائيل الموحدة» [(11)].

يقول فنكلشتاين وسيلبرمان: «وكما رأينا، فإنه لا وجود لشواهد أركيولوجية مقنعة على وجود مملكة تاريخية موحدة اشتملت على جميع أراضي إسرائيل [فلسطين]، وكانت عاصمتها في أورشليم» [(12)].

لقد انزعجت مجلة *bar* من هذا الاتجاه لأنها متخصصة في الدعاية لإسرائيل، وبخاصة في مجال الحفريات، فـ «جمعت العلماء من الاتجاهين المختلفين، حيث كان يمثل مدرسة كوبنهاغن شيفلد الأستاذان: طومسون، وليتش، وكلاهما من جامعة كوبنهاجن. وكان يمثل الطرف الثاني: الأستاذ وليم ديور، من جامعة أريزونا، وهو يعتبر ذا شهرة عالمية في مجال دراسة الآثار في فلسطين. والأستاذ كائل ميك آرثر، من جامعة جون هوبكنز. ونشرت المناقشات التي دارت بين الفريقين على صفحات مجلة *bar* نفسها في يوليو/ أغسطس 1997. لقد نفى طومسون، أن تكون يوروشليم عاصمة للمملكة الموحدة في القرن العاشر قبل الميلاد. ولقد ذكر الباحث الإسرائيلي أسيكشن، ووافق عليه فينكلشتاين أيضًا بأنه لا يوجد في الحفريات البقايا من الأواني الفخارية من القرن العاشر قبل الميلاد، أي من عصر داود وسليمان، ولذلك استنتج ليتش، أن داود الملك المذكور في العهد القديم لا يمكن إثباته تاريخيًا. قال ديور في مناقشته: لم لا تقول إنه من الممكن أن يكون، ومن الممكن كذلك أن لا يكون؟ قال ليتش ردًا عليه: لأن العهد القديم يصوره إمبراطورًا، كان يحكم من الفرات إلى النيل، وقد أضاف سليمان إلى هذه الإمبراطورية مساحات أخرى، لذلك لا يمكن أن يكون داود شخصية تاريخية. ووافق ديور نفسه على هذا القول، واتفق مع ليتش، بأنه لا يوجد داود وسليمان بهذا المفهوم» [(13)].

في استعراض غابرييل باركاي (Gabriel Barkay) لآثار فترة العصر الحديدي الثاني يتوصل إلى الاستنتاج الذي يقول: «إن التحديد الدقيق لتاريخ طبقات

التوطين ومجموعات اللقى العائدة للقرنين العاشر والتاسع قبل التاريخ الشائع محفوف بالمصاعب». كما يضطر إلى أن يستنتج أن «فكرة المجد» التي تنبثق من الروايات الكتابية لا تتطابق مع «الواقع الذي تعكسه اللقى الأثرية» [(14)].

لم يتمكن الأثريون من العثور على دليل يشير صراحة أو كناية إلى مملكة داود وسليمان في فلسطين. وبينما تقول رواية سفر صموئيل الثاني وسفر الملوك الأول بأن الملك داود أقام إمبراطورية تمتد بين النيل والفرات أورثها لسليمان بعد وفاته، لم يتمكن رجال الآثار من العثور على ذكر واحد لأي من ملكي بني إسرائيل، رغم وجود 300 موقع تقوم فيها البعثات الأثرية بأعمال الحفر، في بلادنا فلسطين. وإذًا، كانت المملكة الداودية - السليمانية، ليست أكثر من اختراع توراتي تنفيه كل الوقائع الأركيولوجية والتاريخية في بلادنا فلسطين.

---

(1) لورنس دفدسن، الآثاريات الكتابية والصحافة صياغة التصورات الأمريكية لفلسطين في العقد الأول من الانتداب، ترجمة فاضل جتكر، دراسات قدمس؛ 4 (دمشق: قدمس للنشر والتوزيع، 2001)، ص 125.

(2) فرج الله صالح ديب، كذبة السامية وحقيقة الفينيقية (بيروت: دار نوفل، 1998)، ص 32.

(3) كيث وايتلام، تلفيق إسرائيل التوراتية طمس التاريخ الفلسطيني، ترجمة ممدوح عدوان، ط 2 (دمشق: قدمس للنشر والتوزيع، 2002)، ص 223.

(4) أحمد الدبش، «إسرائيل أمة مفتعلة،» العصور الجديدة (القاهرة)، السنة 2، العدد 15 (تشرين الثاني/نوفمبر 2000).

(5) وايتلام، المصدر نفسه، ص 224.

(6) المصدر نفسه، ص 356.

(7) عصام سخنيني، تهافت التأريخ التوراتي (عمّان: الأهلية للنشر والتوزيع، 2018)، ص 155 - 156.

(8) القدس العربي (لندن)، 15/4/1998. لمزيد من التفاصيل حول «المملكة الداودية السليمانية» انظر: إسرائيل فنكلشتاين ونيل أشر سيلبرمان، التوراة مكشوفة على حقيقتها، ترجمة سعد رستم (دمشق: الأوائل للنشر والتوزيع، 2005)، ص 167 - 192.

(9) توماس طومسون، الماضي الخرافي (التوراة والتاريخ)، ترجمة عدنان حسن ووزياد منى، ط 2 (دمشق: قدمس للنشر والتوزيع، 2003)، ص 268 - 269.

(10) المصدر نفسه، ص 323 - 324.

(11) مارغريت شتاينر، «حدود متوسعة: تطور أورشليم في عصر الحديد،» في: توماس ل. تومبسون وسلمى الخضراء الجيوسي، محرران، القدس: أورشليم العصور القديمة بين التوراة والتاريخ، ترجمة فراس السواح (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2003)، ص 113 - 116.

(12) إنغريد هيلم، «قتال الأخوة: النزعة الإثنية لدي اليهود والسامريين في التاريخ والروايات التوراتية،» في: تومبسون والجيوسي، محرران، المصدر نفسه، ص 292.

(13) محمد مصطفى الأعظمي، «علماء كوبنهاجن وشيلفد يفضحون تزوير تاريخ إسرائيل القديم البروفيسور تومس طومسون نموذجًا،» الجزيرة (الرياض)، العدد 10602 (رجب 1422 - تشرين الأول/ أكتوبر 2001).

(14) كيث وايتلام، «إعادة اكتشاف فلسطين،» في: كيث وايتلام [وآخرون]، الجديد في تاريخ فلسطين القديمة، ترجمة عدنان حسن وزياد مني (دمشق: قدمس للنشر والتوزيع، 2004)، ص 42.

الفصل العاشر
اختلاق هيكل سليمان

هيكل سليمان، أو معبد القدس، أو «بيت همقداش» («بيت المقدس» أو «المعبد») حسب التسمية اليهودية المعروف باسم الهيكل الأول، وفقًا للكتاب المقدس، المعبد اليهودي الأول الذي بناه الملك سليمان. ويعتقد أنه أقيم في القرن العاشر قبل الميلاد، ومصدرنا الرئيسي لفرضية وجود هذا المعبد، هو العهد القديم/التناخ والعهد الجديد.

يزعم الكتاب المقدس، والكتاب المقدس وحده؛ دون دليل أثري، أن داود هو صاحب فكرة بناء هيكل ثابت للرب بدل خيمة الشهادة المتنقلة. «هكَذَا قَالَ الرَّبُّ: أَأَنْتَ تَبْنِي لِي بَيْتًا لِسُكْنَايَ؟ لأَنِّي لَمْ أَسْكُنْ فِي بَيْتٍ مُنْذُ يَوْمَ أَصْعَدْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ إلى هذَا الْيَوْمِ، بَلْ كُنْتُ أَسِيرُ فِي خَيْمَةٍ وَفِي مَسْكَنٍ» [1].

وقد وعد الرب داود بأن يكون البناء في عهد ابنه ووريثه، سليمان، «هُوَ يَبْنِي لِي بَيْتًا وَأَنَا أُثَبِّتُ كُرْسِيَّهُ إلى الأَبَد» [2]. أما موضع الهيكل وهندسته فقد عينه داود قبل موته، «فَقَالَ دَاوُدُ: «هذَا هُوَ بَيْتُ الرَّبِّ الإِلهِ، وَهذَا هُوَ مَذْبَحُ الْمُحْرَقَةِ لإِسْرَائِيلَ». وَأَمَرَ دَاوُدُ بِجَمْعِ الأَجْنَبِيِّينَ الَّذِينَ فِي أَرْضِ إِسْرَائِيلَ، وَأَقَامَ نَحَّاتِينَ لِنَحْتِ حِجَارَةٍ مُرَبَّعَةٍ لِبِنَاءِ بَيْتِ اللهِ. وَهَيَّأَ دَاوُدُ حَدِيدًا كَثِيرًا لِلْمَسَامِيرِ لِمَصَارِيعِ الأَبْوَابِ وَلِلْوُصَلِ، وَنُحَاسًا كَثِيرًا بِلاَ وَزْنٍ، وَخَشَبَ أَرْزٍ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَدَدٌ لأَنَّ الصِّيدُونِيِّينَ وَالصُّورِيِّينَ أَتَوْا بِخَشَبِ أَرْزٍ كَثِيرٍ إلى دَاوُدَ. وَقَالَ دَاوُدُ: «إِنَّ سُلَيْمَانَ ابْنِي صَغِيرٌ وَغَضٌّ، وَالْبَيْتُ الَّذِي يُبْنَى لِلرَّبِّ يَكُونُ عَظِيمًا جِدًّا فِي الاسْمِ وَالْمَجْدِ فِي جَمِيعِ الأَرَاضِي، فَأَنَا أُهَيِّئُ لَهُ». فَهَيَّأَ دَاوُدُ كَثِيرًا قَبْلَ وَفَاتِهِ» [3]. ثم بدأ سليمان العمل في البناء، واعتمد سليمان على مصادر أخرى غير إسرائيلية. «فَأَرْسَلَ سُلَيْمَانُ إلى حِيرَامَ يَقُولُ: «أَنْتَ تَعْلَمُ دَاوُدَ أَبِي أَنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَبْنِيَ بَيْتًا لاسْمِ الرَّبِّ إِلهِهِ بِسَبَبِ الْحُرُوبِ الَّتِي أَحَاطَتْ بِهِ، حَتَّى جَعَلَهُمُ الرَّبُّ تَحْتَ بَطْنِ قَدَمَيْهِ. وَالآنَ فَقَدْ أَرَاحَنِيَ الرَّبُّ إِلهِي مِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ فَلاَ يُوجَدُ خَصْمٌ وَلاَ حَادِثَةُ شَرّ. وَهأَنَذَا قَائِلٌ عَلَى بِنَاءِ بَيْتٍ لاسْمِ الرَّبِّ إِلهِي كَمَا كَلَّمَ الرَّبُّ دَاوُدَ أَبِي قَائِلًا: إِنَّ ابْنَكَ الَّذِي أَجْعَلُهُ مَكَانَكَ عَلَى كُرْسِيِّكَ هُوَ يَبْنِي الْبَيْتَ لاسْمِي. وَالآنَ فَأْمُرْ أَنْ يَقْطَعُوا لِي أَرْزًا مِنْ لُبْنَانَ، وَيَكُونُ عَبِيدِي مَعَ عَبِيدِكَ، وَأُجْرَةُ عَبِيدِكَ أُعْطِيكَ إِيَّاهَا حَسَبَ كُلِّ مَا تَقُولُ، لأَنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَنَا أَحَدٌ يَعْرِفُ قَطْعَ الْخَشَبِ مِثْلَ الصِّيْدُونِيِّينَ». فَلَمَّا سَمِعَ حِيرَامُ كَلاَمَ سُلَيْمَانَ، فَرِحَ جِدًّا وَقَالَ: «مُبَارَكٌ الْيَوْمَ الرَّبُّ الَّذِي أَعْطَى دَاوُدَ ابْنًا حَكِيمًا عَلَى هذَا الشَّعْبِ الْكَثِيرِ». وَأَرْسَلَ حِيرَامُ إلى سُلَيْمَانَ قَائِلًا: «قَدْ سَمِعْتُ مَا أَرْسَلْتَ بِهِ إِلَيَّ. أَنَا أَفْعَلُ كُلَّ مَسَرَّتِكَ فِي خَشَبِ الأَرْزِ وَخَشَبِ السَّرْوِ. عَبِيدِي يُنْزِلُونَ ذلِكَ مِنْ لُبْنَانَ إلى

الْبَحْرِ، وَأَنَا أَجْعَلُهُ أَرْمَاثًا فِي الْبَحْرِ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي تُعَرِّفُنِي عَنْهُ وَأَنْقُضُهُ هُنَاكَ، وَأَنْتَ تَحْمِلُهُ، وَأَنْتَ تَعْمَلُ مَرْضَاتِي بِإِعْطَائِكَ طَعَامًا لِبَيْتِي». فَكَانَ حِيرَامُ يُعْطِي سُلَيْمَانَ خَشَبَ أَرْزٍ وَخَشَبَ سَرْوٍ حَسَبَ كُلِّ مَسَرَّتِهِ. وَأَعْطَى سُلَيْمَانُ حِيرَامَ عِشْرِينَ أَلْفَ كُرِّ حِنْطَةٍ طَعَامًا لِبَيْتِهِ، وَعِشْرِينَ كُرَّ زَيْتٍ رَضٍّ. هكَذَا كَانَ سُلَيْمَانُ يُعْطِي حِيرَامَ سَنَةً فَسَنَةً. وَالرَّبُّ أَعْطَى سُلَيْمَانَ حِكْمَةً كَمَا كَلَّمَهُ. وَكَانَ صُلْحٌ بَيْنَ حِيرَامَ وَسُلَيْمَانَ، وَقَطَعَا كِلاَهُمَا عَهْدًا. وَسَخَّرَ الْمَلِكُ سُلَيْمَانُ مِنْ جَمِيعِ إِسْرَائِيلَ، وَكَانَتِ السُّخَرُ ثَلاَثِينَ أَلْفَ رَجُل. فَأَرْسَلَهُمْ إِلَى لُبْنَانَ عَشْرَةَ آلاَفٍ فِي الشَّهْرِ بِالنَّوْبَةِ. يَكُونُونَ شَهْرًا فِي لُبْنَانَ وَشَهْرَيْنِ فِي بُيُوتِهِمْ. وَكَانَ أَدُونِيرَامُ عَلَى التَّسْخِيرِ. وَكَانَ لِسُلَيْمَانَ سَبْعُونَ أَلْفًا يَحْمِلُونَ أَحْمَالاً، وَثَمَانُونَ أَلْفًا يَقْطَعُونَ فِي الْجَبَلِ، مَا عَدَا رُؤَسَاءَ الْوُكَلاَءِ لِسُلَيْمَانَ الَّذِينَ عَلَى الْعَمَلِ ثَلاَثَةَ آلاَفٍ وَثَلاَثَ مِئَةٍ، الْمُتَسَلِّطِينَ عَلَى الشَّعْبِ الْعَامِلِينَ الْعَمَلَ. وَأَمَرَ الْمَلِكُ أَنْ يَقْلَعُوا حِجَارَةً كَبِيرَةً، حِجَارَةً كَرِيمَةً لِتَأْسِيسِ الْبَيْتِ، حِجَارَة مُرَبَّعَةً. فَنَحَتَهَا بَنَّاؤُو سُلَيْمَانَ، وَبَنَّاؤُو حِيرَامَ وَالْجِبْلِيُّونَ، وَهَيَّأُوا الأَخْشَابَ وَالْحِجَارَةَ لِبِنَاءِ الْبَيْتِ» [4].

ارتفع بناء الهيكل فوق جبل موريا، «وَشَرَعَ سُلَيْمَانُ فِي بِنَاءِ بَيْتِ الرَّبِّ فِي أُورُشَلِيمَ، فِي جَبَلِ الْمُرِيَّا حَيْثُ تَرَاءَى لِدَاوُدَ أَبِيهِ» [5]. وأبعاد الهيكل، «وَالْبَيْتُ الَّذِي بَنَاهُ الْمَلِكُ سُلَيْمَانُ لِلرَّبِّ طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، وَعَرْضُهُ عِشْرُونَ ذِرَاعًا، وَسَمْكُهُ ثَلاَثُونَ ذِرَاعًا» [6].

«وبعد أن تم بناء بيت الرب» حِينَئِذٍ جَمَعَ سُلَيْمَانُ شُيُوخَ إِسْرَائِيلَ وَكُلَّ رُؤُوسِ الأَسْبَاطِ، رُؤَسَاءَ الآبَاءِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى الْمَلِكِ سُلَيْمَانَ فِي أُورُشَلِيمَ، لإِصْعَادِ تَابُوتِ عَهْدِ الرَّبِّ مِنْ مَدِينَةِ دَاوُدَ، هِيَ صِهْيَوْنُ. فَاجتمعَ إِلَى الْمَلِكِ سُلَيْمَانَ جَمِيعُ رِجَالِ إِسْرَائِيلَ فِي الْعِيدِ فِي شَهْرِ أَيْتَانِيمَ، هُوَ الشَّهْرُ السَّابِعُ. وَجَاءَ جَمِيعُ شُيُوخِ إِسْرَائِيلَ، وَحَمَلَ الْكَهَنَةُ التَّابُوتَ. وَأَصْعَدُوا تَابُوتَ الرَّبِّ وَخَيْمَةَ الاجتماعِ مَعَ جَمِيعِ آنِيَةِ الْقُدْسِ الَّتِي فِي الْخَيْمَةِ، فَأَصْعَدَهَا الْكَهَنَةُ وَاللاَّوِيُّونَ. وَالْمَلِكُ سُلَيْمَانُ وَكُلُّ جَمَاعَةِ إِسْرَائِيلَ الْمُجْتَمِعِينَ إِلَيْهِ مَعَهُ أَمَامَ التَّابُوتِ، كَانُوا يَذْبَحُونَ مِنَ الْغَنَمِ وَالْبَقَرِ مَا لاَ يُحْصَى وَلاَ يُعَدُّ مِنَ الْكَثْرَةِ. وَأَدْخَلَ الْكَهَنَةُ تَابُوتَ عَهْدِ الرَّبِّ إِلَى مَكَانِهِ فِي مِحْرَابِ الْبَيْتِ فِي قُدْسِ الأَقْدَاسِ، إِلَى تَحْتِ جَنَاحَيِ الْكَرُوبَيْنِ، لأَنَّ الْكَرُوبَيْنِ بَسَطَا أَجْنِحَتَهُمَا عَلَى مَوْضِعِ التَّابُوتِ، وَظَلَّلَ الْكَرُوبَانِ التَّابُوتَ وَعِصِيَّهُ مِنْ فَوْقُ. وَجَذَبُوا الْعِصِيَّ فَتَرَاءَتْ رُؤُوسُ الْعِصِيِّ مِنَ الْقُدْسِ أَمَامَ الْمِحْرَابِ وَلَمْ تُرَ خَارِجًا، وَهِيَ هُنَاكَ إِلَى هذَا الْيَوْمِ. لَمْ يَكُنْ فِي التَّابُوتِ إِلاَّ لَوْحَا الْحَجَرِ اللَّذَانِ وَضَعَهُمَا مُوسَى هُنَاكَ فِي حُورِيبَ حِينَ عَاهَدَ الرَّبُّ بَنِي إِسْرَائِيلَ عِنْدَ خُرُوجِهِمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ. وَكَانَ لَمَّا خَرَجَ الْكَهَنَةُ مِنَ الْقُدْسِ أَنَّ السَّحَابَ مَلأَ بَيْتَ الرَّبِّ، وَلَمْ يَسْتَطِعِ الْكَهَنَةُ أَنْ يَقِفُوا لِلْخِدْمَةِ بِسَبَبِ السَّحَابِ، لأَنَّ مَجْدَ الرَّبِّ مَلأَ بَيْتَ الرَّبِّ» [7].

«ثُمَّ إِنَّ الْمَلِكَ وَجَمِيعَ إِسْرَائِيلَ مَعَهُ ذَبَحُوا ذَبَائِحَ أَمَامَ الرَّبِّ، وَذَبَحَ سُلَيْمَانُ ذَبَائِحَ السَّلاَمَةِ الَّتِي ذَبَحَهَا لِلرَّبِّ: مِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ أَلْفًا، وَمِنَ الْغَنَمِ مِئَةَ أَلْفٍ وَعِشْرِينَ أَلْفًا، فَدَشَّنَ الْمَلِكُ وَجَمِيعُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَيْتَ الرَّبِّ» [(8)].

أولًا: العالم الإنكليزي إسحق نيوتن [(9)] والهيكل السليماني!

إن صورة القرن الثامن عشر بوصفه العصر الكلاسيكي للعقل الذي ازدهرت فيه الاكتشافات العلمية لقوانين الطبيعة التي تتحدى الكتاب المقدس لتتعارض مع كثير من اهتمامات العلماء/الفلاسفة بالتعاليم المتعلقة بالأخرويات. لقد حاول هؤلاء أن يوجدوا تفسيرات علمية خاصة لإعادة اليهود إلى فلسطين.

و«كان إسحق نيوتن (Sir Isaac Newton) واحدًا من علماء/فلاسفة هذه الحركة الخطيرة، فقد وضع نظريته القيامية في كتاب مستقل بعنوان، «ملاحظات عن نبوات دانيال وقيامة القديس يوحنا» (Observations upon the Prophecies of Daniel, and the Apocalypse of St. john). وترك للمؤمنين تراثًا قياميًا أكبر من تراثه العلمي كما يقول جامع هذا التراث هنري مكلاكلان (Henry Mclachlan) في كتابه «مخطوطات السير إسحق نيوتن اللاهوتية» (Sir Isaac Newton’s Theological Manuscripts).

كان نيوتن مسحورًا بـ «التجربة اليهودية» وبمفهوم الألوهة العبراني الذي سال في عروق نزعته التوحيدية وأعماله الميتافيزيائية بما في ذلك فهمه لطبيعة السيد المسيح بل وفهمه للطبيعة نفسها. وكان في النهاية إنكليزيًا يهودي المشرب يهجس في الشكل والحجم الحقيقي لمعبد سليمان لأنه يعتقد أن هذا المعبد صورة مصغرة عن أورشليم السماوية وأنه الهيئة التي ستكون عليها صورة العالم بعد النزول. هذا ما يرويه عنه ريتشارد وستفول (Richard Westfall) كاتب سيرته الذاتية (Never at Rest, A Biography of Sir Isaac Newton). ويروي أيضًا أن نيوتن كان يعتبر القياس بالذراع مقدسًا لأنه قياس معبد سليمان، وأنه قرأ سفر حزقيال بالعبرية لكي يتمكن من أن يرسم مخططًا دقيقًا للمعبد، كما كتب أطروحة خاصة عن «قدسية الذراع اليهودي» يبدأ عنوانها الملحمي الطويل بهذه الجملة (A Dissertation upon the Sacred Cubit of the Jews….)، ووضع دراسات مفصلة لبناء المعبد في مكان المسجد الأقصى. وهناك محادثة طريفة حول هذا المعبد دارت بين نيوتن وبين معاصره الطبيب وعالم الآثار وليم ستكلي (William Stukeley) قبيل موت نيوتن بسنتين، رواها ستكلي في «ذكرياته عن حياة نيوتن» (Memoirs of Sir Isaac Newton’s Life) فقال: خلال زيارتي له في عيد ميلاد 1725، تحدثنا عن معبد

سليمان. وهذه مسألة كنت قد أوليتها عناية خاصة في دراساتي، وأعددت لها رسومًا كثيرة قدمتها لمولاي اللورد [توماس] بمبروك (Pembroke) وغيره.

وقد وجدتُ أن السير إسحق أعد للمعبد بعض الرسوم، وأنه تفكر كثيرًا في المسألة وأحاط بكل جوانبها. ثم إننا اتفقنا معًا على أن هندسة معبد سليمان لا تشبهها أية هندسة معروفة، وليس لها ما يشبهها بين المعابد القديمة لأنه أقدم كل المعابد المذكورة في التاريخ، بل كان المثال الذي احتذته كل المعابد. فمنه استعار المصريون واليونان أشكال معابدهم... » [(10)].

ثانيًا: اختلاق رحب!

نتوقف قليـلًا أمام أبعاد بيت الرب (الهيكل السليماني المزعوم). وإذا علمنا أن الذراع «الإسرائيلي» القديم يساوي 52 سم، فإن طول المعبد يصبح 31.5 م، وعرضه 10.5 م، وارتفاعه 15.5 م. غني عن القول أن التفاصيل الواردة في الكتاب المسمى المقدس، تتسم بالحماقة والمبالغة. ولن يلبث هذا الوصف المدعو بالإلهي أن يتلاشى كالثلج تحت أشعة الشمس، إذا ما خضع لنقد يتمتع بهذا القدر من الجدية أو ذاك. لقد عمل في بناء المعبد 183300 عامل، ما عدا الحجّارين والعمال الآخرين الذين يظهرون فيما بعد. وطول المعبد ليس أكثر من 31.5 م، وعرضه 10.5 م. وقد صرف هؤلاء البناؤون سبع سنوات على بناء مبنى مؤلف من ثلاث غرف ويشغل مساحة لا تزيد على 325 مترًا مربعًا. إنها أرقام تجعلنا نصاب بالذهول، إذا ما كانت لدينا فكرة بدائية جدًا عن أعمال البناء. فهل كان عمّال سليمان كسالى إلى هذا الحد؟!! ومع ذلك فإن أبعاد البناء التي يذكرها سفر الملوك الأول، لا تتوافق مع تلك التي يذكرها سفر أَخْبَارِ الأَيَّامِ الثَّانِي «الطُّولُ بِالذِّرَاعِ عَلَى الْقِيَاسِ الأَوَّلِ سِتُّونَ ذِرَاعًا، وَالْعَرْضُ عِشْرُون ذِرَاعًا. وَالرِّواقُ الَّذِي قُدَّامَ الطُّولِ حَسَبَ عَرْضِ الْبَيْتِ عِشْرُونَ ذِرَاعًا، وَارْتِفَاعُهُ مِئَةٌ وَعِشْرُونَ» [(11)]. ويكفي وجود مثل هذا الاختلاف في كتاب يُزعم أنه «مقدس» ليخلق لدينا الشك، هذا إذا لم يكن النص كله مجرد هراء لا طائلة منه. فيا له من اختلاق واسع رحب؟!!

ثالثًا: غياب أي دليل أثري!

على الرغم من أن الأثريين ليس بإمكانهم إظهار دليل على أن هيكل أورشليم كان له وجود في القرن العاشر قبل الميلاد، فـ «في علم الآثار الإنجيلي يجري استخدام التصورات عن هيكل سليمان بوصفها من مفاهيم الترتيب الزمني لتاريخ بني إسرائيل، وهو ما يرفع الأسطورة الإنجيلية إلى مصاف الحقيقة التاريخية» [(12)].

يقول الباحث التاريخي السويدي، هانس فوروهاجن: «إن وصف الكتاب المقدس هذا هو الوثيقة الوحيدة التي لدينا عن «هيكل سليمان». فالمبنى لا وجود له في حوليات الآشوريين أو البابليين، ولا وجود له في النقوش التي عثر عليها في أنحاء مختلفة من «الأرض المقدسة»، كما لا توجد أية مكتشفات أثرية تشير إلى أن هيكـلًا كبيرًا قد وجد في أورشليم خلال القرن العاشر قبل الميلاد» [(13)].

في هذا السياق، يقول أوسشكين، أستاذ الآثار في جامعة تل أبيب: «من منظور علم الآثار ليس هناك ما يمكن معرفته عن جبل الهيكل في القرنين العاشر والتاسع ق.م». أما جين كاهل، أستاذة الآثار في الجامعة العبرية، فتقول: «ليس هناك أي بقايا آثارية في القدس يمكن أن تعرّف بثقة بأنها تعود إلى أي بناء سماه «الكتاب»». ويؤكد ذلك نيلز لمكه، أستاذ الدراسات التوراتية في جامعة كوبنهاغن: «لم يكتشف نقش واحد يعود إلى زمنهما [داود وسليمان] ولم تكتشف كسرة واحدة من بناء عظيم» [(14)].

يدحض توماس طومسون، في كتابِهِ **الماضي الخرافي (التوراة والتاريخ)**، مفهوم بناء الهيكل السليماني، بوصفِهِ مركزًا لعبادة يهوه، قائـلًا: «تلك الصور لا مكان لها في أوصاف الماضي التاريخي الحقيقي. إننا نعرفها فقط كقِصَّة، وما نَعرفهُ حول هذه القِصص، لا يُشجِّعنا على معاملتها، كما لو أنها تاريخيَّة» [(15)].

هنا أعود لطرح هذه المعضلة على أهل الاختصاص، لماذا فشلت جميع المساعي للبحث عن دليل أثري واحد يثبت وجود هيكل سليمان المزعوم أسفل الحرم الشريف بالقدس، وبالتحديد تحت المسجد الأقصى؟! وباعتبار أننا نعثر في بلادنا فلسطين عامة على آثار من العصور الحجرية القديمة تعود إلى نحو مليون وسبعمئة وخمسين ألف سنة خلت، ونعثر في القدس على آثار تعود إلى خمسمئة ألف سنة خلت... فإننا نتعجب من عدم وجود أدلة أثرية على وجود «عبري/إسرائيلي/يهودي» وهيكلهم المزعوم.

إذًا لم يكن ثمة هيكل في فلسطين يعرف باسم هيكل سليمان، إن قصة بناء الهيكل السليماني غير قابلة للتصديق، وإنها مجرد اختلاق توراتي.

---

(1) الكتاب المقدس، «سفر صموئيل الثَّاني،» الأصحاح 7، الآيتان 5 - 6.
(2) المصدر نفسه، «سفر أخبار الأيّام الأوَّل،» الأصحاح 17، الآية 12.
(3) المصدر نفسه، «سفر أخبار الأيّام الأوَّل،» الأصحاح 22، الآيات 1 - 4.
(4) المصدر نفسه، «سفر أخبار الأيّام الأوَّل،» الأصحاح 5، الآيات 2 - 18.
(5) المصدر نفسه، «سفر أخبار الأيّام الثاني،» الأصحاح 3، الآية 1.
(6) المصدر نفسه، «سفر الملوك الأول،» الأصحاح 6، الآية 2.
(7) المصدر نفسه، «سفر الملوك الأول،» الأصحاح 8، الآية 11.

(8) المصدر نفسه، «سفر الملوك الأول،» الأصحاح 8، الآية 62.
(9) إسحق نيوتن (Isaac Newton) (25 كانون الأول/ديسمبر 1642 - 20 آذار/مارس 1727)، عالم إنكليزي يعد من أبرز العلماء مساهمة في الفيزياء والرياضيات عبر العصور وأحد رموز الثورة العلمية. كان نيوتن مسيحيًا متدينًا، لكن بصورة غير تقليدية. فقد رفض أن يأخذ بالتعاليم المقدسة للأنجليكانية، ربما لأنه رفض الإيمان بمذهب الثالوث. أمضى نيوتن أيضًا أوقاتًا طويلة في دراسة الخيمياء وتأريخ العهد القديم، إلا أن معظم أعماله في هذين المجالين ظلت غير منشورة حتى بعد فترة طويلة من وفاته.
(10) منير العكش، تلمود العم سام: الأساطير العبرية التي تأسست عليها أميركا (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، 2004)، ص 94 - 96.
(11) الكتاب المقدس، «سفر أَخْبَارِ الأَيَّامِ الثَّانِي،» الأصحاح 3، الآيتان 3 - 4.
(12) هانس فوروهاجن، فلسطين والشرق الأوسط بين الكتاب المقدس وعلم الآثار، ترجمة سمير طاهر (القاهرة: الكتب خان للنشر والتوزيع، 2017)، ص 182.
(13) المصدر نفسه، ص 187.
(14) عصام سخنيني: القدس تاريخ مختطف وآثار مزورة (عمّان: اللجنة الملكية لشؤون القدس، 2009)، ص 110 - 111، وتهافت التأريخ التوراتي (عمّان: الأهلية للنشر والتوزيع، 2018)، ص 171.
(15) توماس طومسون، الماضي الخرافي (التوراة والتاريخ)، ترجمة عدنان حسن ووزياد منى، ط 2 (دمشق: قدمس للنشر والتوزيع، 2003)، ص 268.

الفصل الحادي عشر
حروب في اتجاه القدس!

بعد أن أثبتت الحفريات التي أُجريت في القدس صورة مغايرة تمامًا لتلك التي رسمتها الحكايات الكتابية؛ وأن فكرة الوجود «العبري - الإسرائيلي - اليهودي» التي تنبثق من الروايات الكتابية لا تتطابق مع «الواقع الذي تعكسه اللقى الأثرية»؛ وأن ملوك «بني إسرائيل» في فلسطين، ليسوا إلا أشباح، وكائنات خرافية اخترعها «الكتاب المقدس»، قد يكون أمرًا غريبًا ألا يتطرق المرء إلى السؤال الآتي، وهو: ماذا عن حروب شيشناق وسنخاريب ونبوخذ نصّر في اتجاه مدينة القدس؟ ألا يثبت ذلك صدق الرواية التوراتية، التي تحدثت عن حروب هؤلاء الملوك في اتجاه «أورشليم»؟ ألا يثبت ذلك ما تناقله بعض الأكاديميين العرب، عن الباحثين التوراتيين، بأن مدينة القدس هي «أورشليم»؟

أولًا: شيشناق يُهاجِم أورشليم

يَستحضِر الباحثون التوراتيون، النقش العائد إلى ملك مصر شيشناق الأول (925 - 946 ق.م) الذي يسرد أسماء لمواقع وأقوام تمكن من إخضاعها، مع الخبر الوارد موجزًا في روايتين مختلفتين من التوراة، ففي رواية سفر الملوك الأول يقول «وَفِي السَّنَةِ الْخَامِسَةِ لِلْمَلِكِ رَحُبْعَامَ، صَعِدَ شِيشَقُ مَلِكُ مِصْرَ إِلى أُورُشَلِيمَ، وَأَخَذَ خَزَائِنَ بَيْتِ الرَّبِّ وَخَزَائِنَ بَيْتِ الْمَلِكِ، وَأَخَذَ كُلَّ شَيْءٍ. وَأَخَذَ جَمِيعَ أَتْرَاسِ الذَّهَبِ الَّتِي عَمِلَهَا سُلَيْمَانُ» [1]. وفي رواية أخبار الأيام الثاني القائل: «وَفِي السَّنَةِ الْخَامِسَةِ لِلْمَلِكِ رَحُبْعَامَ صَعِدَ شِيشَقُ مَلِكُ مِصْرَ عَلَى أُورُشَلِيمَ، لأَنَّهُمْ خَانُوا الرَّبَّ، بِأَلْفٍ وَمِئَتَيْ مَرْكَبَةٍ وَسِتِّينَ أَلْفَ فَارِسٍ، وَلَمْ يَكُنْ عَدَدٌ لِلشَّعْبِ الَّذِينَ جَاءُوا مَعَهُ مِنْ مِصْرَ: لُوبِيِّينَ وَسُكِّيِّينَ وَكُوشِيِّينَ. وَأَخَذَ الْمُدُنَ الْحَصِينَةَ الَّتِي لِيَهُوذَا وَأَتَى إِلى أُورُشَلِيمَ» [2].

الصورة الرقم (١١ - ١) الملك المصري شيشناق - معبد الكرنك

ورغم محاولة البعض التوفيق بين الروايتين، إلا أن القصة التوراتية مختصرة، ولا تعطينا أي تفاصيل جغرافية. لأن النقش [نقش شيشناق] يحوي أسماء مائة وخمسة وخمسين موقعًا وقومًا. وبالرغم من أنه تنقصنا التفاصيل العديدة عن هذه الحملة، فقد وردت أخبار حملة شيشناق ملك مصر - وادي النيل العظيم على شكل قائمة طبوغرافية على الجدار الجنوبي الغربي للصرح الثاني بالكرنك، وهو المعروف بالبوابة البوباسطية، وقد قسمت إلى قسمين: العلوي، ويحتوي على خمسة أسطر تبدأ بأقوام الأقواس التسعة. أما الرقم (10) فإنه يحتوي علي عبارة تدل على أن ما يأتي بعد هي أسماء الأماكن التي غزاها شيشناق وتشمل الأرقام (11 - 15).

«وحتى الآن لم يستطع الباحثون التعرف من أسفار العهد القديم، أو المصادر الأخرى على كثير من الأسماء الجغرافية التي جاءت في القسم الأول من القائمة. كما أنهم لم ينجحوا في إيجاد وسيلة لترتيب الأسماء التي اتبعها كاتب القائمة، وهكذا فإن أشياء كثيرة بخصوص هذه القائمة ومحتوياتها لا تزال غامضة» [(3)].

يقول جيمس برستد: «ادعى شيشناق أنه بلغ أرض ميتاني (Mittanni) لكن ذلك لا بد أن يكون من قبيل الغلوّ والفخر فقط، والسبب في ذلك أن مملكة ميتاني انعدمت من الوجود فلم يعد لها أثر وقتئذ. ومما ادعاه شيشناق أيضًا أنه استولى على الجهة المعروفة بـ «حقل إبراهيم» وهذا الاسم هو أقدم عبارة

ورد بها اسم إبراهيم علم بني إسرائيل» [4]، والذي لم يتعرف إليه. يقول غاردنر: «وليس هناك ذكر لـ «جازر» أو «أورشليم» بين الأسماء الباقية التي تصحب المنظر في البوابة البوباسطية، وهي الأسماء التي تقدم بالصورة التقليدية والتي اعتدناها فيما يتصل بحروب توثموزيس الثالث بمعنى أنها توضع على صدور أسرى يقدمهم فرعون في صورته العملاقة لأبيه أمون رع، وأما الحصر العددي فمدعاة لليأس، ذلك أنه من بين أكثر من 150 مكانًا ذكرت لا نلتقي الا بالقليل محفوظًا ليمهد لنا تحديد طرق تدور في النواحي حول المنطقة الجبلية للسامرية دون الوصول إلى مركز المملكة الإسرائيلية بل إنه ليست هناك أية إشارة إلى أنهم اقتربوا من اليهودية إطلاقًا» [5].

وفي هذا الصدد يقول طومسون: «لا يبدو في الحقيقة غريبًا أن لا يعكس التقرير المصري عن حملة شيشناق (Shoshenk) أواخر القرن التاسع، على المدن الرئيسية وطرق التجارة في فلسطين، فلسطينيًا تحت حكم إمبريالي مركزه القدس. فلا يهودا ولا إسرائيل ولا القدس أو أي عاصمة أخرى محتملة في المرتفعات الوسطى تستدعي اهتمام شيشناق في محاولاته لإخضاع فلسطين، سياسيًا واقتصاديًا، لمصر. القدس، كانت مدينة جبلية صغيرة في ذلك الوقت، وجود إسرائيل أو يهودا في مثل هذا التاريخ المبكر، لا تؤيده المعلومات المتوفرة عن فلسطين في تلك الفترة» [6].

حاول أنصار الخطاب التوراتي مطابقة أسماء قائمة شيشناق على المواقع في فلسطين، بسبب «العثور على بعض آثار شيشناق في مجدّو [تل المتسلم] وغيرها من مدن فلسطين» [7]. وهذا ما يشير إليه فنكلشتاين، «وقد وُجدت - في الواقع - قطعة من مسَلَّة النّصر التي تحمل اسم شيشناق في مجدّو [تل المتسلم]، ولسوء الحظّ، كانت ضمن نفايات أعمال التنقيب السابقة، ولذلك كان ارتباطها الآثاري الدقيق غير واضح. كَشَفَتْ الطبقات السميكة من الحريق والانهيار في تلك الموقع وفي غيرها من المواقع الكبيرة في الشّمال، عن شواهد مُثيرة، للدمار المُفاجئ والكُلّي لهذا النظام في أواخر القرن العاشر ق.م. ويُعَد شيشناق، الذي قام بحملة في المنطقة عام 926 ق.م، المرشح الأكثر احتمالًا وراء تلك الموجة من الدمار» [8].

والسؤال المطروح هنا: هل من الجائز أن نستخدم قائمة شيشناق، في الربط بينها وبين الكتاب المقدس من ناحية، ومن ناحية أخرى ربطها بمستويات التدمير التي كشفت عنها عمليات التنقيب؟!

يقول ريدفورد: «كان ليعد أمرًا أكثر من مرض لو وصلت إلى أيدينا رواية مصرية لوقائع الغزو الذي قام به شيشناق. ولكننا لا نملك في الوقت الحاضر سوى لوح/صادود مهشم في الكرنك ومنظر واحد للنصر مرسوم على الحائط الجنوبي لقاعة الأعمدة المسقوفة. على أن هذا الصادود/اللوح لا يمدنا إلا

بعبارات قليلة متناثرة، تشير إلى مبادرة آسيوية لشن الحرب، ولكن هذه الإشارة تثير، مع ذلك، سؤالًا حول ما إذا كانت تشير أصلًا إلى الحملة التي وقعت في السنة الخامسة من حكم رحبعام. وعلى نفس المنوال يشير منظر النصر إلى الآسيويين «الذين شرعوا يهاجمون حدود جلالته»، ولكن هؤلاء يشار إليهم بالعبارات القديمة المقبولة مثل أتباع «مونتو» (= إله حرب مصري) الآسيوى، وذات مرة بصفتهم (كتائب جيش «ميتانى»). ولما كان من الصعب على المرء أن يعزو شيشناق أن يكون قد شق طريقه موغلًا باتجاه الشمال حتى سهول ميزبوتاميا (= بلاد الرافدين)، فإن الاسم «ميتانى»، لا بد وأن يكون قد استله كاتبه بنوع ما من عدم الاكتراث، من الجداريات الحربية التي نحتها الفرعون تحتمس الثالث في نفس المعبد» [(9)].

ثانيًا: نصوص الملك الآشوري سنخاريب

(٧٠٥ - ٦٨١ ق.م) أشارت نصوص الملك الآشوري سنخاريب إلى حصاره المشهور لمدينـة لاخـيش، وأشار نحات ملك بلاد آشور إلى ذلك بمنحوتة وجـدت في نينوى تخلد استسلام المدينة إلى ملكه الجالس على العرش وسط قواته، وجنوده، بمنظـر غاباتي مليء بالنباتات والأشجار المثمرة، والمشهد معروض اليوم في المتحف البريطـاني في لندن. واعتبر أنصار الخطاب التوراتي، أن مدينـة لاخـيش، هي من مدن فلسطين القديمة (تل الدوير) والواقعة صوب جنوب غرب أورشليم الحالية.

فـ «المبدأ المتبع هو إطلاق اسم توراتي على الموقع، ثم التنقيب واستخراج عاديات تنسب إلى الموقع التوراتي المزعوم. وحين تثار شكوك بعض العارفين من العلماء، ينقل اسم الموقع التوراتي إلى مكان آخر بكل بساطة، مثال الدوران بموقع لاخيش التوراتية من مكان إلى آخر، يلقي ضوءًا ذا معنى على هذا التحايل الذي لا يمكن أن ينطبق عليه إلا اسم المهزلة». فقد نقب عالم المصريات السير فلاندرز بيتري في عام 1890 طيلة ستة أسابيع في تل الحسي غرب الخليل، بعد أن أطلقوا عليها اسم «حبرون»، ظنًا منه أنه موقع لاخيش التوراتية، واتضح بعد المزيد من التنقيبات أن هذا الاسم أطلق على المكان الخطأ كما توصلت كينون في عام 1970، ولكن هل هناك مكان صحيح؟

المحاولة الثانية لإلصاق اسم لاخـيش بتل الدوير في عام 1938 تصلح لاستخراج طرائف ممتعة. فهذا التل أطلقوا عليه اسم لاخيش منذ البداية ونقبوا فيه في ضوء هذه القناعة، ليس لسبب سوى اتخاذهم من اسم قرية مجاورة له تدعى «أم القيس» سببًا.

فقد أسقطوا من اسم القرية ألف التعريف، كما تسقط عادة في اللغات الأوروبية، فأصبح الاسم «أم لكس» وبتصويت «لكس» على الطريقة العبرية تصبح «لا كيس» ولأن هناك تبادلًا بين السين والشين والكاف والخاء بين بعض اللغات التي تدعى سامية، تحول اسم «أم القيس» إلى «لاخيش» بقدرة فذة من قدرات الجهل والتعمد والتعمل. وفي ضوء هذا الاعتقاد المسبق بأن الموقع أصبح هو موقع لاخيش، قرأ خبير اللغة العبرية نقوشًا عثر عليها في التل مكتوبة بالأبجدية الكنعانية (أطلقوا عليها اسم العبرية القديمة!) وبعد ترجمتها خرج هذا الخبير بالنبأ المنتظر: هذا هو بالفعل موقع لاخيش التوراتية.

الصورة الرقم (١١ - ٢) لاخيش في أعمال فنان النحت الأشوري

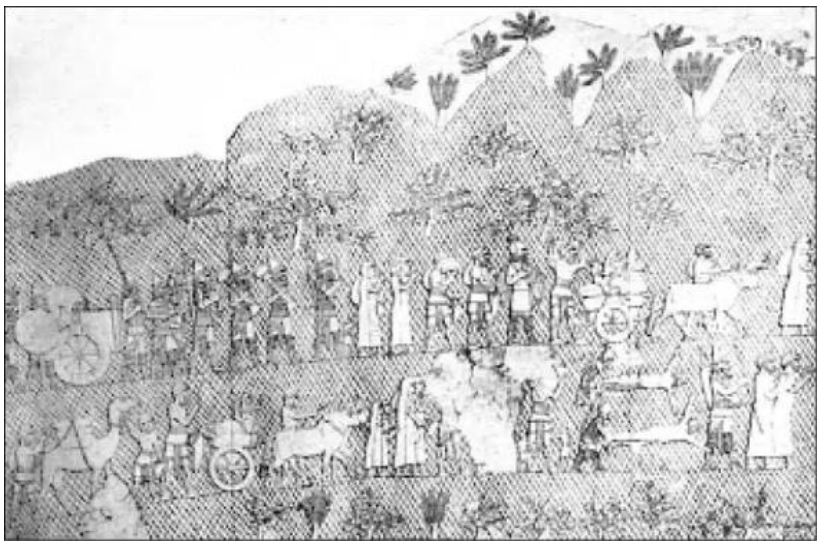

أما كيف حدث ذلك، وماذا كان مصير هذا النبأ، فيرويه بيتر جيمس هكذا: «قرر المنقب جي. ل. ستاركي أن الموقع هو موقع لاخيش قبل أن يضرب بمعوله، وهكذا قرر أيضًا - بعد أن لاحظ تدمير وحريق في الطبقة الثانية من طبقات الموقع - أن هذا التدمير من عمل الجيش البابلي في عام 587 ق.م.. كل هذا حتى قبل اكتشاف النقوش التي أطلق عليها اعتباطًا «رسائل لاخيش»، وأعطيت هذه النقوش على الفخار للخبير هاري تورشنر فقام هذا فورًا بمقارنة أسماء الأشخاص، بعد أن «رممها» وأضاف إليها حروفًا من تخميناته، بأسماء واردة في التوراة. واستنتج أن النقوش تعود إلى عصر إرميا، النبي البارز في يهوذا خلال الغزوات البابلية، وبدأ وتحت ظل هذا الاعتقاد بالتعرف على أحداث فردية من تلك المذكورة في سفر «إرميا». فالإشارة

مثـلًا في النقش الرابع إلى «لكس» و«عزقة» معًا في سياق يوحي أنهما تحت احتلال عسكري، استدعى مقارنة مع إشارات إرميا إلى هاتين المدينتين كآخر مدينتين صمدتا أمام الهجوم الأخير. وتسلم الدفة عالم الآثار التوراتي وليم. ف. أولبرايت فأضاف ثقله إلى قراءات تورشنر، وتناول النقش السادس المثلوم والذي نصه كما يلي: «مولاي... أن لا تكتب... فعلت هكذا... سلم»، وأعاد كتابته فأصبح «والآن مولاي هل لك أن تكتب لهم قائـلًا لماذا فعلتم هكذا حتى بأورشليم؟» محولًا كلمات متقطعة قد لا تكون جملة واحدة في الأصل، إلى ترجمة اعتباطية غرضها إيراد اسم «أورشليم» في نص لا يتعلق بها في أبريل من عام 1941» [(10)].

أما النص المسماري الخاص بحصار **أورشليم** (Ur-Sa-Li-im-m) فتقول ترجمة النص: «في حملتي الثالثة توجهت إلى بلاد حاتي، لولي ملك مدينة صيدا أخذه الخوف من هيبة جلالتي ففر وحيدًا وسط البحار واختفى ذكره. أما مدنه فقد تملكها الخوف من عظمة سلاح الإله آشور سيدي على مدنه القوية فأخضعت مدن صيدا الكبرى وصيدا الصغرى وبيت زيتي، وزار يبتو، ومحاليبا، وأوشو، وأكزيب، وعكا. وكل مدنه القوية المحصنة بالطعام والماء ليكون كلها قد خضعت تحت قدمي وثبت كملك على عرش صيدا المدعو «اتبعل» (توبعلو) ملكًا على كرسي ملوكيتهم الأتاوة بوصفي سيده الأعلى لتدفع سنويًا بغير انقطاع فرضت عليهم».

«أما بالنسبة لملوك أمورو: **مناحيم السامري** (KurSa-mir-i-na-a-a) توبعلو الصيدوني، وعبد يبليتي الأروادي، وأورمليكي الجبيلي وميتنتي الأشدودي، وبوديلي العموني، وخاموسون - نادبي الموآبي، وأيرامو الأدومي كلهم أحضروا هداياهم وقدموا أربعة أضعاف هداياهم الثقيلة وقبّلوا قدمي. أما «صدقيا» ملك عسقلون الذي لم يخضع لحكمي فإني رحّلته وأرسلته إلى بلاد آشور مع آلهة بيت أبيه وزوجته وأولاده وبناته وكل الذكور من نسل أبيه، ونصبت «شرولوداري» بن «روكبتو» ملكهم السابق حاكمًا على سكان عسقلون وفرضت عليه دفع الأتاوة المستحقة لسيادتي. واستمرارًا لحملتي حاصرت «بيت داجون» و«يافا» و«باناي» «برقة» و«أزورو» مدن لصدقيا الذي خضع بسرعة لقدامي حاصرته وهاجمته وغنمت غنائمه. أما مستشارو ونبلاء وناس مدينة «عكرون» الذين كانوا قد خلعوا ملكهم «بادي» صاحب المعاهدة ووضعوه في القيود لأنه ظل متمسكًا بقسمه للإله آشور وسلموه إلى **حزقيا اليهودي** (Ha-za-qi-a(a) Ia-u da-ai)، وضعه في السجن كأنما بادي عدو... ولخوفه مني تحالف مع ملك مصر رماة عربات خيل ملك ملوخا... قوة لا يحصى لها... وجاء لعونهم... وفي سهل «التيكة» رسم خطط المعركة أمامي وحدوا أسلحتهم فمحاربتهم بمعونة آشور سيدي ثبت هزيمتهم... العربات وأمراء المصريين قبضت عليهم أحياء. ثم حاصرت «التيكة» و«تمنة» وفتحتها

وأخذت منهما الأسلاب والغنائم. وقد هاجمت «عكرون» وقتلت الموظفين والأشراف الذين كانوا قد ارتكبوا الجريمة وعلقت أجسادهم على أعمدة محيطة بالمدينة. أما العامة الذين ارتكبوا جرائم صغيرة فقد اعتبرتهم كغنائم حرب. وأما البقية ممن لم يرتكبوا جرائم ويسيئوا السلوك فقد أطلقت سراحهم. وجعلت «بادي» ملكهم يعود من «**أورشليم**» ووضعته على العرش سيدًا عليهم وفرضت عليه الجزية المستحقة «لي» بوصفي السيد الأعلى».

«أما **حزقيا اليهودي** (Ha-za-qi-a(a) Ia-^{uKUR} da-ai) فإنه لم يخضع لنيري فحاصرت 46 من مدنه القوية وحصونه المسورة وعلى القرى الصغيرة المجاورة التي لا حصر لها فتحتها بوساطة منحدرات ترابية وكبائش (آلات حربية لهدم الأسوار) وسلالم قريبة من الأسوار التي قرّبها المشاة إلى مقدمة الهجوم فأحدثوا أنفاقًا وثغرات بالإضافة إلى هجوم المشاة الذين كانوا يستخدمون المدكات وقد سقت منهم 200150 أناس صغارًا وكبارًا، ذكورًا وإناثًا وأخذت خيلًا وبغالًا وحميرًا وجمالًا وماشية لا تحصى - غنيمة - أما هو (نفسه) فقد حاصرته في «**أورشليم**» مدينة ملوكيته كالطير في قفص، وقد حاصرته بسور من التراب لمنع الذي يروم الخروج من المدينة أما مدنه التي سيطرت عليها فقد اقتطعتها من بلاده وأعطيتها لـ «متينتي» ملك «أشدود» و«بادي» ملك «عكرون» و«صل يبل» ملك «غزة»... وهكذا صغرت منحة بلاده ولكني زدت في الجزية والهدايا المستحقة لي بوصفي سيده الأعلى إضافة إلى الجزية السابقة على أن تسلم سنويًا أما حزقيا نفسه الذي انبهر من بهائي وسيادتي، والجيوش المتميزين (للدفاع عن أورشليم). وقد أرسل إليّ فيما بعد في «نينوى» مدينتي الملكية 30 وزنة من الذهب 800 وزنة من الفضة، أحجارًا كريمة، والإثمد (كحل)، ألواح كبيرة من الحجر الأحمر، مخادع مطعمة بالعاج، وكراسي ومقاعد مطعمة بالعاج، جلود فيلة، وخشب الأبنوس، وخشب بقس (خشب صناديق)، وثياب ملونة وأردية مطرزة بالألوان القرمزية والبنفسجية، والعربات الحربية وكذلك أرسل لي عودًا لا يحصى من أسلحة الحرب وأخذت بنات ونساء قصره والعازفين من الذكور والإناث... ولكي يسلم الجزية ويقدم الخضوع كعبد، أرسل رسوله الشخصي».

وهناك نص مسماري آخر جاء فيه: «وكان «لولي» ملك صيدا خائفًا من محاربتي وهرب إلى بلاد قبرص (يادنانا) وهي جزيرة وسط البحر وطلب الالتجاء هناك ولكنه حتى في هذه الأرض قد لاقى موتًا مخزيًا أمام بهاء سلاح ربي آشور وقد نصبت «اتبعل» على العرش الملكي وفرضت عليه الجزية المستحقة «لي» بوصفي سيده الأعلى - وضربت إقليم «**يودي**» (Ia-u-di) وجعلت **حزقيا** (Ha-za-qi-a-a-a) حاكمها القاهر المتكبر ينحني خضوعًا» [(11)].

في هذا النص تناقضات أكبر مما ورد في النصوص الآشورية الأخرى، ويحق لنا أن نطرح السؤال التالي: لماذا ظهرت لاخيش في أعمال فنان النحت

الأشوري ولم تظهر أورشليم (Ur-Sa-Li-im-m)؟

يرجع كثير من الباحثين الغربيين، إلى أن استعمال مصطلح «يهود» أو «يهودي» لأول مرة كان من قبل سنخاريب. وذلك اعتمادًا على التوراة في تفسير الأحداث. «فقد ورد بالنص الأكدي جملة «حزقيا من يهوذا»، فترجمها الباحث لوكنبيل (D.D. Luchenbill) إلى الإنكليزية (Hezekia the Jew) أي «حزقيا اليهودي». ومن المؤكد أن المعنى في العبارتين مختلف تمامًا. فالنص الأكدي يشير إلى حزقيا من يهوذا كمكان جغرافي. بينما النص الإنجليزي يربط حزقيا بالديانة اليهودية، وبذلك يضع الكاتب النص في إطار المفارقات التاريخية» [(12)].

لاحظ المؤرخون منذ وقت مبكر اختلاف الروايتين الآشورية والتوراتية في ما يتعلق بنهاية حملة سنخاريب، فادعت النصوص الآشورية الانتصار المؤزر على أورشليم وحلفائها، وروت أن حزقيا اضطر تحت وطأة الحصار إلى دفع الجزية التي يدفعها عليه سنويًا، أما نصوص سفر الملوك، فتروي أن الجيش الآشوري حل به الموت الإلهي [(13)].

يستند المؤرخون الغربيون، إلى سفر الملوك الثاني، الذي يذكر أن «ترهاقة ملك كوش» تدخل ضد سنخاريب [(14)]، وكأنه الدليل الذي لا يجوز نقضه على تدخل مصر - وادي النيل إلى جانب حزقيا، فالاسم الوارد في التوراة «ترهاقة» أصبح «طهراقا» ملك مصر - وادي النيل. وفي الحقيقة، فقد وقع المؤرخون في خطأ فادح، فلم يكن السيد «طهراقا» في ذلك الوقت قابضًا على زمام الحكم، فمن المعروف أن «طهراقا» لم يرتق العرش إلا في عام 690 ق.م. وللخروج من هذا المأزق فقد لجأ بعض المؤرخين إلى محاولة التوفيق بين الروايتين التوراتية والآشورية، زاعمين أن «طهراقا» هذا كان قائدًا للقوات المصرية ضد سنخاريب، وبأن «شبتاكا» ملك مصر - وادي النيل في ذلك الوقت، قد استقدمه إلى مصر عام 701 ق.م. وكلفه بقيادة الجيش الذي ذهب إلى فلسطين.

هذا القول، هو ضرب باذئ من التلفيق، يدخل في إطار ترقيع التاريخ، وتشويه الحقائق. فمن الصعب أن يقبل الباحث المستنير بهذه الرطانات التي يأباها فكرنا المستنير؟! فقد أشرنا فيما تقدم، وفي مؤلفنا «موسى وفرعون في جزيرة العرب» أن المقصود بـ «مصر» التوراتية، مقاطعة أو إقليم يمني، وليس وادي النيل، وأنه قصد بـ «كوش» أيضًا إقليمًا يمنيًا، وليس الحبشة [(15)] وبالتالي فإن ما ذكر في أخبار سنخاريب والروايات التوراتية لا يعني مصر - وادي النيل، بل مصر اليمنية، وأن ما جاء في أخباره من مساعدة ملك مصر وكوش حزقيا ضده إنما قصد به هذه المقاطعات العربية.

ونتيجة لهذه الانتصارات التي حققها سنخاريب على القبائل، فإن إطلاق هيرودوتس تسمية ملك العرب والآشوريين على هذا الملك، لها دلالة قوية. فقد رأى غروهمان، «أن هذا الوصف تعبير عن إخضاع سنخاريب (القبائل العربية) لحكمه. وإن كان ذلك قد وقع لأمد محدد» [(16)].

ثالثًا: نبوخذ نصر يهاجم أورشليم

ما زال أصحاب الخطاب التوراتي كعادتهم، يشددون على أن غزوة نبوخذ نصر [(17)] والسبي اليهودي [(18)]، حدثا في بلادنا فلسطين، ولا في أي مكان آخر، بالرغم من أن التنقيب الأثري الذي قلب تراب فلسطين ظهرًا على عقب لم يؤد إلى أي أثر يربط غزوة نبوخذ نصر بها، ولم يتوافر لدينا نصوص ونقوش بابلية تشير إلى الحملة البابلية بقيادة نبوخذ نصر على بلادنا فلسطين، وبالأخص مدينة القدس، وتدميرها.

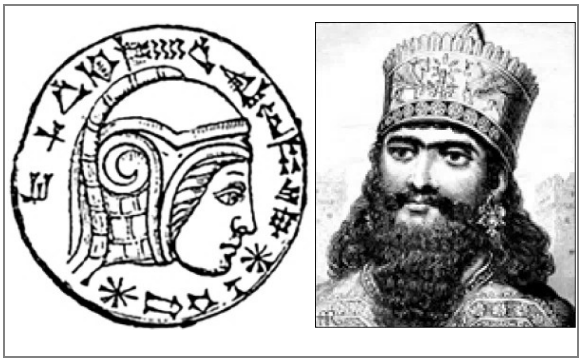

تسجل التوراة في سفر المُلوكِ الثّاني: «كَانَ يَهُويَاقِيمُ ابْنَ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً حِينَ مَلَكَ، وَمَلَكَ إِحْدَى عَشَرَةَ سَنَةً فِي أُورُشَلِيمَ» [(19)].

«فِي أَيَّامِهِ صَعِدَ نَبُوخَذْ نَاصَّرُ مَلِكُ بَابِلَ، فَكَانَ لَهُ يَهُويَاقِيمُ عَبْدًا ثَلاَثَ سِنِينَ. ثُمَّ عَادَ فَتَمَرَّدَ عَلَيْهِ. فَأَرْسَلَ الرَّبُّ عَلَيْهِ غُزَاةَ الْكِلْدَانِيِّينَ، وَغُزَاةَ الأَرَامِيِّينَ، وَغُزَاةَ الْمُوآبِيِّينَ، وَغُزَاةَ بَنِي عَمُّونَ وَأَرْسَلَهُمْ عَلَى يَهُوذَا لِيُبِيدَهَا حَسَبَ كَلاَمِ الرَّبِّ الَّذِي تَكَلَّمَ بِهِ عَنْ يَدِ عَبِيدِهِ الأَنْبِيَاءِ. إِنَّ ذلِكَ كَانَ حَسَبَ كَلاَمِ الرَّبِّ عَلَى يَهُوذَا لِيَنْزِعَهُمْ مِنْ أَمَامِهِ لأَجْلِ خَطَايَا مَنَسَّى حَسَبَ كُلِّ مَا عَمِلَ. وَكَذلِكَ لأَجْلِ الدَّمِ الْبَرِيءِ الَّذِي سَفَكَهُ، لأَنَّهُ مَلأَ أُورُشَلِيمَ دَمًا بَرِيئًا، وَلَمْ يَشَإِ الرَّبُّ أَنْ يَغْفِرَ. وَبَقِيَّةُ أُمُورِ يَهُويَاقِيمَ وَكُلُّ مَا عَمِلَ، أَمَا هِيَ مَكْتُوبَةٌ فِي سِفْرِ أَخْبَارِ الأَيَّامِ لِمُلُوكِ يَهُوذَا؟ ثُمَّ اضْطَجَعَ يَهُويَاقِيمُ مَعَ آبَائِهِ، وَمَلَكَ يَهُويَاكِينُ ابْنُهُ عِوَضًا عَنْهُ. وَلَمْ يَعُدْ أَيْضًا مَلِكُ مِصْرَ يَخْرُجُ مِنْ أَرْضِهِ، لأَنَّ مَلِكَ بَابِلَ أَخَذَ مِنْ نَهْرِ مِصْرَ إِلَى نَهْرِ الْفُرَاتِ كُلَّ مَا كَانَ لِمَلِكِ مِصْرَ. كَانَ يَهُويَاكِينُ ابْنَ ثَمَانِي عَشَرَةَ سَنَةً حِينَ مَلَكَ، وَمَلَكَ ثَلاَثَةَ أَشْهُرٍ فِي أُورُشَلِيمَ، وَاسْمُ أُمِّهِ نَحُوشْتَا بِنْتُ أَلِنَاثَانَ مِنْ أُورُشَلِيمَ. وَعَمِلَ الشَّرَّ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ حَسَبَ كُلِّ مَا عَمِلَ أَبُوهُ. فِي ذلِكَ الزَّمَانِ صَعِدَ عَبِيدُ نَبُوخَذْ نَاصَّرَ مَلِكِ بَابِلَ إِلَى أُورُشَلِيمَ، فَدَخَلَتِ الْمَدِينَةُ تَحْتَ الْحِصَارِ. وَجَاءَ

نَبُوخَذْ نَاصَّرُ مَلِكُ بَابِلَ عَلَى الْمَدِينَةِ، وَكَانَ عَبِيدُهُ يُحَاصِرُونَهَا. فَخَرَجَ يَهُويَاكِينُ مَلِكُ يَهُوذَا إِلَى مَلِكِ بَابِلَ، هُوَ وَأُمُّهُ وَعَبِيدُهُ وَرُؤَسَاؤُهُ وَخِصْيَانُهُ، وَأَخَذَهُ مَلِكُ بَابِلَ فِي السَّنَةِ الثَّامِنَةِ مِنْ مُلْكِهِ. وَأَخْرَجَ مِنْ هُنَاكَ جَمِيعَ خَزَائِنِ بَيْتِ الرَّبِّ، وَخَزَائِنِ بَيْتِ الْمَلِكِ، وَكَسَّرَ كُلَّ آنِيَةِ الذَّهَبِ الَّتِي عَمِلَهَا سُلَيْمَانُ مَلِكُ إِسْرَائِيلَ فِي هَيْكَلِ الرَّبِّ، كَمَا تَكَلَّمَ الرَّبُّ. وَسَبَى كُلَّ أُورُشَلِيمَ وَكُلَّ الرُّؤَسَاءِ وَجَمِيعَ جَبَابِرَةِ الْبَأْسِ، عَشَرَةَ آلاَفِ مَسْبِيٍّ، وَجَمِيعَ الصُّنَّاعِ وَالأَقْفَانِ. لَمْ يَبْقَ أَحَدٌ إِلَّا مَسَاكِينُ شَعْبِ الأَرْضِ. وَسَبَى يَهُويَاكِينَ إِلَى بَابِلَ. وَأُمَّ الْمَلِكِ وَنِسَاءَ الْمَلِكِ وَخِصْيَانَهُ وَأَقْوِيَاءَ الأَرْضِ، سَبَاهُمْ مِنْ أُورُشَلِيمَ إِلَى بَابِلَ. وَجَمِيعُ أَصْحَابِ الْبَأْسِ، سَبْعَةُ آلاَفٍ، وَالصُّنَّاعُ وَالأَقْفَانُ أَلْفٌ، وَجَمِيعُ الأَبْطَالِ أَهْلِ الْحَرْبِ، سَبَاهُمْ مَلِكُ بَابِلَ إِلَى بَابِلَ. وَمَلَّكَ مَلِكُ بَابِلَ مَتَنِّيَّا عَمَّهُ عِوَضًا عَنْهُ، وَغَيَّرَ اسْمَهُ إِلَى صِدْقِيَّا. كَانَ صِدْقِيَّا ابْنَ إِحْدَى وَعِشْرِينَ سَنَةً حِينَ مَلَكَ، وَمَلَكَ إِحْدَى عَشَرَةَ سَنَةً فِي أُورُشَلِيمَ، وَاسْمُ أُمِّهِ حَمِّيطَلُ بِنْتُ إِرْمِيَا مِنْ لِبْنَةَ. وَعَمِلَ الشَّرَّ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ حَسَبَ كُلِّ مَا عَمِلَ يَهُويَاقِيمُ. لأَنَّهُ لأَجْلِ غَضَبِ الرَّبِّ عَلَى أُورُشَلِيمَ وَعَلَى يَهُوذَا حَتَّى طَرَحَهُمْ مِنْ أَمَامِ وَجْهِهِ، كَانَ أَنَّ صِدْقِيَّا تَمَرَّدَ عَلَى مَلِكِ بَابِلَ» [(20)].

انقسم الرأي بين الأورشليميين، فريق يدعو لمحاربة بابل وملكها نبوخذ نصّر، وفريق يدعو إلى عبودية بابل، وأهم هؤلاء كان إرميا النبي، عميل البابليين في أورشليم: «وَأَوْصِهِمْ إِلَى سَادَتِهِمْ قَائِلًا: هكَذَا قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ إِلهُ إِسْرَائِيلَ: هكَذَا تَقُولُونَ لِسَادَتِكُمْ: إِنِّي أَنَا صَنَعْتُ الأَرْضَ وَالإِنسانَ وَالْحَيَوَانَ الَّذِي عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ، بِقُوَّتِي الْعَظِيمَةِ وَبِذِرَاعِي الْمَمْدُودَةِ، وَأَعْطَيْتُهَا لِمَنْ حَسُنَ فِي عَيْنَيَّ. وَالآنَ قَدْ دَفَعْتُ كُلَّ هذِهِ الأَرَاضِي لِيَدِ نَبُوخَذْنَاصَّرَ مَلِكِ بَابِلَ عَبْدِي، وَأَعْطَيْتُهُ أَيْضًا حَيَوَانَ الْحَقْلِ لِيَخْدِمَهُ. فَتَخْدِمُهُ كُلُّ الشُّعُوبِ، وَابْنَهُ وَابْنَ ابْنِهِ، حَتَّى يَأْتِيَ وَقْتُ أَرْضِهِ أَيْضًا، فَتَسْتَخْدِمُهُ شُعُوبٌ كَثِيرَةٌ وَمُلُوكٌ عِظَامٌ. وَيَكُونُ أَنَّ الأُمَّةَ أَوِ الْمَمْلَكَةَ الَّتِي لاَ تَخْدِمُ نَبُوخَذْنَاصَّرَ مَلِكَ بَابِلَ، وَالَّتِي لاَ تَجْعَلُ عُنُقَهَا تَحْتَ نِيرِ مَلِكِ بَابِلَ، إِنِّي أُعَاقِبُ تِلْكَ الأُمَّةَ بِالسَّيْفِ وَالْجُوعِ وَالْوَبَإِ، يَقُولُ الرَّبُّ، حَتَّى أُفْنِيَهَا بِيَدِهِ. فَلاَ تَسْمَعُوا أَنْتُمْ لأَنْبِيَائِكُمْ وَعَرَّافِيكُمْ وَحَالِمِيكُمْ وَعَائِفِيكُمْ وَسَحَرَتِكُمُ الَّذِينَ يُكَلِّمُونَكُمْ قَائِلِينَ: لاَ تَخْدِمُوا مَلِكَ بَابِلَ. لأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَتَنَبَّأُونَ لَكُمْ بِالْكَذِبِ، لِكَيْ يُبْعِدُوكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ، وَلأَطْرُدَكُمْ فَتَهْلِكُوا. وَالأُمَّةُ الَّتِي تُدْخِلُ عُنُقَهَا تَحْتَ نِيرِ مَلِكِ بَابِلَ وَتَخْدِمُهُ، أَجْعَلُهَا تَسْتَقِرُّ فِي أَرْضِهَا، يَقُولُ الرَّبُّ، وَتَعْمَلُهَا وَتَسْكُنُ بِهَا». وَكَلَّمْتُ صِدْقِيَّا مَلِكَ يَهُوذَا بِكُلِّ هذَا الْكَلاَمِ، قَائِلًا: «أَدْخِلُوا أَعْنَاقَكُمْ تَحْتَ نِيرِ مَلِكِ بَابِلَ وَاخْدِمُوهُ وَشَعْبَهُ وَاحْيَوْا. لِمَاذَا تَمُوتُونَ أَنْتَ وَشَعْبُكَ بِالسَّيْفِ بِالْجُوعِ وَالْوَبَإِ، كَمَا تَكَلَّمَ الرَّبُّ عَنِ الأُمَّةِ الَّتِي لاَ تَخْدِمُ مَلِكَ بَابِلَ؟ فَلاَ تَسْمَعُوا لِكَلاَمِ الأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ يُكَلِّمُونَكُمْ قَائِلِينَ: لاَ تَخْدِمُوا مَلِكَ بَابِلَ، لأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَتَنَبَّأُونَ لَكُمْ بِالْكَذِبِ. لأَنِّي لَمْ أُرْسِلْهُمْ، يَقُولُ الرَّبُّ، بَلْ هُمْ يَتَنَبَّأُونَ بِاسْمِي بِالْكَذِبِ، لِكَيْ أَطْرُدَكُمْ فَتَهْلِكُوا أَنْتُمْ وَالأَنْبِيَاءُ الَّذِينَ يَتَنَبَّأُونَ لَكُمْ». وَكَلَّمْتُ الْكَهَنَةَ وَكُلَّ هذَا الشَّعْبِ قَائِلًا: «هكَذَا قَالَ الرَّبُّ: لاَ تَسْمَعُوا لِكَلاَمِ أَنْبِيَائِكُمُ الَّذِينَ يَتَنَبَّأُونَ لَكُمْ

قَائِلِينَ: هَا آنِيَةُ بَيْتِ الرَّبِّ سَتُرَدُّ سَرِيعًا مِنْ بَابِلَ. لأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَتَنَبَّأُونَ لَكُمْ بِالْكَذِبِ. لاَ تَسْمَعُوا لَهُمْ. اُخْدِمُوا مَلِكَ بَابِلَ وَاحْيَوْا. لِمَاذَا تَصِيرُ هذِهِ الْمَدِينَةُ خَرِبَةً؟» [21].

«وَفِي السَّنَةِ الثَّاسِعَةِ لِمُلْكِهِ، فِي الشَّهْرِ الْعَاشِرِ فِي عَاشِرِ الشَّهْرِ، جَاءَ نَبُوخَذْنَاصَّرُ مَلِكُ بَابِلَ هُوَ وَكُلُّ جَيْشِهِ عَلَى أُورُشَلِيمَ وَنَزَلَ عَلَيْهَا، وَبَنَوْا عَلَيْهَا أَبْرَاجًا حَوْلَهَا. وَدَخَلَتِ الْمَدِينَةُ تَحْتَ الْحِصَارِ إِلى السَّنَةِ الْحَادِيَةَ عَشَرَةَ لِلْمَلِكِ صِدْقِيَّا. فِي تَاسِعِ الشَّهْرِ اشْتَدَّ الْجُوعُ فِي الْمَدِينَةِ، وَلَمْ يَكُنْ خُبْزٌ لِشَعْبِ الأَرْضِ. فَثُغِرَتِ الْمَدِينَةُ، وَهَرَبَ جَمِيعُ رِجَالِ الْقِتَالِ لَيْلًا مِنْ طَرِيقِ الْبَابِ بَيْنَ السُّورَيْنِ اللَّذَيْنِ نَحْوَ جَنَّةِ الْمَلِكِ. وَكَانَ الْكِلْدَانِيُّونَ حَوْلَ الْمَدِينَةِ مُسْتَدِيرِينَ. فَذَهَبُوا فِي طَرِيقِ الْبَرِّيَّةِ. فَتَبِعَتْ جُيُوشُ الْكِلْدَانِيِّينَ الْمَلِكَ فَأَدْرَكُوهُ فِي بَرِّيَّةِ أَرِيحَا، وَتَفَرَّقَتْ جَمِيعُ جُيُوشِهِ عَنْهُ. فَأَخَذُوا الْمَلِكَ وَأَصْعَدُوهُ إِلى مَلِكِ بَابِلَ إِلى رَبْلَةَ وَكَلَّمُوهُ بِالْقَضَاءِ عَلَيْهِ. وَقَتَلُوا بَنِي صِدْقِيَّا أَمَامَ عَيْنَيْهِ، وَقَلَعُوا عَيْنَيْ صِدْقِيَّا وَقَيَّدُوهُ بِسِلْسِلَتَيْنِ مِنْ نُحَاسٍ، وَجَاءُوا بِهِ إِلى بَابِلَ. وَفِي الشَّهْرِ الْخَامِسِ، فِي سَابِعِ الشَّهْرِ، وَهِيَ السَّنَةُ التَّاسِعَةَ عَشَرَةَ لِلْمَلِكِ نَبُوخَذْنَاصَّرَ مَلِكِ بَابِلَ، جَاءَ نَبُوزَرَادَانُ رَئِيسُ الشُّرَطِ عَبْدُ مَلِكِ بَابِلَ إِلى أُورُشَلِيمَ، وَأَحْرَقَ بَيْتَ الرَّبِّ وَبَيْتَ الْمَلِكِ، وَكُلَّ بُيُوتِ أُورُشَلِيمَ، وَكُلَّ بُيُوتِ الْعُظَمَاءِ أَحْرَقَهَا بِالنَّارِ. وَجَمِيعُ أَسْوَارِ أُورُشَلِيمَ مُسْتَدِيرًا هَدَمَهَا كُلُّ جُيُوشِ الْكِلْدَانِيِّينَ الَّذِينَ مَعَ رَئِيسِ الشُّرَطِ. وَبَقِيَّةُ الشَّعْبِ الَّذِينَ بَقُوا فِي الْمَدِينَةِ، وَالْهَارِبُونَ الَّذِينَ هَرَبُوا إِلى مَلِكِ بَابِلَ، وَبَقِيَّةُ الْجُمْهُورِ سَبَاهُمْ نَبُوزَرَادَانُ رَئِيسُ الشُّرَطِ. وَلكِنَّ رَئِيسَ الشُّرَطِ أَبْقَى مِنْ مَسَاكِينِ الأَرْضِ كَرَّامِينَ وَفَلَّاحِينَ» [22].

«وَأَمَّا الشَّعْبُ الَّذِي بَقِيَ فِي أَرْضِ يَهُوذَا، الَّذِينَ أَبْقَاهُمْ نَبُوخَذْ نَاصَّرُ مَلِكُ بَابِلَ، فَوَكَّلَ عَلَيْهِمْ جَدَلْيَا بْنَ أَخِيقَامَ بْنِ شَافَانَ» [23].

جدير بالذكر أن نصوص هذه الفترة في ما يخص موضوعنا حروب نبوخذ نصر باتجاه القدس لا تلقي الضوء على أحداث معينة، فلم تترك لنا المملكة البابلية الحديثة سجلات تفصيلية عن حملاتها على سورية وفلسطين.

في هذا السياق، تقول ابتهال عادل إبراهيم، في كتابها **اليهود في المصادر المسمارية**: «تتابعت حملات نبوخذ نصر على المدن في سوريا وفلسطين، ففي شهر أيار من عام 603 ق.م جمع جيشًا كبيرًا وحمل معه أبراج الحصار وسار صوبها دون أية مقاومة منها، وقد يكون الغرض الأساسي من حملته هو تأديب إحدى المدن التي أظهرت العصيان ولكن لا نعرف بالضبط اسم المدينة المقصودة لوجود كسر في الوثيقة البابلية، وهناك من يعتقد بأن أورشليم [القدس] هي المدينة المقصودة» [24].

تخبرنا الحوليات البابلية ما يلي: «السنة السابعة: في شهر (كيسليمو) استدعى ملك أكد نبوخذ نصر جيشه وسار به باتجاه أرض حاتي، وعسكر قباله يهوذا (alla-a-hu-du) [ياحودو] فحاصر المدينة واحتلها في اليوم الثاني من شهر

(آذار)، خلع ملكها، ونصب ملكًا آخر من اختياره، أخذ الكثير من الغنائم من هناك، فأرسلها إلى بابل» [(25)]. من الجدير بالذكر، هنا، أن اسم القدس في يوم من الأيام لم يكن (alla-a-hu-du) [ياحودو].

أما النص المتعلق بتدمير أورشليم [القدس] وفرض الحصار عليها ومدته مفقود، إلا أن «التنقيبات الأثرية في الطبقة العائدة لهذه الفترة التي قام بها الأجانب وجلهم من اليهود قد كشف عن آثار دمار شامل في المدينة يرجع إلى أواخر القرن السادس قبل الميلاد وانقطاع في الاستيطان دام قرابة قرن من الزمان، كما عثر على بقايا جثث نالت منها النيران قد دفنت في مقابر جماعية وفي الكثير منها آثار إصابات حربية، كما كشفت التنقيبات عن دمار في العديد من المدن، علمًا بأن نبوخذ نصر لم يذكر في أي نصوصه المتوفرة حاليًا أيًا من هذه التخريبات التي قيل إن الحفريات أوضحتها» [(26)].

ومن بين الآثار التي افترض المؤرخون وجود علاقة لها بالتدمير البابلي لمدينة القدس على يد نبوخذ نصر، يوردها خزعل الماجدي، في كتابه **تاريخ القدس القديم** كما يلي: - عثر أفيغارد Avigard على البرج (شمال المدينة) على طبقة ثانوية تحتوي على رؤوس سهام، وهو ما يشير إلى نشوب حريق عندما هاجمها البابليون.

- عثر شيلوه في المناطق G,E على طبقة ثانوية محترقة محطمة في البيت الرابع، وبيت أهيل والغرفة المحترقة وبيت الكريّات، وكانت جدرانها وأرضياتها تحتوي على كميات كبيرة من الموجودات مثل الفخاريات والأواني الحديدية والحجرية والأدوات العظمية ومواد ذات خطوط.

- عُثر على درزينات من السهام الحديدية المسطحة من النوع المحلي ورؤوس السهام النحاسية المثلثة من ما يدعى بـ«النوع السكيثي» في بيوت محترقة.

والحقيقة - الكلام ما زال للماجدي - أننا لا نستطيع أن نقرر نهائيًا، من خلال هذه الآثار، حجم هذا الغزو أو هويته بالتحديد. فقد غُزيت مدينة القدس، في العصر القديم، مرات عديدة، ولا يمكننا الجزم المطلق بنسبة هذه الآثار (المحدودة) للبابليين حصرًا [(27)].

بعيدًا من الإشارات الغامضة في النصوص السالف ذكرها (Ia-u da-ai)، (Ia-u-di)، (alla-a-hu-du)، التي فسرها عدد من الباحثين بـ «يهوذا» أو «يهودي»، في حين أن القراءة الدقيقة لهذه الكلمات غير مؤكدة، وأن التحقيق من الاسم مفتوح للنقاش حتى يتم العثور على وثيقة أو دليل مقنع!

---

(1) الكتاب المقدس، «سفر الملوك الأول،» الأصحاح 14، الآيتان 25 - 26.

(2) المصدر نفسه، «سفر أخبار الأيام الثاني،» الأصحاح 12، الآيات 2 - 4.

(3) أحمد الدبش، كنعان وملوك بني إسرائيل في جزيرة العرب (دمشق: خطوات للنشر والتوزيع، 2006)، ص 225 - 226.
(4) جيمس هنري برستد، تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي، ترجمة حسن كمال، ط 2 (القاهرة: مكتبة مدبولي، 1996)، ص 358.
(5) سير ألن جاردنر، مصر الفراعنة، ترجمة نجيب ميخائيل إبراهيم (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973)، ص 361.
(6) توماس طومسون، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ترجمة صالح علي سوداح (بيروت: دار بيسان للنشر والتوزيع، 1995)، ص 211.
(7) عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول، مصر القديمة (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1990)، ص 305.
(8) إسرائيل فنكلشتاين ونيل أشر سيلبرمان، التوراة مكشوفة على حقيقتها، ترجمة سعد رستم (دمشق: الأوائل للنشر والتوزيع، 2005)، ص 207 - 208.
(9) دونالد ريدفورد، مصر وكنعان وإسرائيل في العصور القديمة، ترجمة بيومى قنديل (القاهرة: مكتبة الأسرة، 2014)، ص 481.
(10) محمد الأسعد، مستشرقون في علم الآثار: كيف قرأوا الألواح وكتبوا التاريخ (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2010)، ص 112 - 114.
(11) ابتهال عادل إبراهيم، اليهود في المصادر المسمارية 1000 - 395 ق.م (دمشق: دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، 2014)، ص 177 - 180.
(12) جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودي (عمّان: الأهلية للنشر والتوزيع، 1998)، ص 208.
(13) الكتاب المقدس، «سفر الملوك،» الأصحاح 19، الآيتان 35 - 36.
(14) المصدر نفسه، «سفر الملوك الثاني،» الأصحاح 19، الآية 9.
(15) أحمد الدبش، موسى وفرعون في جزيرة العرب (دمشق: دار خطوات للنشر والتوزيع، 2004).
(16) عارف أحمد إسماعيل، العلاقات بين العراق وشبه الجزيرة العربية منذ منتصف الألف الثالث قبل الميلاد وحتى منتصف الألف الأول قبل الميلاد (صنعاء: مركز عبادي للدراسات والنشر، 1998)، ص 138.
(17) ملك بابلي حكم (562 - 605 ق.م)، ويعرف بالعربية «نبوخذ نصر»، ويرد في سفر أخبار الأيام الثاني، الأصحاح 36، الآية 6 باسم «بخت نصر» والتهجئة الصحيحة للاسم باللغة الأكادية «نبو - كودوررري - ءوشو».
(18) هو ذلك الخبر الذي أوردته التوراة، ولم تؤكده النقوش البابلية ذات الصلة، عن قيام ملك بابل «نبوخذ نصر الثاني» باقتياد أعيان مملكة يهوذا بعد القضاء عليها إلى بابل، وتوطينهم فيها.
(19) الكتاب المقدس، «سفر المُلوكِ الثّاني،» الأصحاح 23، الآية 36.
(20) المصدر نفسه، «سفر المُلوكِ الثّاني،» الأصحاح 24، الآيات 1 -20.
(21) المصدر نفسه، «سفر إرميا،» الأصحاح 27، الآيات 4 - 17.
(22) المصدر نفسه، «سفر الملوك الثّاني،» الأصحاح 25، الآيات 1 - 13.
(23) المصدر نفسه، «سفر المُلوكِ الثّاني،» الأصحاح 25، الآية 22.
(24) إبراهيم، اليهود في المصادر المسمارية 1000 – 395 ق.م، ص 195 - 196.
(25) المصدر نفسه، ص 197.
(26) المصدر نفسه، ص 197 - 198.
(27) خزعل الماجدي، تاريخ القدس القديم منذ عصور ما قبل التاريخ حتى الاحتلال الروماني (عمّان، دار غيداء للنشر والتوزيع، 2017)، ص 219 - 220.

الفصل الثاني عشر
لوثة ظاهرة أورشليم المرضية

عنوان هذا الفصل مستعار من مقال الباحث الصهيوني يوفال غورين الذي تناول ظاهرة التلفيق منذ وقت قريب، وسرد قصصًا تتعلق بالتلفيق والملفقين، وحلل في مقاله نوعًا من الأعراض المرضية أو الخبل الذي يصيب من يزور القدس أو يعيش فيها فيحوله «إلى إنسان يتصرف تصرفات شاذة وتنتابه هلوسات توراتية». وربط بين هذه اللوثة وبين ملفقي الآثار الذين يستغلونها لرفع أسعار منتجاتهم، وتساءل عمّا «إذا كان لا يزال يسيطر على علم الآثار التوراتي الهواة والدجّالون». ولكن هذا الموظف في دائرة الآثار «الإسرائيلية» يتجنب ربط هذه الظاهرة القديمة، قدِم وفود علماء الآثار التوراتيين على فلسطين، بالفكرة الصهيونية المخبولة القائمة على محو المكان الفلسطيني بماضيه وحاضره، بسكانه وعمائره وجغرافيته وتاريخه، وإحلال مكان وهمي مصدره الروايات اللاهوتية محله، وتوسل كل الوسائل في سبيل هذه الغاية.

وقد تبين من التحقيقات التي جرت في أوائل القرن الحالي أن هناك شبكة محتالين واسعة يعمل فيها ملفقو قطع أثرية ونصوص وناشرون صحافيون وخبراء لغات وعلماء تاريخ... إلخ. ولوحظ أن أسماء معينة تتردد في كل حالة ينكشف فيها تزوير أو تلفيق، مثل اسم عالم الساميات الفرنسي أندريه لومييه والناشر لمجلة **بيبليكال آركيولوجي ريفيو** الأمريكي هيرشل شانكس، وظيفتهم هي الترويج لهذه القطع حال ظهورها بالقول إنها «أدلة ملموسة» أو إنها «قطع لا سبيل للشك في أصالتها»... وما إلى ذلك [(1)].

أولًا: الرمانة العاجية

«رمانة العاج»، مجسم من العاج على شكل رمانة بارتفاع نحو من 4 سنتمترات، مثقوبة من الأسفل، قيل إنها كانت رأس صولجان يستخدمه الكهنة في الطقوس الدينية في الهيكل. ما برر هذا القول كتابة عليها منقوشة تقول: «مكرسة بقداسة للكهنة. هيكل يهوه» [(2)].

الصورة الرقم (١٢ - ١) رمانة العاج

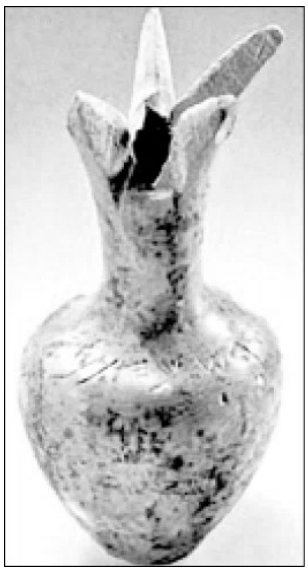

وفي مقالين، نشرهما العالم الفرنسي في الخطوط القديمة أندريه لومييه عام 1981، في **المجلة التوراتية**، ثمّ في **مجلة الأركيولوجيا التوراتية**، أوضح هذا الأخير، بأنه تفحص القطعة المشار إليها في عام 1979 حين عرضها عليه أحد أصدقائه من تجار العاديات، من دون الإشارة إلى اسم ذلك الصديق. وقد اكتسب لومييه شهرة عالمية بسبب تلك الرمانة العاجية، على اعتبار أن شهادته الإيجابية على تاريخيتها كانت لها أهمية كبرى بالنسبة إلى المدافعين عن صحة المرويات التوراتية لأن محتوى الكتابة، على الرغم من اقتضابه، يشير إلى أن الرمانة تلك هي تقدمة «إلى كهنة معبد يـ...» وطبعًا اعتبر لومييه أنها تقدمه إلى كهنة معبد يهوه. وفي ذلك أول شهادة على أنها تمثل إحدى بقايا محتويات معبد سليمان في القدس، وهذا يعني الوجود التاريخي لذلك المعبد! وليس من الصعب عندئذٍ فهم الشهرة العالمية لأندريه لومييه بسبب تأكيده هذا.

وبسبب الشهرة التي اكتسبتها الرّمانة العاجية، «رمانة المعبد»، فقد كانت من بين المعروضات في عام 1987 في «القصر الكبير» في باريس، وبعد سنة واحدة من ذلك التاريخ، اشتراها متحف «إسرائيل» ودفع ثمنها مبلغ 550000 دولار أمريكي، قدّمه إلى «إسرائيل» أحد الأثرياء الأمريكيين [(3)]. وأرسل المتحف أحد أبرز علماء النقوش «الإسرائيليين»، نحمان افيغاد (Nahman Avigad) إلى سويسرا لفحص الرمانة واستلامها فقرر أنها حقيقية. ومنذ عام 1988 عرضت في المتحف «الإسرائيلي» وقد احتفي بها إذ هي الوحيدة في ممتلكاته التي تنص على وجود الهيكل بصراحة [(4)].

وبعد ما نسمّيه «التطبيل والتزمير» لأهمية اكتشاف هذه القطعة، وبسبب تقدم معلومات اليوم ووسائلها لكشْف التزوير، فقد ثبت بنتيجة تحقيق

«السلطة الإسرائيلية للعاديات»، أن الكتابة تمّت إضافتها حديثًا على رمّانة عاجية قديمة! [5].

فقد تولى فحصها يوفال غورين، الذي أخذت وسائل الإعلام تصفه بـ «التحري الآثاري»، إذ تبين له، وفريق المختصين الذين عملوا معه، أن «الرمانة نفسها قديمة إلا أن الكتابة المنقوشة عليها حديثة لا تنتمي بحال إلى «عصر الهيكل»، وأن شخصًا ما التقط تلك الرمانة القديمة ونقش عليها العبارة التي تدل على أنها كانت من موجودات الهيكل. وقد أقرت سلطة الآثار «الإسرائيلية» بالنتائج التي توصل إليها غورين وفريقه وأعلنت أن الرمانة مزيفة، وإن كانت قررت إبقاءها معروضة في المتحف كنموذج لأعمال التزييف» [6].

في هذا السياق، نشر موقع bbc.arabic.com خبرًا، بتاريخ (25/12/2004)، تحت عنوان: «الرمانة العاجية ليست من زمن سليمان»، مفاده: «توصل الخبراء حاليًا وبشكل قاطع إلى أن الأثر أقدم كثيرًا من الاعتقاد الأول، ورجحوا أنه يرجع للقرن الثالث عشر أو الرابع عشر قبل الميلاد وليس الثامن قبل الميلاد الذي كان زمن سليمان. وكان الباحثون يعتقدون أن الرمانة هي الجزء الأعلى الموضوع للتزين في صولجان كاهن، وذلك اعتمادًا على نقش يقول: «ينتمي لمعبد الرب، مقدس للكهنة». ومؤخرًا قال المسؤولون إن النقش العبري أضيف للأثر حديثًا» [7].

ذكرت صحيفة **هآرتس** «الإسرائيلية»، في عددها الصادر في 26/3/2004، أن «طاقمًا من علماء الآثار «الإسرائيليين» العاملين في سلطة الآثار أعاد فحص «رمانة العاج» وأقر بأنه مزيَّف وكذلك تبين وجود مكتشفات أثرية أخرى مزيفة. ويقول المسؤولون في سلطة الآثار «الإسرائيلية» إن اكتشاف أمر أعمال التزييف هذه سيسبب مشكلة لا تقدر بثمن لعلم الآثار «الإسرائيلي»، إذ هناك عدد كبير من الأبحاث والنظريات في علم الآثار التي استندت إلى المكتشفات المزيفة». وقالت **هآرتس** إن «رمانة العاج» ليست «المكتشف الأثري» المزيف الوحيد الذي ارتبط باسم عالم الآثار الفرنسي أندريه لومييه، فقد أعلن في الماضي أن مكتشفًا أثريًا يعود إلى يعقوب شقيق المسيح هو مكتشف أصلي وحقيقي ولكن سرعان ما تبين أن المكتشف مزيف... كما وجمع أفراد قسم مكافحة السرقات في سلطة الآثار وطاقم شعبة مكافحة الغش في الشرطة «الإسرائيلية» المواد اللازمة لإثبات أعمال تزييف مكتشفات أثرية وحولتها للنيابة العامة «الإسرائيلية» التي ستقدم لوائح اتهام ضد المتورطين في أعمال التزييف. ونقلت **هآرتس** عن مصادر التحقيق قولها إنه وصلت في الآونة الأخيرة مواد جديدة إلى أيدي المحققين تثبت أن عددًا من «المكتشفات الأثرية» المزيفة تم اقتناؤها من غولان، رئيس شبكة المزيفين [8].

ثانيًا: نَقْش تل القاضي (بيت داود) إن الوثائق الأثريَّة، لا تَذكُر مملكة «إسرائيل» قط ؛ كما لا تأتي على أي ذِكر لداود، أو سليمان، في بلادِنا فلسطين. ولكن يرى بعض الأثريّين التوراتيّين؛ أنه يتعيَّن الآن تخفيف حِدَّة الهجوم على داود، مع اكتشاف نقوش «تل القاضي/Tel Dan» (المؤرخ في نهاية القرن التاسع ق.م وبداية القرن الثامن ق.م).

فـ «خلال موسم التنقيب، للعام 1993، بموقع «تل دان» المزعوم؛ اكتشفَ عالِم الآثار الإسرائيلي أفراهام بيران (Averaham Biran) قِطعة من نقشٍ محفور على الحَجَر؛ سرعان ما صار موضِع جَدَل حامي الوطيس، بين الباحثين الكتابيّين؛ نظرًا إلى أهميته في الإجابة عن السؤال المتعلِّق بتاريخيَّة المَلِك داود. والأهمية تأتي من ورود تعبير «بيت داود» Betdawod، في السطر التاسع من القطعة الأولى للنَقش. وبعد هذا الاكتشاف بسنتيْن؛ أي عام 1995، عُثِرَ على نقشيْن آخريْن، قد تكون القطعتان الجديدتان، جزءًا من القطعة الرئيسيَّة، التي احتوت على النقش السابق، وربما لا؛ وقد جَرَت العادة، على الإشارة إلى هذه القِطع الثلاث، بالرموزِ (A) للأولى، و(B1)، و(B2)، للقطعتيْن الجديدتيْن» [(9)].

الصورة الرقم (١٢ - ٢) نَقْش تل القاضي (بيت داود)

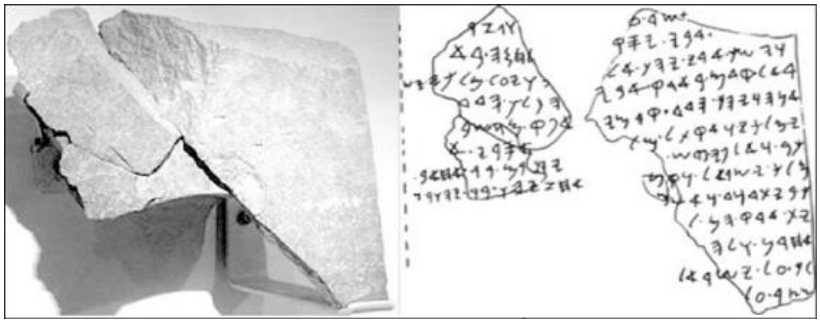

بعد ذلك كله؛ **يتبقَّى السؤال الأهم؛** هل هناك إشارة في النص إلى الملك داود؛ أو إلى يهوذا؟ يزعُم الباحثون التوراتيّون، أن هذه النقوش ذُكِرَ فيها داود. فقد نظر هؤلاء إلى الإشارة إلى تعبير «بيت داود» Betdawod، في السطر التاسع من النقش، على أنها لا تُثبِت وجود داود التاريخي، فحسب، وإنما تؤكِّد صِحَّة روايات التوراة، حول الملك داود.

لكن هذا يتناقض مع المنهج المُتحفِّظ لعلماء الآثار؛ الذين نقَّبوا عن هذه القطعة، ويتعارض مع ما نشروهُ من هذا الجزء؛ فيَذكُرُ العالِمان؛ بيران، ونافيه؛

أن طبيعة المصادر التوراتيَّة من جانب، والطبيعة الجزئيَّة لنقشِ «دان»، من جانب آخر؛ لا يسمحان لنا باستنتاجات قاطِعَة؛ قد تكون هناك تفسيرات أخرى مُحتَمَلَة؛ ولن يُمِدّنا بالدليل، إلا اكتشاف قِطَع إضافيَّة، من هذا النقش، للإجابة عن الأسئلة، التي أثارتها اكتشافاتنا لهذه العيِّنَة.

أما العلّاَمة طومسون؛ فيَذكُرُ في كتابِهِ **الماضي الخرافي (التوراة والتاريخ)**: «.. ك بيتدود». سرعان ما قُرِئت الأحرف (ملك بيت داود). وقد حُدِّدَ تاريخ النقش، بأوائلِ القرن التاسع قبل الميلاد. كان يُعتَقَد أنه يروي قِصَّة معركة، وُصِفَت في سِفرِ الملوك الأول (15: 16 ـ 20)؛ وهو حَدَث يعود تاريخه إلى عام 883 ق.م. هذا النَقش الجديد، لم يَكُن، فقط، أقدم إشارة معروفة إلى مَلِك إسرائيل، وإن يَكُن غير مُسمَّى؛ بل رُعِمَ، أيضًا، أنه يُقدِّم الدليل القاطِع، على أن داود الكتاب، كان موجودًا ذاتَ مَرَّة، وكان المؤسِّس للسلالة الحاكِمة ليهوذا، في أورشليم. وقد احتفت المجلات العلميَّة، إضافة إلى الصُحف، والمجلّاَت الشعبيَّة، بهذا الاكتشاف بحماسة كبيرة. مع ذلك كان ثمَّة مشاكل مع الاكتشاف، مع قراءةِ النص، وتأريخِهِ، وتفسيرِهِ، لم تُحَل حتى الآن. ويستطرِد طومسون، بقولِهِ: «إن قراءة [حرف] (ك)، على أنه الحرف الأخير من كَلِمَة (مَلِك)، إنما كان مجرَّد تخمين بالطبع، لا شيء في النقشِ ذاتِهِ، يقضي بأن تربط كلمة، أو اسم «بيت داود»، مباشرة، بأورشليم، أو يهوذا، فقد كان من الممكن أن تُشير إلى مكان، أقرب كثيرًا إلى (تل دان). كما في أسماء أماكن كثيرة؛ فإن (بيت) يمكن ترجمته بمعنى بَيْتْ، ويعكس اسم المحميَّة التي تَحكُم البلدة. كذلك، بشكل عام، خصوصًا، عندما يُضَم إلى اسم، أو نعت إله، أو آلهة، ترجمته بمعنى (معبد/هيكل)، هذا ما نجدهُ، بين أسماء أماكن في فلسطين، مثل بيت إيل [تعني معبد الإله]، وبيت دجن». يضيف طومسون، أن الكِتاب لا يستعمل المُصطلح «بيت داود»، بالطريقة التي يستعمل بها البريطانيّون مصطلحًا مشابهًا، هو «بيت ستيوارت» (House of Stuurt)؛ أي بالمعنى المحدَّد لسلالةٍ حاكِمَة. ويُتابِـــــع طومسون، تحليله لهذا النَقش، قائـلًا: «عندما تمَّ نشر المزيد من كسر النقش، أو النقوش المُتَّصِلَة بِهِ؛ أصبح إثبات أن القراءة الأصليَّة أكثر مراوغة. في حين أنني، أصبحت مُقتنعًا بأن الكسر المنشورة، تعود في الحقيقة، ليس إلى نقش واحد؛ بل إلى نقشيْن مرتبطيْن مختلفيْن؛ فقد وجد باحثون آخرون، مؤشِّرات قادتهم إلى المُجادَلَة، بأن النقشيْن هما شيئان مُزَيَّفان. في الوقت الحالي؛ فإن هذه القضية غير محلولة، وتَنتظر تَقصِّي إدارة (إسرائيل) الآثاريَّة» [(10)].

«إن هذا النقش، الذي دخل في «عِلم الآثار التوراتي»، على أنه أول وثيقة من «مصدر مُستقِل»، تُثبِت الصِلَة ما بين الرواية التوراتيَّة، والآثار، لم يستطع أن يقف صامدًا أمام النقد الصارم، الذي وُجِّهَ له، والذي أظهر، في النهاية، أنه «مُزيَّف». وقد أثبت الزيف، طائفة من عُلماءِ الآثار، واللاهوت، واللُّغات

الساميَّة القديمة، والنقوش «الإبيغرافيا»؛ كان أهمها فرد كراير، والمُستشرِق الإيطالي جيوفاني غاربيني (Geovani Garbini)، الذي عدَّتهُ أوساط الدراسات التوراتيَّة، بمثابة الخوارجي الرجيم، بعد أن نَشر كتابه المعروف «History and Ideology in Ancient Israel»، عام 1986. وعلينا هنا ألّا ننسى، أن غاربيني، هو باحِث، على درجة عالية من الكفاءة، في اللغاتِ الساميَّة الغربيَّة، وبضمنِها الآراميَّة.

لقد عَبَّرَ غاربيني، عن اقتناعِهِ التام، بأن نَقش «تل دان»، هو نَص مُزوَّر. وأن الحالة الماديَّة، للنُصُبِ الحجري، هي أفضل من أي نُصُب آخر، ينتمي إلى تلك الفترة. إنه يبدو وكأنه نَص نُقِشَ حديثًا. أما لغتهُ فآراميَّة، ذات طابع عام، أي إنها تحتوي على ذخيرة من الكلمات المتداولة، في غير العصر الذي ينتمي إليه النَقش، قد احتوى على كلمات، تنتمي إلى عصرِهِ. ومن ناحية ثانية، يرى غاربيني تشابُهًا في أسلوب التعبير، والأفكار، بين نَقش «تل دان»، ونَقش ميشع ملك مؤاب. وهذا يعني أن الشخص الذي كَتَبَ نص «تل دان»، كان مُطَّلِعًا على نَص «ميشع»، وأنه قلَّد العديد من جُملِهِ، وعباراتِهِ.

أما الباحث كراير، فيبني نظريَّتهُ في تزوير النَص، اعتمادًا على فحصِهِ المباشر لقِطَع النَقش، في متحف «إسرائيل». وقد بَسط نظريَّته هذه في محاضرة شفهيَّة، ألقاها في ندوة متخصِّصة بكوبناغن، منذ عِدَّة سنوات؛ حيث وَزَّع على الحضور، صورة فوتوغرافية التقطها زميله الأمريكي رونالد غميركن (Ronald Gmyrkin)، للقطع في متحف «إسرائيل» بالقدس. تُظهر الصور الجوانب المكسورة من القطعة (A)، وعليها آثار من الأزميل، الذي استخدمه من كَتب النَقش على الحجر، بحيث إن رسم بعض الحروف، قد استمر من السطح الأمامي للنَقش، إلى الجانب المكسور. وبما أنه من المفترض، أن الكاتب قد نَقَشَ نَصَّهُ على سطح النُصُب، قبل أن ينكسر؛ فإن مثل هذه البقايا على الجوانب المكسورة، لا يمكن أن تدل إلا على أن الكِتابة لم توضَع على قطع مكسورةَ، في الأصل، وأنها حديثة العهد» [(11)].

ثالثًا: نَقْش يهوآش

نقش يهوآش عبارة عن لوح حجري أسود مستطيل الشكل أبعاده لا تزيد عن أبعاد صفحة الآلة الكاتبة (33×27 سم)، حفر عليه 15 سطرًا بالقلم الفينيقي الآرامي الذي كان مستخدمًا في كتابة اللغة الكنعانية الفلسطينية بلهجاتها المتنوعة، والذي يدعوه معظم الباحثين التوراتيين بالخط العبري القديم.

والمتحدث في هذا النقش هو الملك يهوآش الذي حكم في أورشليم، وفق المعلومات التوراتية، من عام 835 إلى 804 ق.م. وهو يتحدث هنا عن قيامه بتجديد هيكل سليمان.

وقد ورد في النقش حسب ترجمة F.M Cross ما يلي: 1 - [أنا يهوآش بن أ]
2 - حزياهو، ملك يهوذا.
3 - لقد أنهيت العمل في (ترميم) هذا البيت،
4 - عندما بلغ كرم الناس تمامه.
5 - أناس من كل الديار وكل السهوب،
6 - قدموا الكثير من الهبات المقدسة
7 - لشراء أحجار المقالع وشجر العرعر،
8 - وأخشابٍ ونحاسٍ آدومي. وذلك
9 - بكل إيمانٍ صادقٍ.عندها قمت
10 - بترميم الهيكل ومستدير سوره،
11 - والبناء المدرج، وشبكيات النوافذ،
12 - والأدراج اللولبية، وكوى الجدران
13 - والأبواب. وهذا اليوم سوف يغدو
14 - شاهدًا على نجاح هذا العمل.
15 - عسى يهوه أن يكتب البركة لشعبه [(12)].

«يغطي اللوحة غشاء تعتيق تظهر فيه ذرات كربونية، وأيضًا ذريرات من الذهب الخالص. وقيل إن ذرات الكربون كانت قد علقت بالنقش نتيجة لاحتراق المعبد على يد البابليين، أما ذريرات الذهب فكانت قد علقت بالنقش من تطاير صفائح الذهب المذاب في عملية الاحتراق هذه، وهي كانت تغطي جدران الهيكل كما تزعم الحكاية الكتابية» [(13)].

وقد أعلن رسميًا عن النقش في الثالث عشر من كانون الثاني/يناير 2003، وكانت الجهة التي أعلنته هي مركز «المسح الجيولوجي إسرائيل» التابع لوزارة البنى التحتية. وكان المسؤولون عن هذا الإعلان ثلاثة باحثين من المركز هم شمعون إيلاني (Shimon Utenberg) وروزنفيلد (Amnon Rosenfeld) ومايكل دفورشيك (Michael Dvorchik)، وهم كانوا قد فحصوا النقش وأجروا عليه الاختبارات العلمية اللازمة وثبت لديهم نتيجة ذلك أنه «موثق به وأصيل» [(14)].

الصورة الرقم (١٢ - ٣) نَقْش يهوآش

وقد أثبت كثرة من الباحثين الإسرائيليين زيف النقش وبطلان تاريخيته. من هؤلاء ناداف نعمان (Nadav Neeman)؛ المؤرِّخ، والأستاذ في جامعة تل أبيب؛ فقد ألقى ظلالًا كثيفة من الشكِّ، على هذا النَقش، حتى مالَ إلى رفضِهِ، وهو يُعلِّل ذلك بما يلي: «إن النقش مثير للشَك، والجَدل؛ فهو ليس كأي نَقش ملكي، من الشرق الأدنى القديم، أنا على دراية به، فهو وحيد في نوعِهِ، في جميع الأحوال، إنه يحتوي على كلمات عديدة لا تظهر في التوراة، وخاصة خاتمة هذا النَقش، المُفترَض به أن يكون ملكيًا، وهي تدعو إلى أن تَحِل بَركة الرب على الشعب، ذلك بأن النقوش الملكيَّة من الشرق الأدنى القديم المعروفة لدينا، تنتهي عادة بإنزال اللَّعنة، على أي شخص يصيب النقش بالضرر، أو تنتهي أحيانًا باستمطار البركة، على الشخص الذي كَتب النَقش، أما الدعاء بالبَركة على الشعب، فليس هناك شيء آخر يُشبِهُهُ». كذلك يرى أن التأكيد الذي جاء في النَقش، على مساهمة الشعب في «يهوذا» بأعمال الترميم، التي قام بها «يهوآش» في المعبد، هي حالة فريدة، لأن العادة جَرت في النقوش المَلكيَّة، على تأكيد المَلك على نشاطاتِهِ هو شخصيًا، مع تجاهُل تام لجميع الآخرين، الذين شاركوا في البناء؛ ومع هذا فهو يتساءل: أليس من

الجائز أن يكون مُلوك «يهوذا»، قد كتبوا بأسلوب مُغايِر لما فعلهُ أندادهم غير اليهود، في الشرق الأدنى القديم؟ وهو يُجيب بأن الوسيلة الوحيدة لإثبات، أو عدم إثبات الزَعم، بوجود أسلوب كِتابة مختلف في «يهوذا»، هي العثور على نَقش ملكي يهوذي آخر، يمكن أن يُشكِّل أساسًا للمقارنة.

غير أن الشكل الأسلوبي للنَقش، لم يكن هو موضوع النقد الوحيد، فقد توقَّف آخرون عند اللُّغة المُستخدَمَة فيه؛ وفي هذا الصدد، توصَّل إد. غرينشتاين (Ed Greenstein)، خبير اللُّغات الساميَّة، والأستاذ بجامعة تل أبيب، إلى أن هناك استعمالات لُغويَّة، وردت في النَقش، لا تنتمي إلى عبريَّة القرن التاسع قبل الميلاد - الزمن المُفتَرَض للنَقش - بل هي استعمالات أَخَذَت دلالاتها، بعد ذلك بقرون، وأساء، أو أخطأ من اختلق هذا النَقش، عندما أدرجها في النقش على أنها قديمة؛ ومن هذه الاستعمالات تعبير (ب ي د ك ب ا ي ت) (bedek bayit)، وِفْقَ ما رسمهُ غرينشتاين بالأحرف اللاتينيَّة، الذي يعني في العبريَّة التوراتيَّة «تشقُّقات البيت»؛ وقد وَرَدَ في النَقش، أن «يهوآش»، هو مَن صَنع هذه التشقُّقات، ما يعني أن هذه التشقُّقات، قد حدثت بسَبب تصدُّعات في البِناء، وخرابه، وهو خِلاف ما قُصِدَ من النَقش؛ فقد أراد مُختلِقَهُ أن يقول، إن «يهوآش» عَمل ترميمات في البيت، فاستعار تعبير «bedek»، كما تطوَّر في العبريَّة الحديثة، بمعنى «الترميم»، دون أن يعرف مدلولَهُ القديم؛ كذلك استعمل مُختلِق النَقش كلمة (ي د وت) (edut)، بمعنى الشاهِد؛ «ليكُن هذا اليوم شاهدًا على العمل؛ بينما لم تعرف العبريَّة التوراتية القديمة هذه الكلمة بهذا المعنى؛ فقد كانت تُشير إلى معنى «الميثاق»، أو «الاتفاق»، وتطوَّر بعض مشتقَّاتها في العبريَّة الحديثة، ليَعني «الشاهد»، فانتزعها المُختلِق من هذا الاستعمال الحديث، واستخدمها في النَقش «القديم»، ويستخلِص غرينشتاين، من هذيْن المِثاليْن، وغيرهما، أن النَقش مزوَّر، بالتأكيد.

كذلك تعرَّضت الأحرُف، التي كُتِبَ بها النَص للنقد الشديد، وهي قد أظهرت زَيف النَقش، فروبرت دويتش (Robert Deutsch) - من جامعة حيفا، وهو نفسه تاجر آثار - وَجَدَ أن النَقش عبارة عن «تزييف هزيل، وكائن خُرافي هَجين؛ فقد جَمع معًا، ما بين الأحرف المؤابيَّة، والفينيقيَّة، والعبريَّة»، كما ذهب إلى هذا الرأي كريستوفر رولستون (Christopher Rollston)، الخبير بالنقوش الساميَّة القديمة، ورئيس تحرير مجلة *Maarav* المتخصِّصة باللُّغات، والكِتابات الساميَّة، الذي رأى أنه «ليس من الصعب فضح التزوير في النَقش؛ لأنه ليس مُتقَن الصُنع؛ فهو يختلف كلِّيًا عن جميع النقوش المؤكَّدَة، التي تعود إلى لُغَة عصر الحديد العبريَّة - من حيث الدمج بين أشكال من أزمِنة، ولُغات مختلفة - حتى إنه لا يمكن أن يُؤخَذ بجدِّية، على أنه قديم».» [(15)].

قام يوفال غورين (Yuval Goren)، الأستاذ في دائرة الآثار وثقافات الشرق الأدنى القديم بجامعة تل أبيب، بفحص النتائج التي توصل إليها جيولوجيو

المركز المذكور كما أعلنوها في تقريرهم الرسمي، وتوصل إلى عدد من الخلاصات المهمة التي تنقض من الأساس تلك النتائج، فبالنسبة لغشاء التعتيق، وهو ما عوّل عليه الجيولوجيون كثيرًا لإثبات قدم اللوحة، بيّن أن تركيبته الكيميائية المعلنة لا يمكن أن تكون قد تكونت بمنطقة القدس ولا في المنطقة الهضبية جميعًا التي تقع فيها المدينة، وذلك لاختلاف مكونات التربة في هذه المنطقة عن المكونات التي دخلت في تركيبة الغشاء، كذلك عرض لعمر الذرات المكربنة العالقة بالغشاء باعتماد مقياس الكربون المشع (الكربون 14) فأوضح الأخطاء التي وقع فيها الجيولوجيون في طريقة احتسابها، أما ذريرات الذهب الكامنة خلف الغشاء والتي ذهب الجيولوجيون إلى أنها من الذهب الذي كان يغشى جدران «الهيكل» والتي ذابت نتيجة حرق البابليين إياه، فقد سخر غورين منها ومن الجيولوجيين الذين فحصوها، فقال إنه «إذا كانت ذرات الذهب قد نجمت من حريق هيكل سليمان المحترق، فإن النقش عند ذاك يدحض التوراة بدلًا من أن يبرهن عليه، لأن الهيكل وفق سفر الملوك الثاني كان قد انتهبه البابليون بالكامل قبل أن يحرقوه».

كُشف التزوير إذًا، وظهر الحجر على حقيقته عاريًا من الصحة، وكان على سلطة الآثار الإسرائيلية أن تتدخل وتقول كلمتها، وهي صاحبة الاختصاص، في هذا الذي يجري وينبعث منه ضجيج كبير ساد الأوساط الأكاديمية المهتمة بالآثار والدراسات التوراتية معًا، وقد جاء تدخلها ليس فقط بسبب ما أثاره «نقش يهوآش» من جدل، بل أيضًا بسبب ضجة مماثلة زامنته وقد تسبب بها «اكتشاف» مثير آخر - أعلن عنه مع «اكتشاف» النقش - لصندوق حجري مخصص لدفن عظام الموتى (ossuary) نقشت عليه عبارة «جيمس بن يوسف أخو المسيح»، وهو الذي اعتبر أول دليل آثاري على الوجود التاريخي للسيد المسيح، ومثلما تصدى علماء عديدون لـ «نقش يهوآش» وأثبتوا زيفه، كذلك فعل آخرون بما أصبح يعرف بـ «صندوق جيمس» وبينوا زيفه أيضًا مع وجود معارضة شديدة واجهوها من جانب من صدّق بتاريخية هذا الصندوق.

وفي ظل هذه الأجواء تحركت سلطة الآثار الإسرائيلية للإدلاء برأيها في هذين «الأثرين» ومن أجل ذلك شكلت لجنتين لفحصهما من علماء مختصين وأساتذة جامعات، إحداهما لفحص النقوش عليهما من حيث شكل الحروف وقواعد اللغة وبناء الجمل، والأخرى لفحصهما ماديًا (فيزيائيًا)، وقد «أعلنت السلطة نتائج ما توصلت إليه اللجنتان يوم 18 حزيران 2003، وأكد تقريرها أن «الأثرين» كليهما مزوران استنادًا إلى فحص النقوش عليهما، واللغة التي كتبا بها، والمادة التي صنعا منها، وغشاء التعتيق الذي غلفهما» [(16)].

رابعًا: نقش السلوان

يستعين أصحاب، وأنصار الخطاب التوراتي، ببعض النقوش الآثاريَّة التي اكتُشِفَت في بلادنا فلسطين، ومنها ما يُعرَف بـ «نقش السلوان»، وهو كتابة، كانت منقوشة في حائط نَفَق، بقريةِ سلوان، المجاورة للبلدة القديمة في القدس. يُخلِّد النَقش مشروع حفر النفق، الذي تم استخدامهُ، لتسييلِ مياهِ نَبع أم الدرج، أو نبع جيحون، أو نبع العذراء، إلى داخل أسوار مدينة القدس. تم العثور على «نقش سلوان»، في عام 1880، أيام حُكم الدولة العثمانيَّة على القدس. في عام 1891، قَطع مجهول، الحائط الذي حَمل النَقش، وأخرجَ النَقش من النفق. وُجِدَ النَقش مكسورًا، وبعد ترميمه، تم نقله إلى متحف إسطنبول الأثري.

الصورة الرقم (١٢ - ٤) نقش سلوان

تناول إسرائيل ولفنسون، في كتابِهِ **تاريخ اللُّغات الساميَّة**، قراءة النقش كما يلي: (1) النفق. هذا خبر النفق: بينما (النحاتون) يرفعون

(2) الأزمة [= معول] كل رجل إلى رفيقه وبينما (بقي) ثلاثة أذرع للنحت، سُمع صوت رجل ينادي

(3) أخاه لأنه وجد ثقبًا في الصخر من ناحية اليمين، وفي يوم

(4) انتقابه [= ثقبه] ضرب النحاتون رجل أمام رجل (متقابلين)، أزمة [= معول] على أزمة [= معول]، وذهبت [= سالت]

(5) المياه من النبع إلى البركة مسافة مائتين وألف ذراع ومائة

(6) ذراع. وكانت قمة الجبل فوق رأس النحاتين

إذًا يصف النقش «عمليَّة النحت في الجبل، لجلبِ مياه النبع، إلى بِركة، وُجِدَت داخل سور المدينة». هذا النقش مكتوب بالقلم العبري القديم الذي يقرب في هجائه من النقوش الكنعانية التي لا تستعمل بعض الحروف للدلالة على الحركات [(17)].

يذهب كارل بروكلمان، في كتابه **فقة اللغات السامية** إلى أن «أقدم مصادر الخط العبري بالنسبة لنا، هو نقش السلوان» [(18)].

ينتقد محمد بهجت قبيسي، قراءة ولفنسون للنقش المسمّى «نقش سلوان»، في بحثه «التزوير الصهيوني للنقوش والآثار: القدس نموذجًا» بالقول: ولفنسون «يصادر الحرف الكنعاني الصريح ليجعله عبريًا توراتيًا. هذا الخط الذي كُتِبَتْ به كل النقوش الكنعانية والآرامية القديمة إلى جانب خطوط أخرى كالنبطيّة والتدمرية»، ويعيد القبيسي قراءة وتفسير النقش المسمّى «نقش سلوان» كما يلي: (1) ها نقبه وذا ها هي، ها دبّرها نَقَّابَهْ، بعوّير [التفسير: هذا النقب (النفق) وذا ها هي ها قد دبّرها نُقّابْ بعوّير [بيت عوّير (عَمَلَهَا حفّاري التكسير)]

(2) وها جرزٌ (جرز= قطع) أسال (الإله) رع وبعمق ثلاث قامات (آمات) [أي بقامة ثلاثة أشخاص] له سمع قول: إِسْقِ [التفسير: وبهذا القطع أسال الإله رع، وبغور (أو بعمق ثلاث قامات) له، سمع قول: إسقِ (من السقاية)]

(3) روى ئيل رع وكي هي تزيده بيد مِ دُمن... وبيومه [التفسير: هذا ما أرواه وعمله الإله ئيل الراعي كي تزيد الخيرات بيد تخضرّ ..... وبهذا اليوم]

(4) نَقَّابَهْ ها كوّه حصب مأسل قُدَّة رع، وجرزٌ على جرزٌ ويليك و[التفسير: فإن النُقّاب (الحفّارين) وصلوا إلى نافذة كلها أحجار (نتاج الحفر وأصبحت) مسيلًا للماء قدّت وقطعت برعاية الإله رع. حيث حفرٌ على حفر ثم (تأتيك) وتليك]

(5) ها ميّيم منها موضأ إلى ها بركة بـ مائتيم وألف آمة ومئة [التفسير: هذه المياه منها مكان وضوء إلى تلك البركة بمئتين وألف قامة (من جانب) ومئة]

(6) آمة هيَ ها جبّها، ها صُرَّ على رأسها حصب [التفسير: قامة (من الجانب الآخر) وهذه الأنفاق التي جبّها وقد صرَّ على رأسها [أي تكوّم على رأس هذه الأنفاق (في بداية الحفر)] أكوام من الحجارة] [(19)].

في هذا السياق، يقول الباحث خالد أيوب، في بحثه «آثار القدس في العصر الحديدي»: «أتبنى رؤية عروبة لغة النقش الأثري التي أشار إليها د. محمد بهجت قبيسي لكنني أخالفه في أسلوب ومنهج قراءة النقش الأثري».ويدلل على ذلك بالقول: «يرد في النقش الحرف (Δ)=(د) في نهاية السطر الأول، دوَّنه د. محمد بهجت قبيسي (ر)، وفي السطر الثاني ورد الحرف الثالث (q) أيضًا، دونها (ر)، وتكرر هذا الحرف كثيرًا، فدونه د. القبيسي (ر، د) وفي كلا الشكلين ومن المعروف أن حرف (Δ) دلتا هو (دال) وهو رمز رياضي شائع أيضًا. وأن قراءة الحروف النهائية في السطر الأول هو نقبها بعود». وينتقد الباحث خالد أيوب، قراءة ولفنسون بالقول: «لا شك بأن كلمة (نقب) من التنقيب، أما كلمة (ب. عود)، فهي أدوات الحفر بالعصي، وهذا ينفي استخدام

المطارق التي ذكرها ولفنسون .. وجاءت القراءة صورة أثرية مطابقة لرواية التوراة» [20].

منذُ أن أكتُشِفَ ذلك النقش المسمّى [نقش سلوان]، أُثيرَت أسئلة، لم يُعثَر لها على إجابة، حتى اليوم؛ مثـلًا؛ متى كُتِبَ ذلك النقش؟ ولماذا عُثِرَ عليه، في عُمقِ النَفَق، وليس عند مَدخَلِهِ؟ ولماذا لم يُذكَر اسم الحاكِم، الذي أَمّرّ بحفرِ النفق؟

يذهب الباحثونَ التوراتيونَ، إلى أن هذا النقش، يلائم نَصًّا من نصوص الكِتاب المقدَّس، التي تتناول مشاريع حزقيا، مَلِك يهوذا: «وَبَقِيَّةُ أُمُورِ حَزَقِيَّا، وَكُلُّ جَبَرُوتِهِ، وَكَيْفَ عَمِلَ الْبِرْكَةَ، وَالْقَنَاةَ، وَأَدْخَلَ الْمَاءَ إِلى الْمَدِينَةِ، أَمَا هِيَ مَكْتُوبَةٌ فِي سِفْرِ أَخْبَارِ الأَيَّامِ لِمُلُوكِ يَهُوذَا؟» [21]. «وَحَزَقِيَّا هذَا سَدَّ مَخْرَجَ مِيَاهِ جَيْحُونَ الأَعْلَى، وَأَجْرَاهَا تَحْتَ الأَرْضِ، إِلى الْجِهَةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْ مَدِينَةِ دَاوُدَ. وَأَفْلَحَ حَزَقِيَّا فِي كُلِّ عَمَلِهِ» [22].

بالرغم من أن النَقش لم يُشر إلى سَنَة، أوإ لى مَلِك؛ يَفترض الكثيرونَ بأن النَقش، كُتِبَ بواسطة حزقيا، أو بأمرٍ منهُ. يقول ولفنسون: «والنَفَق عُمِّرَ في عهدِ المَلِك حزقيا (700 قبل الميلاد)» [23]. ويسير في نفس الاتجاه الباحث العربي فراس السواح؛ يقولُ تعليقًا على هذا النَقش: «لدينا ملمح أركيولوجي هام من عصر حزقيا في أورشليم، يستحق أن تتوقف عنده» [24].

فالمنهجية التي حق لها ادعاء امتلاك الحد الأدنى من المقومات العلمية تفرض أولًا تقصّي إن كان النص التوراتي يعود فعـلًا إلى القرن الثامن قبل الميلاد، أو إلى فترة قريبة من ذلك، وضرورة عدم استبعاد أن تلك المداخلة أو الملاحظة المختصرة عن النفق تعود إلى القرن الثاني قبل الميلاد، وأنها أضيفت إلى أخبار أقدم منها - وهنا يكمن أحد هموم كتبة التوراة الذي يهدف إلى وضع الزمن المطلق في جغرافية محددة. لذا فالاحتمال قائم بأن أولئك الكتبة قاموا بأخذ خبر متأخر وربطوه بزمن سابق ليمنحوا كتاباتهم الجديدة شرعية تاريخية لا تمتلكها، أو بالعكس. ومن الجدير بالذكر أن الفهم التقليدي لتاريخ هذا النقش يتعرض لتحد من داخل البيت نفسه، إذ نشر اثنان من أشهر علماء الكتاب بحثًا في إحدى المجلات المتخصصة عبروا فيه عن قناعاتهم بأنه يعود إلى القرن الثالث قبل الميلاد - هذا على أقدم تقدير [25]. يرى بعض الباحثين، بأنَّ «نَقش السلوان»، يعودُ إلى الفترة الهلنستيَّة [26].

ففي شهر أيلول/سبتمبر 1996 نشر مقال في مجلة علمية أمريكية شهيرة، وهي (*Biblical Archaeologist, Ameriecan Schools of Oriental Research*)، تتعلق بنقش سلوان، بقلم جون روجرسون وفيليب ديوس، من جامعة شيفلد، إنكلترا. وقد ذكر الباحثان أن هذا النقش في أصله يرجع إلى القرن الثاني أو

الثالث قبل الميلاد، وليس من القرن الثامن قبل الميلاد. وبما أن هذا النقش يعتبر مقياسًا لكافة النقوش التي تدعي أنها من القرن الثامن قبل الميلاد، فهدم هذا الأساس يسبب انهدام أشياء كثيرة جدًا [(27)].

خامسًا: بردية يروشالمه

عرضت سلطة الآثار «الإسرائيلية» خلال مؤتمر صحافي عقد في القدس، (26/10/2016)؛ ورقة بردى يبلغ طولها 11 سم وعرضها 2.5 سم، وزعم علماء آثار «إسرائيليون»، أنها ترجع إلى القرن السابع قبل الميلاد، وعليها كتابة بالعبرية «يروشَالِمه».

ووفق أقوال علماء الآثار المسؤولين، تعزز البردية الادعاء القائل إن الاسم العبري الأصلي لمدينة القدس هو «يروشَالِمه» وليس «يروشلايم» وهو الاسم الذي أصبح متبعًا لاحقًا.

خلال المؤتمر الصحافي قال الباحثون، شموئيل احيتوف من الجامعة العبرية، وإيتان كلاين، وأمير جانون من هيئة الآثار، بأن هذه الوثيقة هي شهادة تصدير لنوع من النبيذ تم إرساله من قبل الملك، من بلدة اسمها (نعراتا)، في غور الأردن، شمال أريحا، وهذه هي المرة الأولى التي ظهر فيها اسم القدس على شهادة «أصلية» بالعبرية.

الصورة الرقم (١٢ - ٥) بردية يروشالمه

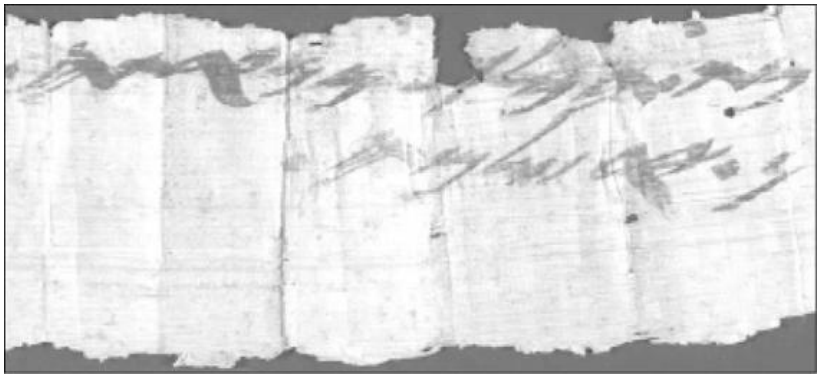

حسب هؤلاء الباحثين فإن هذه الوثيقة هي شهادة تصدير مؤقتة تم إرفاقها بالنبيذ، لكن الشهادة والبضاعة لم تصل إلى هدفها، وإنما تم سرقتها في الطريق، وتدحرجت الشهادة إلى مغارة في الضفة.

وجاء في نص البردية الهشة: «خادمة الملك من نعرتا أوعية نبيد إلى يروشالمه».

قال أمير جانون من هيئة الآثار، خلال عرض ورقة البردى على الصحافة «إنها بالنسبة للآثار «الإسرائيلية» أول مرة يرد فيها اسم القدس بالعبرية خارج

التوراة». واعتبر أن «للمخطوطة قيمة تجارية كبيرة جدًا لكن قيمتها الأثرية أكبر لأنها تتعلق بتاريخ الشعب اليهودي، بهذا البلد، ولا سيما بالقدس».

استغل رئيس الوزراء الصهيوني بنيامين نتنياهو عرض هذه الوثيقة للتعقيب على قرار اليونسكو ضد الكيان الصهيوني، وقال: «تم اليوم تفنيد هذا التشويه بواسطة شهادة أخرى نشرتها سلطة الآثار لدينا، هذه شهادة تصدير كتبت باللغة العبرية القديمة، وهذه هي الكلمة الحاسمة، يمكنكم رؤية ذلك بالعبرية. مكتوب «يروشلمه»... هذه رسالة من الماضي إلى اليونسكو. هذا يشرح ارتباطنا بالقدس ومركزية القدس.. ليس بالعربية، ليس بالآرامية ولا باليونانية ولا اللاتينية، بل بالعبرية».

إن هذه الوثيقة، التى دخلت في «علم الآثار التوراتي»، على أنها أول وثيقة من «مصدر مُستقِل»، تُثبت الصِلَة ما بين القدس الفلسطينية، واليهود، لن تستطيع أن تقف صامدة أمام النقد الصارم، فليس من الصعب فضح التزوير في الوثيقة؛ بالرغم من تأريخ الوثيقة حسب الكربون المشع - 14، فهذ التأريخ ليس كافيًا لضمان صحة الوثيقة أو أصالتها، لأن التأريخ لا يقول شيئًا عن الكتابة التي عليها، فمن الممكن أن تكون ورقة البردى قديمة، وتم شرائها والكتابة عليها بواسطة أحد المزورين. وهذا يفسر لنا بقاء ورقة البردى طوال هذه الفترة متماسكة، في ظل مناخ رطب في بلادنا فلسطين. ويفسر لنا (أيضًا) أن الحبر المكتوب به النص لم يتأثر مع الزمن.

علاوة على ذلك فقد اختار من كتب الوثيقة كلمتين «نادرتي» الاستخدام، وهما «يورشالمه» و«نعرتاه» لينقشهما عليها ليثبت أن الوثيقة أصلية. من هذا كله، أعتقد أن الوثيقة «مُزيَّفة» [(28)].

---

(1) محمد الأسعد، «المخيّلة الاستعمارية تقتلع مدينة من ماضيها وحاضرها: القدس العربية نموذجًا،» المستقبل العربي، السنة 38، العدد 442 (كانون الأول/ديسمبر 2015)، ص 17 - 19.

(2) عصام سخنيني، تهافت التأريخ التوراتي (عمّان: الأهلية للنشر والتوزيع، 2018)، ص 213 - 214.

(3) قاسم الشواف، فلسطين: التاريخ القديم الحقيقي (بيروت: دار الساقي، 2006)، ص 307 - 308.

(4) سخنيني، المصدر نفسه، ص 214.

(5) الشواف، المصدر نفسه، ص 308.

(6) سخنيني، المصدر نفسه، ص 223.

(7) «الرمانة العاجية ليست من زمن سليمان،» بي بي سي، 25 كانون الأول/ديسمبر 2004، <http://news.bbc.co.uk/hi/arabic/middle_east_news/newsid_4124000/4124851.stm>.

(8) هآرتس، 26/3/2004.

(9) نيلز لمكه، ««بيت داود» في نقش «تل دان،» ص 77 - 80، < (10) https://bit.ly/3e1QSWI> توماس طومسون، الماضي الخرافي (التوراة والتاريخ)، ترجمة عدنان حسن ووزياد منى، ط 2 (دمشق: قدمس للنشر والتوزيع، 2003)، ص 319 - 322.

(11) لمكه، المصدر نفسه، ص 96 - 98.

(12) فراس السواح، «نقش يهوآش ومسلسل تزوير الآثار في إسرائيل،» مهد الحضارات (دمشق)، عدد خاص بالقدس (2009 - 2010)، ص 87.
(13) سخنيني، تهافت التأريخ التوراتي، ص 208.
(14) المصدر نفسه، ص 209.
(15) عصام سخيني، «نقش الملك التوراتي يهوآش نموذج لتزوير التاريخ الفلسطيني،» البصائر (عمّان)، السنة 7، العدد 2 (أيلول/سبتمبر 2003)، ص 23 - 25.
(16) المصدر نفسه، ص 26 - 28.
(17) إسرائيل ولفنسون، تاريخ اللغات السامية (القاهرة: مطبعة الاعتماد، 1919)، ص 83.
(18) كارل بروكلمان، فقة اللغات السامية، ترجمة رمضان عبد التواب (الرياض: مطبوعات جامعة الرياض، 1977)، ص 36.
(19) محمد بهجت القبيسي، في: التزوير الصهيوني للنقوش والآثار: القدس نموذجًا، ندوة في المركز الثقافي العربي في كفر سوسة، كانون الثاني/يناير 2011.
(20) خالد أيوب، «آثار القدس في العصر الحديدي،» ورقة قدمت إلى: المصدر نفسه.
(21) الكتاب المقدس، «سفر المُلوك الثّاني،» الأصحاح 20، الآية 20.
(22) المصدر نفسه، «سفر أخبار الأيام الثّاني،» الأصحاح 32، الآية 30.
(23) ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، ص 83.
(24) فراس السواح، تاريخ أورشليم والبحث عن مملكة اليهود، ط 3 (دمشق: دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، 2003)، ص 182.
(25) زياد منى، مقدمة في تاريخ فلسطين القديم (بيروت: بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، 2000)، ص 98.
(26) منشورات مؤسسة «عمق شبيه»، «علم الآثار في ظل الصراع،» <https://alt-arch.org/ar/wp-content/uploads/2014/01/Booklet-Ar.pdf>.
(27) محمد مصطفى الأعظمي، «علماء كوبنهاجن وشيلفد يفضحون تزوير تاريخ إسرائيل القديم البروفيسور تومس طومسون نموذجًا،» الجزيرة (الرياض)، العدد 10602 (رجب 1422 - تشرين الأول/ أكتوبر 2001). انظر أيضًا: زياد منى، «تاريخ فلسطين القديمة: التلفيق والحقيقة،» في: كيث وايتلام [وآخرون]، الجديد في تاريخ فلسطين القديمة، ترجمة عدنان حسن وزياد مني (دمشق: قدمس للنشر والتوزيع، 2004)، ص 203.
(28) أحمد الدبش، «اختلاق بردية يروشالمه،» البديل، 11 أيار/مايو 2016، <http://albedaiah.com/articles/2016/11/05/124477>.

الفصل الثالث عشر
الاحتلال الفارسي واختلاق العودة اليهوذية

شهد منتصف القرن السادس ق.م سقوط الدولة البابلية، وعندما أصبحت سورية وفلسطين جزءًا من الإمبراطورية الفارسية، وبالرغم من أن الفرس احتلوا البلاد لمدة زادت على المئتي عام بقليل، إلا أن المصادر والوثائق الفارسية لا تخبرنا بمعلومات كافية حول نشاطاتهم المختلفة في بلاد الشام طوال هذه المدة. وتبقى المعلومات حول بلاد الشام مستمدة بصورة رئيسية من كتابات المؤرخين الإغريق.

واعتمادًا على هيرودوت فقد قسم داريوس الأول «الإمبراطورية إلى عشرين حكومة إقليمية تدعى مرزبانات، وتم تعيين عدد من الحكام لهذه الأقاليم وحددت ضريبة على كل إقليم، ولأغراض إدارية تم ضم عدد من الأقوام المتجاورة ضمن مجموعة واحدة، أما الجماعات التي تعيش على الأطراف فكانت تلحق بهذه الأمة أو تلك، حسب ما هو أنسب» [(1)]، رغم أن نقش بهيستون يشير إلى 22 إقليمًا، وكانت فلسطين جزءًا من مقاطعة (بابل - عبر النهر) [(2)].

ويذكر هيرودوت، أن فلسطين كانت جزءًا من الإقليم الخامس، وذلك عندما تحدث عن الضرائب التي يدفعها كل إقليم من الأقاليم العشرين: «ثلاثمائة وخمسون تالنت (وزنة) - يدفعها سكان المنطقة الواقعة ما بين مدينة بوسيديوم التي أسسها الأمفيلوكيون والتي تقع على الحدود بين قليقيا وسورية حتى مصر، باستثناء المنطقة العربية، التي لم تكن تدفع أي ضريبة على الإطلاق، وهذا الإقليم كان يضم الأراضي الفينيقية والقسم من سورية الذي يطلق عليه فلسطين وقبرص» [(3)].

ويضيف هيرودوت، «ويسكن البلاد الممتدة من أرض الفينيقيين حتى حدود مدينة كاديتس [غزة] السوريون الذين يسمون «الفلسطينيون» ومن هذه المدينة - التي تضارع مدينة ساردیس في حجمها - فإن جميع الموانئ حتى جينيسيوس تتبع ملك العرب. والمنطقة التي تمتد من هناك حتى بحيرة سربونيس (سبخة البردويل) والتي بالقرب منها ينحدر جبل كاسيوس ليصل إلى البحر، فإنها تعود لسورية أيضًا. أما مصر فتبدأ من منطقة بحيرة سربونيس (حيث تذهب الرواية إلى أن تيفون (الإله سيث) يختفي هناك)» [(4)].

ويتردد اسم فلسطين في حديث هيرودوت عن التقسيم الإداري للإمبراطورية الفارسية، «أما اللسان القاري الآخر (الهضبة) فيبدأ في فارس ويشمل بلاد الآشوريين والعرب، وينتهي - كما هو متفق عليه - عند خليج العرب

(البحر الأحمر) الذي قام داريوس بوصله بنهر النيل عبر قناة. وما بين فارس وفينيقيا أرض شاسعة واسعة؛ ويمتد هذا الفرع الذي أقوم بوصفه ههنا بمحاذاة ساحل البحر المتوسط من فلسطين - سورية حتى مصر، حيث ينتهي ويضم ثلاثة أقوام» [(5)].

يشير هيرودوت إلى مشاركة سكان فلسطين في حروب الفرس بالقول: «وكان الأسطول يتألف من ألف ومائتين وسبع من السفن الضخمة الطويلة، عدا السفن العادية وقوارب النقل: قدم الفينيقيون والسوريون سكان فلسطين 300 سفينة. وبحارتها يرتدون خوذات شبيهة بخوذات أمثالهم من الإغريق فضـلًا عن الدروع من نسيج الكتان والتروس والرماح. ويروي هؤلاء أنهم كانوا يسكنون الخليج العربي في قديم الزمان ثم هاجروا إلى الساحل السوري، وما زالو يسكنون هذا الساحل إلى اليوم. وتعرف هذه المنطقة من سورية وما يليها جنوبًا حتى مصر بفلسطين» [(6)].

أولًا: مخلفات الاحتلال الفارسي

بالرغم من أن معلوماتنا التاريخية الموثقة عن فلسطين في عهد الاحتلال الفارسي قليلة ومبعثرة، «كشف المنقبون في غالبية مواقع العصر الحديدي عن مخلفات للعهد الفارسي غير واضحة المعالم وتشير بشكل عام إلى تدهور في الحياة العمرانية والاقتصادية حين أصبحت المدن تفتقر إلى التنظيم الذي عهدناه في المراحل السابقة، كما أن المباني العامة والتحصينات المتعلقة بالنظامين الإداري والعسكري قليلة للغاية، ويغلب على المواقع الفلسطينية في هذه المرحلة طابع المجتمعات الزراعية. يظهر ذلك بشكل واضح في الجزء الأكبر من المواقع التي أجريت فيها حفريات منظمة، حيث يغلب وجود بيوت المزارع ومرافق تخزين الحبوب، وبشكل خاص بيوت التخزين وحفرها التي وجدت في الغالب على شكل مجموعات» [(7)].

من بين المواقع التي عُثر فيها على مخلفات تعود إلى العصر الفارسي: «تل الدوير (لاخيش) وتل جمّة (النقب الغربي) ومجدّو (تل المتسلم) وتل أبو حوّام (قرب حيفا) وتل القصيلة (شمال يافا) ويافا وأسدود وعسقلان وتل الصافي وتل الفارعة الجنوبي (شاروحين) وتل بلاطة (شكيم) وأورشليم وأريحا وعين جدي وجيزر (أبو شوشة) وبئر السبع وعراد وسبسطية (السامرة) وغيرها» [(8)].

واكتشف مبنى فارسي في تل الدوير (لاخيش)، قال عنه عالم الآثار أولبرايت، إنه «فيلا فارسية على قمة جبل لاخيش [تل الدوير] وهذا المبنى من أواخر القرن الخامس، أو أوائل الرابع قبل الميلاد يذكرنا بقوة، من حيث التصميم والتفاصيل، بتلك المباني الفرثية المبكرة مثال تلك السراى الصغيرة في نبور في بلاد بابل (بابلونيا) حيث نجد استعمالًا مماثـلًا للساحات والأعمدة.

وإن كان من الطبيعي أن توجد أيضًا اختلافات يمكن تفسيرها في الواقع تفسيرًا جزئيًا على أنها نتيجة لاختلاف الزمن» [(9)].

الصورة الرقم (١٣ - ١) فيلا فارسية في تل الدوير [لاخيش] نحو ٤٠٠ ق.م

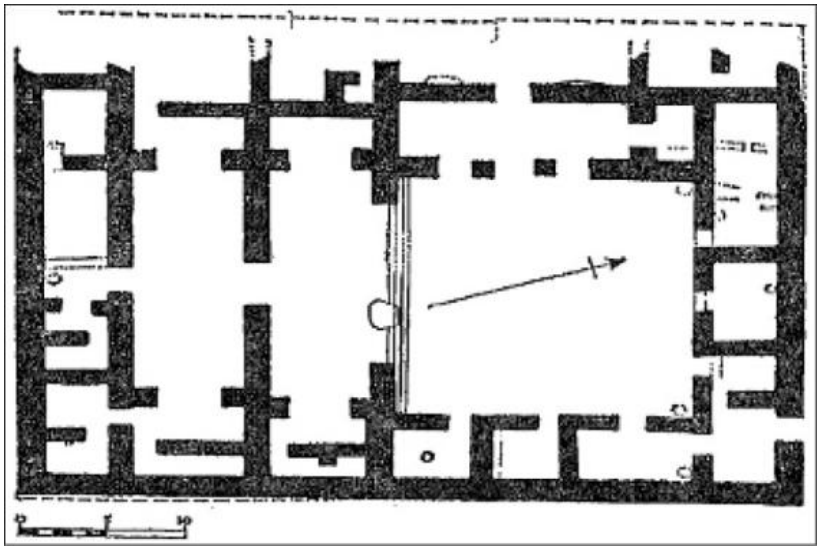

ثانيًا: العودة الفارسية

أعلن الإمبراطور الفارسي كورش/قورش نفسه حاميًا للأقوام التي كانت تعيش ضمن حدود الإمبراطورية البابلية، وأمر بإطلاق سراح الأسرى وإعادة الآلهة التي أمر نبوئيد بالاحتفاظ بها أسيرة إلى مدنها الأصلية، وبالسماح بإعادة بناء معابدها، كما وأذن للأقوام المتعبدة لتلك الآلهة بالعودة إلى بيوتهم. وهنا يقول الرأي التقليدي بأنه سمح ليهوذيي السبي؟ بالعودة؟ إلى فلسطين. وذلك وفق (قرار قورش) أو (مذكرة كورش) المشار إليها.

يقص سفر عزرا القصة الكاملة للعودة: «وَفِي السَّنَةِ الأُولَى لِكُورَشَ مَلِكِ فَارِسَ عِنْدَ تَمَامِ كَلاَمِ الرَّبِّ بِفَمِ إِرْمِيَا، نَبَّهَ الرَّبُّ رُوحَ كُورَشَ مَلِكِ فَارِسَ فَأَطْلَقَ نِدَاءً فِي كُلِّ مَمْلَكَتِهِ وَبِالْكِتَابَةِ أَيْضًا قَائِلًا: هكَذَا قَالَ كُورَشُ مَلِكُ فَارِسَ: جَمِيعُ مَمَالِكِ الأَرْضِ دَفَعَهَا لِي الرَّبُّ إِلهُ السَّمَاءِ، وَهُوَ أَوْصَانِي أَنْ أَبْنِيَ لَهُ بَيْتًا فِي أُورُشَلِيمَ الَّتِي فِي يَهُوذَا. مَنْ مِنْكُمْ مِنْ كُلِّ شَعْبِهِ، لِيَكُنْ إِلهُهُ مَعَهُ، وَيَصْعَدْ إِلى أُورُشَلِيمَ الَّتِي فِي يَهُوذَا فَيَبْنِيَ بَيْتَ الرَّبِّ إِلهِ إِسْرَائِيلَ. هُوَ الإِلهُ الَّذِي فِي أُورُشَلِيمَ. وَكُلُّ مَنْ بَقِيَ فِي أَحَدِ الأَمَاكِنِ حَيْثُ هُوَ مُتَغَرِّبٌ فَلْيُنْجِدْهُ أَهْلُ مَكَانِهِ بِفِضَّةٍ وَبِذَهَبٍ وَبِأَمْتِعَةٍ وَبِبَهَائِمَ مَعَ التَّبَرُّعِ لِبَيْتِ الرَّبِّ الَّذِي فِي أُورُشَلِيمَ» [(10)].

ويضيف: «وَالْمَلِكُ كُورَشُ أَخْرَجَ آنِيَةَ بَيْتِ الرَّبِّ الَّتِي أَخْرَجَهَا نَبُوخَذْنَاصَّرُ مِنْ أُورُشَلِيمَ وَجَعَلَهَا فِي بَيْتِ آلِهَتِهِ. أَخْرَجَهَا كُورَشُ مَلِكُ فَارِسَ عَنْ يَدِ مِثْرَدَاتَ الْخَازِنِ، وَعَدَّهَا لِشِيشْبَصَّرَ رَئِيسِ يَهُوذَا. وَهذَا عَدَدُهَا: ثَلاَثُونَ طَسْتًا مِنْ ذَهَبٍ، وَأَلْفُ طَسْتٍ مِنْ فِضَّةٍ، وَتِسْعَةٌ وَعِشْرُونَ سِكِّينًا، وَثَلاَثُونَ قَدَحًا مِنْ ذَهَبٍ،

وَأَقْدَاحُ فِضَّةٍ مِنَ الرُّتْبَةِ الثّانِيَةِ أَرْبَعُ مِئَةٍ وَعَشَرَةٌ، وَأَلْفٌ مِنْ آنِيَةٍ أُخْرَى. جَمِيعُ الآنِيَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ خَمْسَةُ آلاَفٍ وَأَرْبَعُ مِئَةٍ. الْكُلُّ أَصْعَدَهُ شِيشْبَصَّرُ عِنْدَ إِصْعَادِ السَّبْيِ مِنْ بَابِلَ إلى أُورُشَلِيمَ» [(11)].

وقد جاء شيشبصر إلى أورشليم واليًا عليها وباشر بوضع أساسات بيت الرب، «حَتَّى إِنَّ آنِيَةَ بَيْتِ اللهِ هذَا، الَّتِي مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ، الَّتِي أَخْرَجَهَا نَبُوخَذْنَصَّرُ مِنَ الْهَيْكَلِ الَّذِي فِي أُورُشَلِيمَ وَأَتَى بِهَا إلى الْهَيْكَلِ الَّذِي فِي بَابِلَ، أَخْرَجَهَا كُورَشُ الْمَلِكُ مِنَ الْهَيْكَلِ الَّذِي فِي بَابِلَ وَأُعْطِيَتْ لِوَاحِدٍ اسْمُهُ شِيشْبَصَّرُ الَّذِي جَعَلَهُ وَالِيًا. وَقَالَ لَهُ: خُذْ هذِهِ الآنِيَةَ وَاذْهَبْ وَاحْمِلْهَا إلى الْهَيْكَلِ الَّذِي فِي أُورُشَلِيمَ، وَلْيُبْنَ بَيْتُ اللهِ فِي مَكَانِهِ. حِينَئِذٍ جَاءَ شِيشْبَصَّرُ هذَا وَوَضَعَ أَسَاسَ بَيْتِ اللهِ الَّذِي فِي أُورُشَلِيمَ، وَمِنْ ذلِكَ الْوَقْتِ إلى الآنَ يُبْنَى وَلَمْ يُكْمَلْ» [(12)].

لقد هتف النبي أشعيا للملك كورش، وأطلق عليه لقب مسيح الرب، فنقرأ في سفره: «هكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ لِمَسِيحِهِ، لِكُورَشَ الَّذِي أَمْسَكْتُ بِيَمِينِهِ لأَدُوسَ أَمَامَهُ أُمَمًا، وَأَحْقَاءَ مُلُوكٍ أُحُلُّ، لأَفْتَحَ أَمَامَهُ الْمِصْرَاعَيْنِ، وَالأَبْوَابُ لاَ تُغْلَقُ: أَنَا أَسِيرُ قُدَّامَكَ وَالْهِضَابَ أُمَهِّدُ. أُكَسِّرُ مِصْرَاعَيِ النُّحَاسِ، وَمَغَالِيقَ الْحَدِيدِ أَقْصِفُ. وَأُعْطِيكَ ذَخَائِرَ الظُّلْمَةِ وَكُنُوزَ الْمَخَابِئِ، لِكَيْ تَعْرِفَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ الَّذِي يَدْعُوكَ بِاسْمِكَ، إِلهُ إِسْرَائِيلَ. لأَجْلِ عَبْدِي يَعْقُوبَ، وَإِسْرَائِيلَ مُخْتَارِي، دَعَوْتُكَ بِاسْمِكَ. لَقَّبْتُكَ وَأَنْتَ لَسْتَ تَعْرِفُنِي. أَنَا الرَّبُّ وَلَيْسَ آخَرُ. لاَ إِلهَ سِوَايَ. نَطَّقْتُكَ وَأَنْتَ لَمْ تَعْرِفْنِي» [(13)].

على أن هذا الفرح العام بصعود كورش، وبمرسومه الخاص بعودة السبي، لم يترجم فورًا إلى حركة عودة جماعية إلى أورشليم. ففي عهد الملك داريوس، ابن قمبيز وحفيد كورش، قاد هذه الموجة من العودة الثانية رجل يسمى زربابل، برفقة الكاهن يشوع، وهذا ما يكشف عنه سفر عزرا [(14)]. وبعد عام من الانتهاء من بناء بيت الرب، نقرأ في سفر عزرا؛ ما يلي: «مِنْ أَرْتَحْشَسْتَا مَلِكِ الْمُلُوكِ، إلى عَزْرَا الْكَاهِنِ كَاتِبِ شَرِيعَةِ إِلهِ السَّمَاءِ الْكَامِلِ، إلى آخِرِهِ. قَدْ صَدَرَ مِنِّي أَمْرٌ أَنَّ كُلَّ مَنْ أَرَادَ فِي مُلْكِي مِنْ شَعْبِ إِسْرَائِيلَ وَكَهَنَتِهِ وَاللاَّوِيِّينَ أَنْ يَرْجِعَ إلى أُورُشَلِيمَ مَعَكَ فَلْيَرْجِعْ. مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ مُرْسَلٌ مِنْ قِبَلِ الْمَلِكِ وَمُشِيرِيهِ السَّبْعَةِ لأَجْلِ السُّؤَالِ عَنْ يَهُوذَا وَأُورُشَلِيمَ حَسَبَ شَرِيعَةِ إِلهِكَ الَّتِي بِيَدِكَ، وَلِحَمْلِ فِضَّةٍ وَذَهَبٍ تَبَرَّعَ بِهِ الْمَلِكُ وَمُشِيرُوهُ لإِلهِ إِسْرَائِيلَ الَّذِي فِي أُورُشَلِيمَ مَسْكَنُهُ. وَكُلَّ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ الَّتِي تَجِدُ فِي كُلِّ بِلاَدِ بَابَلَ مَعَ تَبَرُّعَاتِ الشَّعْبِ وَالْكَهَنَةِ الْمُتَبَرِّعِينَ لِبَيْتِ إِلهِهِمِ الَّذِي فِي أُورُشَلِيمَ، لِكَيْ تَشْتَرِيَ عَاجِلاً بِهذِهِ الْفِضَّةِ ثِيرَانًا وَكِبَاشًا وَخِرْفَانًا وَتَقْدِمَاتِهَا وَسَكَائِبَهَا، وَتُقَرِّبَهَا عَلَى الْمَذْبَحِ الَّذِي فِي بَيْتِ إِلهِكُمُ الَّذِي فِي أُورُشَلِيمَ. وَمَهْمَا حَسُنَ عِنْدَكَ وَعِنْدَ إِخْوَتِكَ أَنْ تَعْمَلُوهُ بِبَاقِي الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ، فَحَسَبَ إِرَادَةِ إِلهِكُمْ تَعْمَلُونَهُ. وَالآنِيَةُ الَّتِي تُعْطَى لَكَ لِخِدْمَةِ بَيْتِ إِلهِكَ فَسَلِّمْهَا أَمَامَ إِلهِ أُورُشَلِيمَ. وَبَاقِي احْتِيَاجِ بَيْتِ إِلهِكَ الَّذِي

يَتَّفِقُ لَكَ أَنْ تُعْطِيَهُ، فَأَعْطِهِ مِنْ بَيْتِ خَزَائِنِ الْمَلِكِ. وَمِنِّي أَنَا أَرْتَحْشَسْتَا الْمَلِكِ صَدَرَ أَمْرٌ إِلَى كُلِّ الْخَزَنَةِ الَّذِينَ فِي عَبْرِ النَّهْرِ أَنَّ كُلَّ مَا يَطْلُبُهُ مِنْكُمْ عَزْرَا الْكَاهِنُ كَاتِبُ شَرِيعَةِ إِلهِ السَّمَاءِ فَلْيُعْمَلْ بِسُرْعَةٍ، إِلَى مِئَةِ وَزْنَةٍ مِنَ الْفِضَّةِ وَمِئَةِ كُرّ مِنَ الْحِنْطَةِ وَمِئَةِ بَثٍّ مِنَ الْخَمْرِ وَمِئَةِ بَثٍّ مِنَ الزَّيْتِ، وَالْمِلْحِ مِنْ دُونِ تَقْيِيدٍ. كُلُّ مَا أَمَرَ بِهِ إِلهُ السَّمَاءِ فَلْيُعْمَلْ بِاجْتِهَادٍ لِبَيْتِ إِلهِ السَّمَاءِ، لأَنَّهُ لِمَاذَا يَكُونُ غَضَبٌ عَلَى مُلْكِ الْمَلِكِ وَبَنِيهِ؟ وَنُعْلِمُكُمْ أَنَّ جَمِيعَ الْكَهَنَةِ وَاللاَّوِيِّينَ وَالْمُغَنِّينَ وَالْبَوَّابِينَ وَالنَّثِينِيمِ وَخُدَّامِ بَيْتِ اللهِ هذَا، لاَ يُؤْذَنُ أَنْ يُلْقَى عَلَيْهِمْ جِزْيَةٌ أَوْ خَرَاجٌ أَوْ خِفَارَةٌ. أَمَّا أَنْتَ يَا عَزْرَا، فَحَسَبَ حِكْمَةِ إِلهِكَ الَّتِي بِيَدِكَ ضَعْ حُكَّامًا وَقُضَاةً يَقْضُونَ لِجَمِيعِ الشَّعْبِ الَّذِي فِي عَبْرِ النَّهْرِ مِنْ جَمِيعِ مَنْ يَعْرِفُ شَرَائِعَ إِلهِكَ. وَالَّذِينَ لاَ يَعْرِفُونَ فَعَلِّمُوهُمْ. وَكُلُّ مَنْ لاَ يَعْمَلُ شَرِيعَةَ إِلهِكَ وَشَرِيعَةَ الْمَلِكِ، فَلْيُقْضَ عَلَيْهِ عَاجِلًا إِمَّا بِالْمَوْتِ أَوْ بِالنَّفْيِ أَوْ بِغَرَامَةِ الْمَالِ أَوْ بِالْحَبْسِ» [(15)].

بعد أربعة عشر عامًا تقريبًا من وصول عزرا، يأتي إلى أورشليم واحد من أبرز أفراد السبي، وهو كَلاَمُ «نَحَمْيَا بْنِ حَكَلْيَا» [(16)]. وكان نحميا هذا قد تدرج في منصبه في البلاط الفارسي حتى وصل إلى منصب ساقي الملك الخاص. طالبًا من ارتحششتا أن يرسله إلى يهوذا، لتحصين مدينة أورشليم «أَنْتُمْ تَرَوْنَ الشَّرَّ الَّذِي نَحْنُ فِيهِ، كَيْفَ أَنَّ أُورُشَلِيمَ خَرِبَةٌ، وَأَبْوَابَهَا قَدْ أُحْرِقَتْ بِالنَّارِ. هَلُمَّ فَنَبْنِيَ سُورَ أُورُشَلِيمَ وَلاَ نَكُونُ بَعْدُ عَارًا». وَأَخْبَرْتُهُمْ عَنْ يَدِ إِلهِي الصَّالِحَةِ عَلَيَّ، وَأَيْضًا عَنْ كَلاَمِ الْمَلِكِ الَّذِي قَالَهُ لِي، فَقَالُوا: «لِنَقُمْ وَلْنَبْنِ». وَشَدَّدُوا أَيَادِيَهُمْ لِلْخَيْرِ» [(17)].

انتهى نحميا من بناء السور: «وَكَمِلَ السُّورُ فِي الْخَامِسِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ أَيْلُولَ، فِي اثْنَيْنِ وَخَمْسِينَ يَوْمًا. وَلَمَّا سَمِعَ كُلُّ أَعْدَائِنَا وَرَأَى جَمِيعُ الأُمَمِ الَّذِينَ نحونَا، سَقَطُوا كَثِيرًا فِي أَعْيُنِ أَنْفُسِهِمْ، وَعَلِمُوا أَنَّهُ مِنْ قِبَلِ إِلهِنَا عُمِلَ هذَا الْعَمَلُ. وَأَيْضًا فِي تِلْكَ الأَيَّامِ أَكْثَرَ عُظَمَاءُ يَهُوذَا تَوَارُدَ رَسَائِلِهِمْ عَلَى طُوبِيَّا، وَمِنْ عِنْدِ طُوبِيَّا أَتَتِ الرَّسَائِلُ إِلَيْهِمْ» [(18)]. «وَكَانَتِ الْمَدِينَةُ وَاسِعَةَ الْجَنَابِ وَعَظِيمَةً، وَالشَّعْبُ قَلِيلًا فِي وَسَطِهَا، وَلَمْ تَكُنِ الْبُيُوتُ قَدْ بُنِيَتْ» [(19)]. «وَسَكَنَ رُؤَسَاءُ الشَّعْبِ فِي أُورُشَلِيمَ، وَأَلْقَى سَائِرُ الشَّعْبِ قُرَعًا لِيَأْتُوا بِوَاحِدٍ مِنْ عَشَرَةٍ لِلسُّكْنَى فِي أُورُشَلِيمَ، مَدِينَةِ الْقُدْسِ، وَالتِّسْعَةِ الأَقْسَامِ فِي الْمُدُنِ. وَبَارَكَ الشَّعْبُ جَمِيعَ الْقَوْمِ الَّذِينَ انْتَدَبُوا لِلسُّكْنَى فِي أُورُشَلِيمَ» [(20)].

والسؤال المطروح ههنا: هل هناك أدلة أو شواهد أثرية، تؤكد رواية سفري عزرا ونحميا؟! الجواب ببساطة لا. تقف رواية سفري عزرا ونحميا وحيدة دون أي سند من مصدر خارجي، فمن الأمور المؤسفة حقًا «عدم العثور حتى الآن على أية نقوش أو كتابات أثرية تمكننا من تشكيل فكرة عن حالة المشرق العربي وتقسيمه الجغرافي والسياسي في ظل الاحتلال الفارسي. فكل ما

عادت علينا به التنقيبات الأثرية هو محض نقوش متفرقة لا تسمح بأي حال من الأحوال بتشكيل صورة عن أوضاع الإقليم، مهما كانت عمومية. هذا يعني أن الخطاب الكتابي، في رسمه تسلسل الأمور في فلسطين إبان الاحتلال الفارسي، يعتمد بشكل كامل على تأويل روايات مسجلة في العهد القديم، وعلى سفري عزرا ونحميا تحديدًا. ويرفض كثير من علماء الكتاب الاعتراف بأية صدقية تاريخية للسفرين، بل إن هناك من يرى بأنهما لم يكتبا قبل ما يسمى الانتفاضة الحسمونية. كذلك ثمة رأي قوي بين العلماء الكتابيين يقول بأن دوافع كتابة هذين السفرين لم تكن نقل الحقيقة التاريخية، وإنما عرض الفكرة» [(21)].

لقد كان الغموض يلف التاريخ التوراتي طيلة المراحل السابقة، بل يستحيل التأكد من حقيقة التاريخ التوراتي. فـ «التسلسل التاريخي مشوش ونصوص المصادر فاسدة، خاصة الفترة التي أعقبت السبي: فلا نعرف الهيكل التنظيمي زمن زيروبابل ولا نعرف دور عزرا، ولا نعرف دور الولاية (State) الفارسية هذه، ولا وضع الكاهن الأعلى بين سنوات (517 - 444 ق.م)، وأيهما جاء أولًا: عزرا أم نحميا. وبالمختصر فإن المؤرخ سيجد نفسه مواجهًا عدة إشكالات الأمر الذي يجعل الموضوع التاريخ مستحيـلًا» [(22)].

ووفقًا للستر غراب، الأستاذ في دائرة اللاهوت في جامعة هَلّ في بريطانيا، فـ«إن سفر عزرا يتفرد [في الرواية] وليس هناك أي مصدر آخر يؤكدهما، كما ليس هناك أي دليل على أن [الرواية] تستند إلى أي مصدر» [(23)].

وربما يكون هذا هو ما أدى «بجان - فيم فسيليوس، رئيس دائرة الدراسات السامية في جامعة كامبن في هولندا، إلى أن يحكم على عزرا (في إحدى دراساته) بأنه «شخص وهمي». وقد أثار استغراب الباحث نفسه (في دراسة أخرى) أن نحميا المفترض أنه كان يزامل عزرا في العمل من أجل الهيكل في القدس بعد القدوم إليها من بابل تجاهل تمامًا أي دور له في «الهيكل»، وكان الدور الوحيد الذي أسنده إليه هو تلاوته لشريعة موسى.

كذلك لم يكن الأستاذان المتخصصان في الدراسات الكتابية في جامعة شفليد في بريطانيا، جون روجرسُن وفيليب دايفز، في يقين من حقيقة وجود عزرا التاريخي. فبعد أن يحللا ما جاء عنه، أو غاب، في سفري عزرا ونحميا وسفر المكابيين (الذي يرجح أنه كتب في نحو سنة 100 ق.م) وفي كتاب حكمة ابن سيراح، يتوصلان إلى «أن ثمة دلائل على أن شخصية عزرا قد تكون اختلاقًا أدبيًا».

وأكثر من ذلك، يذهب هذان الباحثان إلى عدم تصديق حكاية «العودة من المنفى» التي تحتل فيها عملية بناء «الهيكل الثاني» مكان الصدارة. فوفقًا لهما فإن الرواية «الكتابية» عن «العودة» غير جديرة بالثقة، ليس فقط لأنها متحيِّزة

جدًا، بل أيضًا لأنها كانت قد جمعت في زمن متأخر كثيرًا عن وقوع الأحداث» [24].

لهذا كله فإن الشك في تاريخية الأحداث التي يسردها سفري عزرا ونحميا ليس مسوّغًا فحسب، وإنما هو ضروري أيضًا، علمًا بأن كثيرًا من العلماء الكتابيين يعدّون ما يسمى (مذكرة قورش) وغيرها من المعلومات الواردة في سفري عزرا ونحميا محض تلفيق ليس إلا.

لذلك يحق لنا القول إنه لا تتوافر لدينا أية معلومات موثقة عن الأوضاع التي سادت في فلسطين حتى بدء الاحتلال الإغريقي، وهو ما يتفق عليه معظم المتخصصين بتاريخ الإقليم حيث يقول المؤرخ السويدي آهلشتروم، «إن بداية الحكم الفارسي في فلسطين محاط بظلمة تاريخية. والشيء نفسه يمكن قوله عن العقود الأخيرة لتلك المرحلة» [25].

يشير الباحثون التوراتيون إلى وجود مقاطعة (يهوذا - يهد) في بلادنا فلسطين إبان الحكم الفارسي للإقليم، فها هو الباحث العربي فراس السواح، يعلن: «أن الشواهد الأثرية بخصوص مقاطعة يهود الفارسية تنحصر في طبعات الأختام على الجرار الفخارية المعدة لتسويق منتجات الزيت والخمور وما إليها، وكذلك في قطع العملة المعدنية. تبدأ قطع العملة المعدنية التي تحمل اسم مقاطعة يهود بالظهور في المستويات الأثرية العائدة لأواخر القرن الخامس قبل الميلاد، وكذلك شظايا الجرار الفخارية التي تحمل طبعات أختام تذكر اسم المقاطعة منقوشًا بالقلم الآرامي الخالي من الحركات الصوتية (ي هد)» [26]. ورغم أن الباحث السواح، يشير إلى وجود مقاطعة يهوذا في بلادنا فلسطين، إلا أنه ليس بين أيدينا أي وثائق مستقلة تثبت ذلك حيث ينفي علماء آخرون مثل هذه الإدارة. وعلى هذا فإن القائلين بوجود مقاطعة يهوذا مستقلة يعتمدون بالكامل على نصوص سفر نحميا، وكذلك على قطعة نقود معدنية عثر عليها في فلسطين نقش عليها كتابة قرأها البعض (يهد)، بينما يفضل آخرون قراءتها علي نحو (يحنن) [27].

ومن الجدير بالانتباه، أن مرجعنا المستقل الوحيد عن هذه الفترة، هو كتاب تاريخ «هيرودوت»، الذي لم يشِر ولو تلميحًا إلى «يهوذا» و«إسرائيل»، فلو سمع بذلك لسجله.

والسؤال المطروح ههنا: هل هناك عودة لـ «يهوذي» السبي البابلي؟! بعد الانتصار الشهير الذي أحرزه قورش على البابليين، واحتلاله بابل 539 ق.م، أعلن الإمبراطور الفارسي (قرارًا) أو (مذكرة) جاء فيها: «الإله مردوخ طاف كل البلدان وبحث عن أمير عادل، أمير قريب من قلبه بوسعه أن يأخذه بيده؛ وقد ناداه باسمه: يا كورش، ملك انزان! فعينه لسرير الملك..

لقد نظر الإله مردوخ .. نظرة فرح.

إلى أعماله الخيرة، وإلى قلبه العادل
وأمره بأن يذهب إلى مدينته
بابل .. وكصديق
ورفيق مشى إلى جانبه.. »
وتنهي أسطوانة كورش تدوينها المطول على هذا الوجه: «إن آلهة سومر وآكاد التي
أجرعها نبونيد، على أثر غضب
مردوخ العظيم، إلى بابل،
بناء على أمر مردوخ، جعلتها
من جديد تحتل مذابحها بطمأنينة وهدوء».
ويضيف كورش في صلاته قائـلًا: «كل الآلهة الذين أعدتهم
إلى مذابحهم، يوميًا
أمام بعل مردوخ ونابو،
يدعون لي بالعمر الطويل!
وليتهم يحدثون الإله مردوخ، سيدي
عن كورش .. وعن
ولده قمبيز!»
وتشير الأسطوانة بالإضافة إلى ذلك، أن قورش: «منح حق العودة لشعوب كل البلدان قاطبة» [(28)].

الصورة الرقم (١٣ - ٢) جانب من أسطوانة قورش

هنا يقول الرأي التقليدي بأن قورش سمح لـ«يهوذي» السبي بالعودة إلى فلسطين. وذلك وفق (قرار كورش) أو (مذكرة كورش) المشار إليها آنفًا في سفر عزرا، بالرغم من أن (مذكرة كورش) لا تشير إطلاقًا إلى يهوذي السبي، ولم تصلنا أية وثيقة فارسية بخصوص هذا المرسوم الوارد في سفر عزرا.

فتحت أسطوانة كورش الباب واسعًا للتساؤل عن تاريخية مرسومه وندائه المكتوب كما جاءا في سفر عزرا. «باولو ساخي يقول إن الإسطوانة «أدت

إلى بعض الشكوك في تاريخية مرسوم كورش لمصلحة اليهود. وفي الواقع، فإنه من المحتمل أن ذلك المرسوم لم يصدر قط». أما غراب فيذهب إلى أبعد من ذلك فهو بتحليله لنص المرسوم كما في سفر عزرا في ضوء سياسة الفرس المتبعة بالنسبة للأديان الأخرى غير الفارسية (كانوا يتسامحون مع العبادات المحلية لكن لم يكونوا ليروجوها) والإشارات إلى الأقوام الأخرى غير اليهود بأن يوفروا الأموال والتجهيزات لأي شخص يريد الذهاب إلى القدس ليبني الهيكل، والتعبيرات الواردة في «المرسوم» المشتقة من اللاهوت اليهودي، يصل إلى نتيجة بأن المرسوم مرفوض وأن هناك كاتبًا يهوديًا اخترعه ليؤيد وجهة نظره» [(29)].

وإذا كان هناك في الحقيقة عودة من المنفى في الفترة الفارسية، فإن «إعادة الاستيطان» لم تترك أي أثر ديمغرافي مرئي للسكان. لا يوجد أي أثر «للعودة إلى زيون Zion» يمكن أن يترك بصمة في الدليل الآثاري. وقد تم انقاص تقديرات حالية لمساحة أوروشاليمو [القدس] في الفترة الفارسية من القرن الخامس وحتى الثالث من تقديرات ألبرايت (Albright) في عام 1949 وبشكل يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار من (15000 - 10000) لتقدر بنحو من 400 إلى 1000 ولا يوجد أي دليل عن جدار مدينة فارسية مع أو بدون بوابات عديدة، كما تم وصفه في أساطير نحميا (Nehemiah). وكما ناقش فنكلشتاين لا يوجد أي دليل على وجود هذا الجدار. وبالتأكيد، كتاب قصة نحميا عن بناء الجدار ذي الاثنتي عشرة بوابة للمدينة هو قصة خيالية لا غير.

أن المرء لا يمكن أن يستنتج أن القدس كانت بكاملها فارغة خلال الفترة الفارسية، فقد تم العثور على ما بقي منها فقط في حفرات بين المباني الأخيرة أو على طول المنحدرات إلى الشرق والغرب من أطراف أوفل. هذا إضافة إلى لقى معمارية قليلة لا تصادق على صحة وجود مركز مدني في الفترة الفارسية قبل تشييد المدينة الهيللينستية في القرن الثاني ق.م. ولا يوجد أي دليل على القبور الغنية ولا إشارات عن المادة الثقافية الغنية، من كسر فخارية أو طبعات أختام.

ومن الهضبة الغربية - حيث يمكن أن تكون المدينة قد توسعت إذا كانت تمتلك مساحة كافية يمكننا العثور فقط على كسر قليلة جدًا ولقى صغيرة أخرى تم الكشف عنها في السويات المتأخرة.

أما بالنسبة إلى ما يدعى «برج داود»، فلا يوجد أي بقايا أبكر من القرن الثاني. وتم هجر هذه المنطقة بأكملها خلال الفترة الفارسية. وقد شهدت منطقة الهضبة الغربية أيضًا أول استيطان في القرن الثاني. ويبدو أن جزءًا من أوفل والجزء الشمالي من الهضبة الغربية شهدا بعض الإشغال خلال الفترة الفارسية بين آثار بلدة عصر الحديد. مع ذلك، تشير بقايا حجرية أو زجاجية إلى

أنه منطقة واحدة على الأقل من الهضبة الغربية كانت تتوضع خارج المدينة في ذلك الوقت.

وبشكل عام، تشير بقايا الفترة الفارسية التي عثر عليها إلى وجود مستوطنة فقيرة مسلوبة القوة على طول الحافة الضيقة تحت وجنوب أوفل. تم تقدير المنطقة الرئيسة من الأشغال كحد أدنى من نحو 20 دونم إلى 50 دونم. لذلك، وجود لقى قليلة جدًا في هذه المناطق وعدد السكان نحو 1000 نسمة يمكن أن يعتبر شيئًا مبشرًا تمامًا. والتقديرات المنخفضة من 400 نسمة التي افترضها فنكلشتاين ربما تكون الأفضل.

ومن المهم ملاحظة أن هذه الثغرة النسبية في الاستيطان في القدس ليست مفاجأة كما يمكن أن يعتقد المرء بأن السكان من جميع المرتفعات الجنوبية التي تتموضع ضمن مقاطعة جيهود كانوا قليلين في جميع أوقات الفترة من القرن السادس وحتى الثاني. لا يوجد لدينا دليل بتمييز أورشليم [القدس] على أنها «مدينة مقدسة» في الفترة الفارسية.

من جهة، فإن الإشارة إلى المسؤولين السياسيين في السامرة تدعم فهم أن «استيطان ييروشليم في الفترة الفارسية يقلص دور السياسيين والدور السياسي فيها مقارنة بالسامرة» [(30)]. وهذا ما أشار إليه لمكة بقوله: «لقد بدأ الشك في الرواية التوراتية عن العودة، وعن الفترة الفارسية» [(31)]؛ فـ «مهما كان الشعب الذي نقل أو أعيد إلى فلسطين، فهم بالتأكيد لم يكونوا إسرائيليين» [(32)].

---

(1) هيرودوت، تاريخ هيرودوت، ترجمة عبد الإله الملاح (أبو ظبي: المجمع الثقافي، 2001)، ص 261.

(2) زياد منى، مقدمة في تاريخ فلسطين القديم (بيروت: بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، 2000)، ص 104.

(3) هيرودوت، المصدر نفسه، ص 262.

(4) المصدر نفسه، ص 219.

(5) المصدر نفسه، ص 307.

(6) المصدر نفسه، ص 522.

(7) معاوية إبراهيم، «فلسطين: من أقدم العصور إلى القرن الرابع قبل الميلاد،» في: الموسوعة الفلسطينية، ألفها نخبة من العلماء (بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية، 1990)، ص 131.

(8) الياس شوفاني، الموجز في تاريخ فلسطين السياسي (منذ فجر التاريخ حتى سنة 1949) (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1996)، ص 110 - 111.

(9) وليم أولبرايت، آثار فلسطين، ترجمة زكي إسكندر ومحمد عبد القادر محمد (القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 1971)، ص 140.

(10) الكتاب المقدس، «سفر عزرا،» الأصحاح 1، الآيات 1 - 4.

(11) المصدر نفسه، «سفر عزرا،» الأصحاح 1، الآيات 7 - 11.

(12) المصدر نفسه، «سفر عزرا،» الأصحاح 5، الآيات 14 - 16.

(13) المصدر نفسه، «سفر أشعيا،» الأصحاح 45، الآيات 1 - 5.

(14) المصدر نفسه، «سفر عزرا،» الأصحاح 3، الآيات 8 - 13، والأصحاح 4، الآيات 1 - 5.
(15) المصدر نفسه، «سفر عزرا،» الأصحاح 7، الآيات 12 - 26.
(16) المصدر نفسه، «سفر نحميا،» الأصحاح 1، الآية 1.
(17) المصدر نفسه، «سفر نحميا،» الأصحاح 2، الآيتان 17 - 18.
(18) المصدر نفسه، «سفر نحميا،» الأصحاح 6، الآيات 15 - 17.
(19) المصدر نفسه، «سفر نحميا،» الأصحاح 7، الآية 4.
(20) المصدر نفسه، «سفر نحميا،» الأصحاح 11، الآيتان 1 - 2.
(21) منى، مقدمة في تاريخ فلسطين القديم، ص 102.
(22) جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودي (عمّان: الأهلية للنشر والتوزيع، 1998)، ص 103.
(23) عصام سخنيني، تهافت التأريخ التوراتي (عمّان: الأهلية للنشر والتوزيع، 2018)، ص 179.
(24) عصام سخنيني، القدس تاريخ مختطف وآثار مزورة (عمّان: اللجنة الملكية لشؤون القدس، 2009)، ص 120 - 122.
(25) منى، مقدمة في تاريخ فلسطين القديم، ص 106.
(26) فراس السواح، تاريخ أورشليم والبحث عن مملكة اليهود، ط 3 (دمشق: دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، 2003)، ص 233.
(27) منى، المصدر نفسه، ص 103.
(28) مارغريت روتن، تاريخ بابل، ترجمة زينة عازار وميشال أبي فاضل، ط 2 (بيروت؛ باريس: منشورات عويدات، 1984)، ص 170 - 172.
(29) سخنيني، تهافت التأريخ التوراتي، ص 182 - 183.
(30) توماس طومسون، «ما نعرفه وما لا نعرفه عن القدس في الفترة ما قبل الهيللينية،» مهد الحضارات (دمشق)، عدد خاص بالقدس (2009 - 2010)، ص 117.
(31) نيلز لمكه، «استخدام التاريخ ذريعة للاستيلاء على الأرض،» في: كيث وايتلام [وآخرون]، الجديد في تاريخ فلسطين القديمة، ترجمة عدنان حسن وزياد مني (دمشق: قدمس للنشر والتوزيع، 2004)، ص 32.
(32) توماس طومسون، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ترجمة صالح علي سوداح (بيروت: دار بيسان للنشر والتوزيع، 1995)، ص 289.

الفصل الرابــع عشر
مـن هـم سـكــان الـقــدس؟!

كانت القدس التاريخية، كما كانت فلسطين كلها، مجالًا للتواجد الإنساني منذ أقدم العصور، فالحفريات تشير إلى أن: «الإنسان وجد في فلسطين منذ أقدم العصور، وأنه عاصر أقدم النماذج البشرية» [(1)].

تدل الشواهد الأثرية أن سكنى أراضي القدس، قد تم في العصر الحجري القديم الأدنى الثاني، يؤرخ من حوالى 700,000 إلى 250,000 سنة مضت، كذلك في العصر الحجري الأوسط أو الباليوليت الأوسط 100,000 - 35,000 سنة خلت، وفي العصر الحجري القديم الأعلى (الباليوليت الأعلى) [(2)].

وفي العصر الحجري الوسيط، وهي الفترة الانتقالية بين العصر القديم والحديث، ودامت نحو ستة آلاف سنة اعتبارًا من نحو عام 12,000 قبل الميلاد، تميزت مدينة القدس بإسهامها في «الحضارة الناطوفية»، التي سُمّيت لذلك باسم وادي النطوف شمالي غربي القدس.

ينتمي أصحاب تلك الحضارة إلى «عنصر البحر المتوسط، تدل الهياكل العظمية التي عُثر عليها في مواضع مختلفة، أن أصحاب هذه الثقافة كانوا أقرب إلى قصر القامة، ويمتازون بالنحافة، يحملون صفات البحر المتوسط، برأسها الطويل، ووجهها الضيق - المسكون - مثل كثير من العرب الحاليين» [(3)]. فقد «اكتشفت في فلسطين نحو خمسين هيكـلًا لنموذج عرق البحر المتوسط في مقبرة قديمة، تبعد عشرين ميـلًا عن القدس» [(4)].

في هذا الصدد يقول، عالم الآثار الأمريكي، وليم أولبرايت: «وكان الناطوفيون أنفسهم من شعوب البحر المتوسط القديمة، التي تتميز بهياكل عظمية نحيلة، ورؤوس مستطيلة، وتقاطيع دقيقة، ومتوسط طول الرجال يزيد قليـلًا عن خمسة أقدام. وحيث إنه وجدت هياكل بشرية مشابهة جدًا لهذه الهياكل في حضارة البداري في مصر، وكذلك من العصر النحاسي المتأخر في جازر وجبيل (بيبلوس)، فإنه يبدو أن هذه الشعوب انتمت إلى أسلاف السلالة السامية - الحامية التي لم تكن قد أصبحت بعد منقسمة إلى مجموعات متباينة بعضها عن بعض تباينًا واضحًا لغويًا وقوميًا كما حدث فيما بعد. ولعل التغير الوحيد الملوحظ في الصفات الجسمانية حدث في الطول غير أنه من المعروف تمامًا الآن أن التحسن في التغذية لبضعة أجيال قليلة جدًا تنتج عنه زيادة محسوسة في الطول» [(5)].

يلمس المؤرخ في تاريخ فلسطين، منذ العصر الحجري الحديث، بعض الظواهر الحضارية الخاصة، التي تؤكد توافد سلالات بشرية من الصحراء إلى

هذه المنطقة، لا شك أنها سامية أو بالأصح جزرية [6].

في ذلك يقول العلامة طومسون، إن هذا «التغير في سوريا - فلسطين، أواخر العصر الحجري الحديث، وأوائل العصر النحاسي يجب ألا يعتبر غزوًا كثيفًا، أو اقتلاعًا للسكان المحليين؛ إبان العصر الحجري الحديث كان الخليط الإثني في فلسطين قد أصبح معقدًا، ولا معلومات لدينا عن أية تطورات هامة، خلال فترة الانتقال إلى العصر النحاسي، وأكثر من ذلك فإن وجود مستويات ثقافية، ومادية لدى السكان المحليين، ووجود قرى ومدن ذات حجم كبير، ونظام اجتماعي تفوق أي شيء يمكن توقعه، يجعل من الصعب أن نتصور سوريا - فلسطين عرضة لغزو قام به عدد، لا بد أن يكون صغيرًا، من الفلاحين والرعاة الساميين (الجزريين) والأحرى هو أن السكان المحليين استمروا وأن التغير كان لغويًا وتدريجيًا». ويضيف طومسون قائلًا: «مهما كانت هذه الهيكليات التاريخية احتمالية فإنها توحي بوضوح بأن السكان الأصليين في فلسطين لم يتغيروا كثيرًا منذ العصر الحجري. وخلال فترة الألف السادس - الرابع قبل الميلاد أصبحت فلسطين سامية (بمفهوم لغوي) وخلال العصر البرونزي القديم أقامت نمطًا استيطانيًا واقتصاديًا بقي من خصائص المنطقة حتى الحقبة الآشورية، في الأقل» [7].

أولًا: كنعانيون

أطلق مؤرخو الشرق الأدنى القديم، على العناصر التي قطنت فلسطين ولبنان وسورية، منذ أقدم العصور تسمية كنعان وكنعانيين، كتسمية تقليدية عامة لمنطقة فلسطين والساحل الفينيقي، دون تحديد دقيق.

واستنادًا إلى العديد من الحقائق استنتج سباتينو موسكاتي، أن «تسمية «كنعان» لا تبعث على الرضا من نواح عدة، فإنه يبدو من تمحيص المصادر أن لفظي كنعان والكنعانيين كانا يعنيان قبل كل شيء فينيقيا والفينيقيين، ولم يستعملا إلا في عصر متأخر للدلالة على مدلولين أوسع نطاقًا؛ أحدهما جغرافي، والآخر جنسي. هذا إلى أن حدود تلك التسمية ليست محددة تحديدًا يدعو إلى الرضا، فهذه الحدود واضحة بعد مجيء القبائل الآرامية، ولكن هذا الحدث متأخر نسبيًا، وكان لفظا كنعان والكنعانيين يطلقان قبل ذلك على المنطقة السورية - الفلسطينية بأسرها وعلى سكانها. ثم إن الكنعانية من حيث هي مجموعة لغوية ليست وحدة حقيقية، فلفظ «كنعاني» يطلق كما لاحظ الأستاذ فريدرش عن حق، على أي عنصر لغوي سوري - فلسطيني لا ينتمي إلى الآرامية» [8].

ويذكر العلامة طومسون أنَّ «تعبير (كنعاني) أساء استعماله معظم العاملين في الأركيولوجيا ودراسات الشرق الأدنى القديم اليوم.. تعبير (كنعاني) كما هو

مستعمل في الأركيولوجيا التوراتية، اسم قبلي تعود أصوله إلى مرويات العهد القديم خلال مرحلة ما بعد النفي، الهادفة لمحاربة عبادة بعل. فهو القطب المضاد لإسرائيل، وفي العصر الحديدي الأول، لا يبدو مناسبًا أبدًا. إطلاق (كنعاني) على ثقافة الدولة المدينة في السهول والوديان الرئيسية مثير للاعتراض. هذا لأنه ليس تعسفيًا في تحديداته فحسب، بل لأنه يفترض وحدة إثنية - سياسية ومادية هي ببساطة لا تتوافق مع أي حقيقة نعرفها، حتى خلال العصر البرونزي. وتعبير (كنعاني) ليس اسمًا جغرافيًا فحسب، ولا يعرف كاسم قبلي في هذا التاريخ المبكر، بل إن إطلاقه على الأراضي المنخفضة في فلسطين كمنطقة يسود فيها نظام الدولة المدينة في العصر الحديدي الأول، مثير للسخرية» [(9)].

يعود ويشير طومسون في كتاب **الجديد في تاريخ فلسطين، الفصل الثالث: من العصر الحجري إلى إسرائيل** إلى: «إن كلمة (كنعاني) تقوم بوظيفتها مصطلحًا ازدرائيًا بالإشارة ليس إلى الإثنية أو حتى إلى شعب منطقة ما، بل إلى الطبقة التجارية في المجتمع، على نحو يتماشى كثيرًا مع التمييزات الاجتماعية كما هو موجود ضمنًا في الإشارة العربية إلى البدو والفلاحين والمدنيين. في الورودات الكثيرة للاسم (كنعاني) في التراثات الكتابية، فإن المشار إليه هم السكان الأصليون الأسطوريون لـ (أرض كنعان)، مع الإشارة إلى فلسطين. المرة الأولى التي يستخدم فيها هذا المدلول معرفًا لذاته ذي دلالة إثنية هي في نص فينيقي متأخر، من دون الإشارة إلى فلسطين إطلاقًا» [(10)].

ويكفي أن نذكر أن اليونانيين تحدثوا عن الفينيقيين، ولم يذكروا الكنعانيين، بدءًا من هوميروس إلى هيرودوتس. ومن المسائل الواجب أخذها بعين الاعتبار أن سكان الساحل السوري لم يطلقوا على أنفسهم كنعانيين، بل كانوا يعرفون أنفسهم بأهل صيدا، وأهل صور، وأهل جبيل... إلخ، والتي تمتد حركاتهم (الفينيقيين) من الناحية الزمنية إلى مراحل ما قبل التاريخ. حيث كان موطنهم الأصلي في جنوب الجزيرة العربية.

يسجل المؤرخ هيرودوتس (484 - 425 ق. م)، التأكيد على موطن الفينيقيين بقوله: «والفينيقيون كانوا يسكنون سابقًا سواحل بحر إريتريا (البحر الأحمر) كما يقولون هم أنفسهم. إذ اجتازوا من هناك إلى سواحل سورية فقطنوها. والقسم من سورية مع كل البلاد التي تمتد إلى تخوم مصر يسمى فلسطين» [(11)].

ثانيًا: أموريون - عموريون

تشير كنيون إلى «وصول جماعات جديدة من الناس إلى جنوب بلاد الشام، والدليل على ذلك ظهور أنواع جديدة من الفخار إلى جانب أسلحة وعادات دفن جديدة وانبعاث الحياة في القرى من جديد. وقد أتت هذه الجماعات من مناطق متقدمة حضاريًا، فكانت هذه الجماعات على صلة وثيقة بالمدن الفينيقية الساحلية والمناطق السورية الداخلية» [(12)]. وقد «وفدت صناعة هذا الفخار إليها من سوريا، حيث تعرف بالصناعة «الكأسية»، وذلك لتفضيل الفخارين لشكل كأس الزهرة على ما عداه من الأشكال الأخرى» [(13)]. «وليام ديفر، في أطروحته ومنشوراته القديمة التي تلتها، حافظ على التصور لغزو «عموري» لأنه يفسر المظاهر الشاذة في التحول من العصر البرونزي القديم الرابع إلى البرونزي المتوسط الأول، وفي العصر البرونزي الوسيط الذي تلاه أيضًا. بحلول منتصف السبعينات، وربما لتأثره بالاعتراضات المتزايدة على فرضية كينون، أكد ديفر تصور أستاذه جي. أي. رايت لمخزون الخزف في العصر البرونزي القديم الرابع بأنه محلي، ورأيه القائل بتواصل ثقافي مع حقبة العصر البرونزي القديم السابقة، ورأيه بأن سمة الآثار المادية لفترة العصر البرونزي القديم الرابع - البرونزي الوسيط الأول محلية إلى حد كبير أيضًا. رغم محاولته الحفاظ على علاقات الغزوات العمورية، مع التأكيد الغريب على أن الموجتين العموريتين جاءتا من منطقة السهوب نفسها، الأولى في العصر البرونزي القديم الرابع جاءَت من ثقافة «شبة بدوية» ولذلك، لم تجلب معها أي ثقافة متميزة، بل تبنت ثقافة فلسطين، فيما الثانية (المسؤولة عن بداية العصر البرونزي الوسيط) كانت «مدنية كليًا أو جزئيًا» قبل دخول فلسطين. من دون أن يحاول إيضاح إسباب «تمدن» السهوب السورية، أو تقديم سبب لهجرة هذه الجماعات المستقرة، نأى ديفر بنفسه، وبشكل أكيد، عن تفسير كينون السائد، وبحلول عام 1982، انضم إلى الإجماع المتنامي الذي لم يرفض نظرية الغزو العموري في العصر البرونزي القديم الرابع - البرونزي الوسيط الأول فحسب، بل اعتبرها محلية ومستقرة. ويقر هذا الإجماع بوجود عدد من أشكال البداوة الرعوية، مما يشكل مظهرًا هامًا في اقتصاد العصر البرونزي القديم الرابع - البرونزي الوسيط الأول، وقد كان الشائع تصورها على شكل الارتحال المؤقت، في منطقة النقب، في الأقل» [(14)].

يعتقد العلماء أن نمط «الحياة خلال هذه الفترة أصبح نمطًا غير مستقر، وأن كـلًا من شرق فلسطين وغربها كانت تستعمره قبائل بدوية ونصف بدوية» [(15)]. وتحديدًا فقد ربطت هذه الفترة من تاريخ فلسطين وبلاد الشام، بوصول مجموعات بشرية أطلق عليها اسم (الأموريين/العموريين)، هذا وقد تم تمييز هؤلاء بناءً على الاختلافات في عادات الدفن، وظهور أنواع فخارية جديدة،

وتصف كينيون أن هؤلاء الأموريين [العموريين] «رعاة وليسوا مزارعين، وكانت مساكنهم عبارة عن خيام أو مظلات» [16].

يقول محمد بيومي مهران: «ولسنا نعرف عن أهل البلاد الأصليين قبل قدوم الآموريين الكثير. بل إن معلوماتنا عنهم تكاد تكون شبه نادرة، إن لم تكن معدومة في بعض النواحي، فربما كانت بها جماعات ليست من جنس البحر المتوسط قدمت من مواطنها في الأراضي المرتفعة فى آواسط آسيا، أثناء العصر الحجري النحاسي، وفرضت نفسها على سكان البلاد واختلطت بهم على مر الأيام، كما أثبتت ذلك الحفائر في (جازر) و(قرقميش) وغيرها من مواقع أخرى، كما في فلسطين، وربما كان بها بعض السومريين الهندو - أوروبيين.

على أية حال، فلم تكن بلاد الشام خالية من السكان عند قدوم الهجرة السامية الكبرى إليها، بل كان فيها، دون شك، أقوام سامية اختلطوا بسكانها الأصليين، الذين كانت لهم لغات وديانات غير سامية الأصل، ولكن سرعان ما طغت السامية على غيرها» [17].

يربط عالم الآثار التوراتي أولبرايت، بين العصر البرونزي المتوسط وعصر الآباء في الكتاب المقدس بالقول: «يقابل العصر البرونزي المتوسط وعصر الأنبياء في الكتاب المقدس، ولو أنه لم يمكن حتى الآن تحديد تاريخ هجرة إبراهيم من بلاد الرافدين أو تاريخ هجرة يعقوب إلى مصر على وجه الدقة. ومن رأى المؤلف حاليًا أن الهجرة من أور إلى حاران والبلاد الواقعة غربها ربما حدثت في القرنين العشرين والتاسع عشر ق.م، وأن هجرة يعقوب إلى مصر ربما وقعت في غضون القرن الثامن عشر ق.م أو على وجه أرجح فى القرن السابع عشر ق.م. مرتبطة بحركة الهكسوس» [18].

«حاول أولبرايت إثبات أن بعض التفاصيل الفريدة في قصص الآباء في سفر التكوين قد تحمل مفاتيح دلالية تُفيد في تحقيق أساسها التّاريخي. يمكن مُطابقة عناصر مثل أسماء شخصيات معينة، وعادات زواج غير مألوفة، وقوانين شراء الأراضي، مع سجلات تعود إلى الألفية الثانية ق.م لمجتمعات بلاد ما بين النهرين، التي يُفترض أن الآباء قدموا منها. ولا يقل أهمية عن ذلك، وصف الآباء - بنحو واقعي - بأنهم كانوا يعيشون حياة بدوية، يرتحلون بقطعانهم في جميع أرجاء بلاد التَّلّ المركزية لكنعان، بين شكيم (نابلس)، وبيت إيل، بئر سبع، وحبرون (الخليل). لقد أقنعت كل هذه العناصر أولبرايت أن عهد الآباء كان عهدًا حقيقيًا» [19].

ينتقد ديفر (Dever) هذه النظرية ويرى أن «كبرى المدن الفلسطينية التي لها ارتباط مع الأجداد الأوائل في القصص التوراتي لم تكن مأهولة في الحقبة الأولى من عصر البرونز المتوسط الذي يتحدث عنه (أولبرايت). فمدينة

(شكيم) أو (دوتان) أيضًا تأسستا في الحقبة الثانية (أ) من عصر البرونز المتوسط، ومن المؤكد أيضًا أن مدينة (بيت إيل) لم تصبح مدينة بالمعنى الصحيح في الحقبة الأولى من عصر البرونز المتوسط، كما أن حبرون (مدينة الخليل) تأسست وحصنت في الحقبة الثانية من عصر البرونز المتوسط. وفي بئر السبع لم يعثر المنقبون على أدلة مادية للحقبة الأولى من عصر البرونز المتوسط، أما موقع (عي) فلم يعد السكن إليه قبل عصر الحديد بعد أن لحقه الدمار في الحقبة الثالثة من عصر البرونز القديم.

ويرد الأستاذ ماتيه على أولبرايت فيقول: إن المعادلة بين حضارة الحقبة الثانية (أ) من عصر البرونز المتوسط في فلسطين وعصر الأجداد الأوائل في التوراة ليس إلا تبسيطًا أوليًا للمشكلة بالرغم من شيوع هذه النظرية في الكتب الثقافية وترديدها دون أي انتقاد، إن هذا الأمر لا يعتبر معضلة تاريخية ولا يمكن حلها على هذا الأساس إنما هي صياغة ونسخ وتأليف المصادر الأدبية، من المؤكد أن أسفار الكتاب المقدس المتعلقة بالأجداد الأوائل ليست متجانسة وليست مرتبطة بفترة تاريخية واضحة المعالم، فهي ذات أصول متباينة وتشير بشكل غامض إلى فترة قديمة سابقة لزمن موسى. إن مشكلة الوجود التاريخي للأجداد الأوائل مرورًا بمشكلة التحديد الزمني لوجودهم هي مشكلة واهية ولا يمكن حلها بشروط تاريخية حقيقية» [(20)].

يذهب بعض المؤرخين الجدد إلى أن «تحركات الأموريين (العموريين) لم تكن إلا نتيجة من نواتج التبديلات المناخية الشاملة - فالأموريون ليسوا جماعات غريبة وفدت إلى بلاد الشام من هجرات الجزيرة العربية، بل هم أهل المناطق التي نكبها الجفاف فهجروا أراضيهم الزراعية وتحولوا إلى حياة الرعي والتنقل وخصوصًا في فلسطين وسورية الجنوبية التي تلقت أقوى ضربات الكارثة المناخية، ومن هؤلاء شرائح معدمة ارتحلت باتجاه الدلتا المصرية أو باتجاه الفرات» [(21)].

ويؤكد طومسون أنه، «حتى منتصف السبعينيات كانت البحوث الكتابية والأثرية تفهم الانتقال ما بين العهدين البرونزي المبكر والبرونزي الوسيط بلغة النظرية القديمة لهجرة البدو الرّحل الساميين من شبه الجزيرة العربية. وقد ربط كثيرون تلك النظرية بالنصوص المسمارية والمصرية التي كانت تشير إلى عمّورو وعمو. وخلق المؤرخون تاريخًا للهجرات والغزوات العمورية التي اجتاحت الهلال الخصيب من الخليج إلى الدلتا المصرية. كان يعتقد أن هذه القبائل البدوية قد دمرت ثقافات العهد البرونزي المبكر لبلاد ما بين النهرين وفلسطين، وأنها خلقت العهد الوسيط الأول لمصر، وبعد عدة قرون، أدت إلى نشوء الهيمنة العمورية بين دول ما بين النهرين في سورية وفلسطين. ربطت الآثاريات الكتابية تلك (الحركة العمورية) بحكايات الآباء

الكتابيين، وخصوصًا بقصتي إبراهيم ويعقوب. فهي تقرأ وراء القصص تاريخًا لحركات الشعوب.

بفعلها هذا، خلقت البحوث الكتابية تاريخًا مزدوجًا للأصول لإسرائيل القديم: واحدًا بصفتهم (شعب إسرائيل) بدوًا رحـلًا من شمال بلاد ما بين النهرين في أوائل الألف الثاني، وآخر بصفتهم رعاة أشباه بدو في نهاية العصر البرونزي، نحو (1200 ق.م). ذلك (التاريخ) يعتمد على قصص كتابية منتقاة بعناية بسبب ترابطها المنطقي. فإبراهيم انتقل من أور في جنوب بلاد ما بين النهرين إلى حران في الشمال. من هناك دخل (كنعان) مع عائلته. ومع ذلك نزل يعقوب وعائلته إلى مصر في وقت لاحق ليصبح هناك إسرائيل ويعود إلى فلسطين تحت اسم يشوع. وكان يُعتقد أن تلك الرواية تعكس غزوًا ثانيًا لفلسطين قام به الإسرائيليون، الذين اشتركوا في هجرة (آرامية) أوسع خلقت شعوبًا عبر الأردن. لم تكن تلك حقًّا لا فرضية تاريخية أو إعادة بناء تاريخية على أساس من الجدل، لقد كانت إقحامًا للتناغم والتماهي بين قصص كتابية منتقاة ومعطيات آثارية» [(22)].

لقد ثبت - علميًا - أن الهجرة الغربية المفترضة لمجموعات ما بين النهرين نحو كنعان، والتي سُميت بالهجرة العمورية، والتي وضع أولبرايت - ضمنها - هجرة إبراهيم وعائلته إلى أرض كنعان، «لم تعدُ كونها فكرة خادعة ووهمية؛ إذ فند علماء الآثار - بشكل كامل - الزّعم بأن ثمة حركة انتقال سُكاني جماعي ومفاجئ حدثت في مثل ذلك الوقت» [(23)].

«كما أننا لا نملك الدليل على أن البلاد قد تعرضت إلى موجة كبيرة من المهاجرين من سوريا، ولا يوجد زيادة في عدد السكان سببها هذه الهجرة، كما أنه لا دليل لدينا يبين أن مستوطنات المرحلة الرابعة من العصر البرونزي المبكر قد انتهت إلى التدمير في أواخر حياتها. إن الكثرة في عدد مواقع المرحلة الأولى بدأت تدريجيًا، وهذا بحد ذاته يؤكد أن البلاد لم تتعرض إلى موجات كبيرة من المهاجرين.

ومما لا شك فيه أن مظاهر حضارية قد انتقلت من جنوبي بلاد الشام إلى الشمال (مثل البلطة المشبعة، والسهم المجنح). وبمعنى آخر كان اتجاه السير من الجنوب إلى الشمال وليس من الشمال إلى الجنوب. بغض النظر عن أن بعض المصنوعات التي وجدت في هذه البلاد هي سورية الأصل، مثل الصناعات النحاسية، وبعض نماذج الأواني الفخارية كالآنية الملونة بخطوط عريضة على شكل أشرطة، والقوارير الفخارية المنبعجة الشفة، كذلك القوارير الملونة بلون «المونو كروم» أو الأحادي اللون المصنوع على عجلة سريعة. إن وجود هذه الصناعات في الأردن أو فلسطين إنما هو عائد إلى تبادل تجاري مكثف بين شمالي بلاد الشام وجنوبيها» [(24)].

تظهر لنا المخلفات المادية للبرونز الوسيط استمرارية حضارية مشابهة للفترة الانتقالية ومع البرونز المبكر. وإضافة إلى هذه الاستمرارية الحضارية، فإن «عصر البرونز الوسيط في سورية يعطينا صورة لوحدة ثقافية تامة تجمع كل المناطق في بوتقة واحدة. فمن أوغاريت وكركميش في الشمال وحتى أطراف الصحراء في الجنوب، تبدو الروابط واضحة في كل أثر مادي، سواء في الفخار أو الفنون التشكيلية المختلفة أو فن العمارة أو تقنيات إنشاء الأسوار الدفاعية. ورغم أن المنطقة قد استوعبت إليها تحركات بشرية واسعة من الخارج، إلا أن الطابع الثقافي المحلي بقي سائدًا ومتماثـلًا في جميع أنحائها، واستمرت الثقافة الكنعانية في مسيرتها لتتجاوز البرونز الوسيط إلى البرونز الأخير فعصر الحديد» [(25)].

ثالثًا: يبوسيون

ورد اسم اليبوسيين أهـلًا للقدس في مواضع عدة من أسفار العهد القديم، وهم يُنسبون إلى كنعان، فقد جاء في سفر التكوين: «وَكَنْعَانُ وَلَدَ: صِيْدُونَ بِكْرَهُ، وَحِثًّا وَالْيَبُوسِيَّ وَالأَمُورِيَّ وَالْجِرْجَاشِيَّ وَالْحِوِّيَّ وَالْعَرْقِيَّ وَالسِّينِيَّ وَالأَرْوَادِيَّ وَالصَّمَارِيَّ وَالْحَمَاتِيَّ» [(26)]. وكذلك جاء في سفر أخبار الأيام الأول: «وَكَنْعَانُ وَلَدَ: صِيدُونَ بِكْرَهُ، وَحِثًّا وَالْيَبُوسِيَّ وَالأَمُورِيَّ وَالْجِرْجَاشِيَّ وَالْحِوِّيَّ وَالْعَرْقِيَّ وَالسِّينِيَّ وَالأَرْوَادِيَّ وَالصَّمَّارِيَّ وَالْحَمَاثِيَّ» [(27)]. وعلى ذلك فقد رد المؤرخون العرب اليبوسيين إلى أصول كنعانية، وأنهم بطن من بطون العرب الأوائل.

يقول عارف العارف: «اليبوسيون، بُناة القدس الأولون، وكانت على عهدهم تدعى: يبوس. أنهم بطن من بطون العرب الأوائل. نشأوا في قلب الجزيرة العربية، وترعرعوا في أرجائها، ثم نزحوا عنها مع من نزح من القبائل الكنعانية. وإلى هذه القبائل ينتمون. إنهم أول من استوطن هذه الديار. وأول من وضع لَبِنَة في بناء القدس. وكان ذلك نحو سنة 3000 قبل الميلاد» [(28)].

كذلك نود الإشارة إلى أن الاسمين يبوس واليبوسيون لم يردا خارج النصوص التوراتية، ويقترح هوبنر (Hübner)، «إطلاق تسمية «المقدسيين» عوضًا عن الاسم اليبوسيين الواردة في التوراة (مثـلًا يرد اسم اليبوسيين في آخر قائمة الشعوب التي يذكرها سفر الخروج)» [(29)].

ونوافق أبو طالب [(30)] الرأي بأنه لا نستطيع حتى الآن تحديد الأصول الإثنية لليبوسيين بسبب نقص المعلومات الواردة عنهم، حيث إن المعلومات حولهم لم تخرج عن نطاق الاسمين: اليبوسيون وأرونا، الواردين في العهد القديم.

وإن كان بعض من الباحثين العرب يرون أن أصل اليبوسيين كنعاني، وأنهم هاجروا كغيرهم من الشعوب السامية من جزيرة العرب إلى بلاد الشام، بينما يرى آخرون مثل مندنهول (Mendenhall) أن أصل اللفظة «يبوسي» أموري، بينما يذكر بنيامين مازار (Mazar) أن «الاسم «أرونا» هو حثّي الأصل» [31].

يشير توماس م. بولين، إلى أن «التسمية يبوس التي تستخدم تبادليًا مع أورشليم لا نعثر عليها خارج النص التوراتي، كما أن مصدرها ومعناها غير واضحين» [32].

في هذا السياق يقول فراس السواح: «إنه استخدم هنا [في كتابه **تاريخ أورشليم**] مصطلح يبوسي ويبوسيين بسبب شيوعه بين علماء الآثار والمؤرخين، رغم أنه مصطلح توراتي. فقد وردت تسمية يبوس تبادليًا مع أورشليم في موضعين من التوراة هما القضاة وأخبار الأيام الأول [33]. كما تكرر ذكر اليبوسيين باعتبارهم الشعب الساكن في أورشليم، ولا يوجد لدينا مصادر خارجية تؤكد هذه التسمية» [34].

رابعًا: حيثيون

يشير ليستر غراب، في دراسته «الجماعات الإثنية في أورشليم» إلى أن: «هناك قصة تدل على وجود جماعات إثنية أخرى في أورشليم، وهي قصة داود والمرأة المدعوة بتشبع زوجة أوريا الحثي. فالاسم أوريا يبدو عبريًا، ولكن لقب الحثي ربما جاء من أصله السلالي لا من كونه فعلًا أجنبيًا يقيم في أورشليم. إن موقعه في جيش داود يدل على كونه شخصًا ذا سمعة طيبة. كما أن منزله القريب من قصر داود، بما يسمح بالرؤية المباشرة لما يجري فيه، يدل على كونه مواطنًا أصيلًا. على أية حال، فإن القصة تريد إفهامنا على الأقل بأن أوريا هو من أصل حثي. هنالك ضابط آخر في جيش داود يدعى إخيمالك ويلقب بالحثي، على الرغم من أن اسمه يبدو عبريًا صرفًا» [35].

بينما يظهر الحثيون في العهد القديم قبيلة كنعانية، يتجه بنا أحد المؤرخين المتصهينيين، أ. ر. جرني، ليبحث عن الحثيين في قلب الأناضول في كتابه سيئ الصيت **الحثيون**، لنفاجأ بعد عدة صفحات من كتابه يقول: «إن وجود الحثيين في فلسطين قبل الغزو الإسرائيلي، يثير مشكلة عجيبة. وتجمع المعلومات عن أهل حاتي لم توضحها وإنما جعلتها أكثر تعقيدًا» [36]، ويتوصل عالمنا المتصهين إلى حل ظريف قائلًا: «فقد رأينا أن سكان الأناضول الأول كانوا قومًا سميناهم خاتيين Hattians لأنهم كانوا يتكلمون لغة أطلق عليها خاتيلي Hattili في النصوص الحثية... ولا نعرف في الواقع ما إذا كان متكلموها قد أطلقوا على أنفسهم هذا الاسم... وعلى أية حال فلنا على الأقل أن نذكر

الاحتمال الذي هو غير قابل للإثبات بسبب طبيعة الدليل، وهو أن اللغة الخاتية كانت وسيلة التخاطب في وقت ما في منطقة واسعة جدًا شملت فلسطين... فإذا كانت هذه الحقيقة فمن غير المحتمل العثور على أي دليل» [37].

لقد قبل مؤرخونا العرب الأفاضل، هذا الرأي على علته، وصاروا ينسبون كل المكتشفات الآثارية في منطقتنا العربية التي تعود إلى الألف الثانية قبل الميلاد، إلى الحثيين، وأطلق عليها «العهد الحثي». ولو أن أحدًا منهم قد استعمل عقله للحظات بسيطة لاكتشف حجم الأكذوبة، التي بحجم الإمبراطورية الحثية. إن جميع المكتشفات الآثارية عربية أصيلة. فها هو ذا عالمنا المتصهين يقول عن اللغة الحثية: «لقد استخدم الحثيون اللغة السامية المشهورة لغة بابل وآشور والتي عرفت لدى الحثيين باسم بابلية وقد كثر استعمالها في الشرق والغرب» [38].

وعن الآداب الحثية يقول عن مرسوم أنيتاس: «ينتمي النص إلى نوع من الأدب كان شائعًا في بلاد بابل وآشور» [39]. وعن الديانة والمعابد والعبادات والأساطير الحثية يقول: «فهي كمثيلاتها في بلاد بابل» [40].

وعلى الرغم من ان اللفظ السلالي «حثيون» جاء عن طريق التوراة، ومع ذلك فإن استخدام كلمة «حيثيين» ظل سائدًا لدى الباحثين ولم تقم محاولة للتخلص منها.

خامسًا: عابيرو

لم تنجُ رسائل تل العمارنة من مساعي تفسير النقوش بالاستعانة بـ «الكتاب المقدس»، لتأكيد الزعم عن صلة تاريخية بين مدينتا الخالدة القدس و«بني إسرائيل». فقد اشتكى عبدي هيبا في رسائله من غارات متكررة للعابيرو، وحذر الملك من فقدانه السيطرة على أرضه، التي فسرت بأنها «أورشليم»، وبالتالي سيطرة العابيرو، والتي رادفها بكلمة «العبرانيين» التي ورد ذكرها في الكتاب المقدس، كأصل لبني إسرائيل.

ذهب الباحث التوراتي إدوارد كامبل، إلى أنَّ «كلمة «عابيرو» تطابق كلمة «العبريين» فيخرج بالنتيجة المتسرعة والفجّة إلى أن «العابيرو» هم «العبريون» [41].

فـ «[العابيرو] لم يكونوا طائفة عرقية، بل طبقة من طبقات المجتمع الكنعاني، كانوا شعبًا تحول إلى طائفة منبوذة في المجتمع الكنعاني، وطرد من المدن - الدول لأسباب اقتصادية وسياسية، وقد أصبحوا - أحيانًا - لصوصًا وقطاع طرق، وأحيانًا أخرى جنودًا مرتزقة» [42].

مراجعة م. ليفيراتي، الحديثة لتفسير رسائل تل العمارنة أكدت أن «العابيرو طبقة دنيا ناقمة ولاجئون، هربوا من القمع الإمبريالي المصري إلى المناطق الجبلية، ليعيشوا لصوصًا وقطاع طرق ضد رواد التجارة البرية، ويظهر أنهم استقروا أخيرًا في المناطق الجبلية بعد حقبة تل العمارنة» [(43)].

من الجدير بالذكر أن استعمال اسم «العابيرو»، في رسائل تل العمارنة، مع صيغة الفعل الأكدي الذي يعني (يعمل/To-Do) أو (يستعمل) وفي الجملة يمكن أن يعني شيئًا يشبه الفعل «عبروا» أو ببساطة ليصبحوا «عابيرو» إلى أن يصبح المعنى «هرع وأخذ جانب العابيرو»، وبدلًا من مصطلح «العابيرو» السطحي الذي يعني خروجًا عن القانون فإن المعنى الأدق والأكثر احتمالًا أن يكون - وا ث - وارًا، ذلك أنه ليصبح عابيرو فليقاوم سلطة الملك، وهذا ما يفسر محاولة تقليل أهمية العابيرو في رسائل العمارنة بينما نشاط العابيرو كبير جدًا. فالمدن ثارت وأصبحت «عابيرو» وقد أعطى «رب - عدي» أحد ملوك المدن في فلسطين هذا المصطلح معنى واسعًا، داعيًا كل الذين يثورون في وجه مصر بـ «العابيرو» ووضعهم ضمن هذا الإطار. فـ «العابيرو» ليسوا إذن عناصر أجنبية أتوا من الخارج - كما يرى البعض - بل هم من نبات الأرض والصحراء. إن ظاهرة «العابيرو» تؤكد حالة السخط والكره الشديدين لاحتلال الفراعنة بلاد الشام. ونتيجة الاضطهاد والقهر الواقع على عاتق الناس من جهة، واحتقار الحكام الذين نصبهم الفرعون للعامة من جهة ثانية قامت حالات تمرد كبيرة، هذه الحالات رسمها الحكام الذين ظلوا على ولائهم للفرعون من خلال نصوص رسائل تل العمارنة.

ينتقد لوريتز (Loretz)، بحدة جهود المؤرخين الرامية إلى الربط بين الـ «عابيرو» والـ «عبرانيين»، ويبين الخطأ الفادح الذي تنطوي عليه هذه المحاولات لشرح أصول إسرائيل على أساس هذا الربط. نقده مدمر بسيط ومستقيم: «لا توجد بينات تاريخية تربط بين رسائل تل العمارنة في القرن الرابع عشر والـ «عابيرو» المذكورين فيها، مع أصول إسرائيل. ومهما كانت الروابط اللغوية بين هذه التعابير المختلفة جذريًا، لا سبب يدعونا لأن نرى هذا الموضوع اللغوي مرتبطًا بأي شكل كان بتاريخ أصول إسرائيل» [(44)].

وإذا كان مؤرخونا الأفاضل لم يشككوا لحظة في ما تلقنوه، فإن أحد المفكرين الغربيين بير روسي لم يسعه السكوت على الكذب التاريخي، فيخصص الفصل الأول من كتابه الرائع **مدينة إيزيس: التاريخ الحقيقي للعرب** لدحض هذه الفرية مقدمًا إيضاحًا موجزًا حول قضية العبرية.. التي «ليست إلا وهمًا معقدًا ومستمرًا لشعوذة اشتقاقية لغوية، قد استطاع أن يجرّ كثيرًا من الناس ليروا «العبرانيين»، وفي «ثقافتهم» الأجداد الساميين لتاريخ الشرق، ولتاريخنا نحن (في أوروبا) أيضًا. إن علينا أن نعرف قبل كل شيء أن التاريخ المصنوع لـ «العبرانيين» خارج النصوص التوراتية هو الصمت الكلي المطبق.

فلا العمارة ولا الكتابات المنقوشة على الآثار، ولا القوانين والدساتير تكشف أثرًا قليـلًا لـ «العبرانيين». فعلى آلاف النصوص المسمارية أو المصرية التي تؤلف المكتبة المصرية، أو مكتبة رأس شمرا أو نينوى، وحتى في الروايات الآرامية... في ذلك كله لا تذكر كلمة «عبرية». وأشهر ملوك التوراة داود وسليمان لم يصبحا قط موضوع وقائع تاريخية، وليس هناك أبدًا ذكر للملحمة المعزوة لعبور «العبرانيين» وليس هناك أي انقطاع حضاري ثبت بالحفريات التي تمت في فلسطين منذ عام 1880 - 1925 فالعدم كامل مثلما هو قطعي وجازم» [(45)].

لنغادر آراء روسي هذه، الجديدة والمفاجئة حتى لنا نحن عرب هذا العصر، ولنغادر كتابه القيم الذي هو جدال موسع محكم حول صحة مقولاته وأطروحاته هذه، ولننظر إلى مفهومنا الديني عن «العبريين» عبر كتاب الله تعالى **القرآن الكريم**: فهل ثمة ما يشير إلى «العبريين» في القرآن الكريم؟! لم ترد كلمة «عبري/عبراني» في القرآن الكريم مطلقًا، فقد ورد ذكر الإسرائيليين بصيغة «بني إسرائيل» و«قوم موسى»، ذلك مما يدل على أن العرب في زمن النبي محمد لم يعرفوا اليهود بغير التسميات المذكورة، فلو كانوا يعرفون بـ «العبرانيين» أو «العبريين» لَوَرد ذكرهم في القرآن بهذه التسمية. لنضف إلى ذلك أن «العبرانيين مجهولون في الأناجيل، على أن هناك رسالة للعبرانيين في الأناجيل، ولكنها مرفوضة لأسباب مادية من قبل شُرّاح الكتاب المقدس، مرفوضة لأسباب مادية قبل كل شيء» [(46)].

سادسًا: حوري

يرى المتخصصون أن «اسم حاكم ما يسمى «أورشليم»، «عبدي - خيبا»، الوارد في رسائل تل العمارنة له أصول حورية، حيث إن الكلمة «حبا/خيبا» تعني باللغة الحورية «ملك». وبرأينا أن وجود اسم حوري لا يعني بالضرورة أن سكان المدينة كانوا حوريين، بقدر ما يدل على وجود جالية أو أشخاص سكنوا بين السكان الأصليين» [(47)].

يقول فيليب حتي، نقـلًا عن سيتزر، وكارلتون: «والحوريون Horites المذكورون في العهد القديم الذين كانوا يعتبرون حتى فترة حديثة من القبائل الضئيلة الأهمية لم يكونوا سوى هؤلاء الحوريين... وكان الحويون Hivites غالبًا هم أنفسهم الحوريون» [(48)].

في هذا السياق، يقول العامري، عند حديثه عن «الشعوب الأجنبية التي غزت القدس»: أما الحوريون فهم الذين تسميهم التوراة «الحوريين» [(49)].

جاء في الموسوعة تاريخ العالم: «ربما كان موطن الحوريين في بلاد النابري، وهو الاسم الذي أطلقه الأشوريون على الإقليم الواقع إلى الشمال والشرق من بحيرة فان حيث نبتت النواة الأولى لمملكة فان بعد ذلك. تحرك الحوريون من هناك جنوبًا في أوائل القرن السابع عشر ق.م إلى شرق آشور وغربها، وأسسوا عددًا من الإمارات التي اتحدت بعد ذلك تحت حكم ملوك ميتاني. امتدت مملكة ميتاني من قرقميش على الفرات حتى قرب نهر دجلة الأعلى مشتملة على وديان باليش وهابور ومقاطعة نصيبين. وفي شرق دجلة تشمل أيضًا منطقة أرابخا (كركوك الحالية) التي كانت قبل ذلك مملكة حورية منفصلة. وليس من المعروف إذا كانت شملت إربل أيضًا. انتشر الحوريون كذلك في أجزاء من آسيا الصغرى وسورية وفلسطين دون أن ينظموا ممالك دائمة. ثبت وجودهم نحو منتصف الألف الثاني في بوغار كزى، عاصمة الحيثيين، وفي رأس شمرة (فينيقيا الشمالية) وفي أورشليم وطناخ وفي بلاد آدم (الحور) وربما اشتملت جموع الهكسوس على فئات من الحوريين» [(50)].

ولكن أين هي آثار الحويين والحوريين في سورية؟! يقول أنطوان مورتغات، في كتابه **تاريخ الشرق الأدنى القديم** ما يلي: «وبالرغم من أن الحفريات لم تستطع أن تقدم لنا شيئًا أثريًا من قلب هذه المنطقة، فإننا نلمس في كل خطوة نخطوها قوة الحياة الديناميكية الجبارة تحدو هذا الشعب وطبقته الحاكمة لتغير معالم الحياة الحضارية لمناطق شمال ما بين النهرين كلها. بما في ذلك بلاد آشور وشمال بلاد الشام، وذلك من خلال الكنز الحضاري الذي خلفوه لشعوب الشرق الأدنى من كافة المجالات الحضارية الخصبة الغزيرة... في الوقت الذي لا نعلم شيئًا عنهم سوى أن آلهة القسم عندهم كانت: أندرا، ميترا، فارونا، نازاتيا».

في هذا السياق، يقول أحمد داود، «هكذا يكتبون تاريخنا! فبالرغم من معرفة مورتغات بأن «الحفريات لم تستطع أن تقدم لنا شيئًا أثريًا»، وبالرغم من تحويل العشائر البدوية العربية إلى شعوب هندو أوروبية مزعومة، وبالرغم من تغيير مواضع تلك العشائر من مراعيها في برية العرب في شبه جزيرة العرب إلى شمال سورية، وبالرغم من أن المكتشفات دحضت كل تلك المزاعم الاستعمارية والصهيونية فقد ظل الإصرار على أن (الحوريين) المزعومين من أصل آري لا بد أن يكونوا أصحاب ذلك المجد الحضاري حتى ولو لم تقل المكتشفات الآثارية أي شيء من ذلك القبيل» [(51)].

السؤال المطروح هنا: إلى أي مدى تمثل هذه الأسماء (الكنعانيون، والآموريون، واليبوسيون، والحثيون، والعبريون، والحوريون) الشعوب الحقيقية في القدس خلال عصر معين؟! يجيب عن ذلك الأستاذ في جامعة هالّ في إنكلترا، ليستر غراب بالقول: «نحن نعرف أن صفة الكنعانيين كانت تطلق بشكلٍ عام على كل شعوب المنطقة، وكذلك الأمر في بعض النصوص

التوراتية. أما في هذه القوائم، فإن تسمية الكنعانيين تدل على شعب من الشعوب العديدة الأخرى من ساكني الأرض. وهذا يدل إما على أن المحرر التوراتي لم يكن على معرفة فعلية بمن هم الكنعانيون، أو أن اهتمامه كان منصبًا على ابتكار قائمة بشعوب المنطقة لغايات إيديولوجية» [52].

في هذا الصدد يقول، المفكر الفرنسي بير روسي، في كتابه **مدينة إيزيس، التاريخ الحقيقي للعرب**: أليس هذا «هوسنا المحب للخصام الذي بدأ تفريقه شعبًا إلى شعوب أقرباء كالمؤابين والمؤدنين أو العموريين، والكنعانيين، والآراميين، والسوريين... إلخ ولماذا؟ لأننا نعني أن نميز فيهم خصومات عرقية أو طائفية تجبرنا على أن نضع بينهما العبرانيين، وذلك لكي نقدم الدليل بكل ثمن على صحة العهد القديم» [53].

---

(1) لمزيد من التفاصيل حول الوجود الإنساني في فلسطين، انظر: أحمد الدبش، فلسطين من هنا بدأت الحضارة من العصر الحجري القديم حتى العصر الحجري النحاسي (دمشق: صفحات للنشر والتوزيع، 2017).

(2) لمزيد من التفاصيل حول سكنى القدس في العصور الحجرية، انظر: الفصل الثالث، «بدايات سكنى أراضى القدس» من هذا الكتاب.

(3) كارلتون ستيفنز كون أدوارد أ. هنت، السلالات البشرية الحالية، ترجمة محمد السيد غلاب (القاهرة: مكتبة الأنجلو، 1975)، ص 80.

(4) عيسى الحلو، عصور ما قبل التاريخ وتاريخ بابل القديم (بيروت: دار الطليعة، 1960)، ص 54.

(5) وليم أولبرايت، آثار فلسطين، ترجمة زكي إسكندر ومحمد عبد القادر محمد (القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 1971)، ص 62.

(6) يذهب بعض الباحثين إلى تخطئة تسمية «السامية»، وإطلاق اسم «الهجرات الجزرية» على تلك الموجات، على اعتبار أن موطنها الأول هو الجزيرة العربية، وبذلك سوف نستعمل بدلًا من مصطلح الساميين مصطلح الجزريين، للإشارة إلى تلك القبائل، التي كان موطنها الأصلي جزيرة العرب، لمزيد من التفاصيل يراجع: أحمد الدبش، عورة نوح ولعنة كنعان وتلفيق الأصول (دمشق: خطوات للنشر والتوزيع، 2007).

(7) توماس طومسون، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ترجمة صالح علي سوداح (بيروت: دار بيسان للنشر والتوزيع، 1995)، ص 124.

(8) سبتنيو موسكاتي، الحضارات السامية القديمة، ترجمة السيد يعقوب بكر (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997)، ص 89.

(9) طومسون، المصدر نفسه، ص 214.

(10) توماس طومسون، «من العصر الحجري إلى إسرائيل،» في: كيث وايتلام [وآخرون]، الجديد في تاريخ فلسطين القديمة، ترجمة عدنان حسن وزياد مني (دمشق: قدمس للنشر والتوزيع، 2004)، الفصل الثالث، ص 76.

(11) هيرودوتس، تاريخ هيرودوتس الشهير، ترجمة عن طبعة لارشي الفرنسي حبيب أفندي بسترس، 2 مج (بيروت: مطبعة القديس جاورجيوس، 1886 - 1887)، ص 467 (نسخة مصورة).

(12) محمد نايف أحمد العجور، «أنماط الإستيطان البشري في شمالي الأردن في العصر البرونزي المتوسط الثاني MB11 (1550 - 1850 ق.م)،» (رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، معهد الآثار والأنثروبولوجيا قسم الآثار، عمّان، 1997)، ص 16.

(13) أولبرايت، آثار فلسطين، ص 83.
(14) طومسون، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ص 140.
(15) أولبرايت، آثار فلسطين، ص 85.
(16) جهاد محمد كفافي، «الأنظمة الدفاعية في فلسطين خلال العصر البرونزي المتوسط،» (رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، معهد الآثار والأنثروبولوجيا قسم الآثار، عمّان، 1999)، ص 29.
(17) محمد بيومي مهران، بلاد الشام (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1990)، ص 47 - 48.
(18) أولبرايت، آثار فلسطين، ص 86.
(19) إسرائيل فنكلشتاين ونيل أشر سيلبرمان، التوراة مكشوفة على حقيقتها، ترجمة سعد رستم (دمشق: الأوائل للنشر والتوزيع، 2005)، ص 64 - 65.
(20) عفيف بهنسي، وثائق ابيلا (دمشق: مطابع وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1984)، ص 97 - 98.
(21) رضا الطويل، تهويد التاريخ: الجزء الأول، عصور في فوضى إيمانويل فليكوفسكي: رؤى نقدية، ترجمة أحمد عمر شاهين [وآخرون] (القاهرة: جماعة حور الثقافية، 2002)، ص 118.
(22) توماس طومسون، الماضي الخرافي (التوراة والتاريخ)، ترجمة عدنان حسن ووزياد منى، ط 2 (دمشق: قدمس للنشر والتوزيع، 2003)، ص 219 - 220.
(23) فنكلشتاين وسيلبرمان، التوراة مكشوفة على حقيقتها، ص 65.
(24) محمد خير ياسين، جنوبي بلاد الشام تاريخه آثاره في العصور البرونزية (عمّان: منشورات لجنة تاريخ الأردن، 1991)، ص 122.
(25) فراس السواح، آرام دمشق وإسرائيل في التاريخ والتاريخ التوراتي (دمشق: دار علاء الدين، 1995)، ص 22 - 23.
(26) الكتاب المقدس، «سفر التكوين،» الأصحاح 10، الآيات 15 - 18.
(27) المصدر نفسه، «سفر أخبار الأيام الأول،» الأصحاح 1، الآيات 13 - 16.
(28) عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، ط 5 (القدس: مطبعة المعارف، 1999)، ص 1.
(29) الكتاب المقدس، «سفر التكوين،» الأصحاح 3، الآية 8.
(30) محمود أبو طالب، من السلط إلى القدس: أبحاث في تاريخ الأردن وفلسطين القديم، ترجمة عمر الغول (عمّان: المقتبس، 2006)، ص 195 - 223.
(31) زيدان كفافي، «القدس في العصرين البرونزي والحديدي الأسفار التوراتية مقابل النصوص التاريخية والآثار،» مهد الحضارات، عدد خاص بالقدس (2009 - 2010)، ص 57.
(32) توماس م. بولين، «تشييد المدينة المقدسة: الروايات التوراتية حول تأسيس أورشليم،» في: توماس ل. تومبسون وسلمى الخضراء الجيوسي، محرران، القدس: أورشليم العصور القديمة بين التوراة والتاريخ، ترجمة فراس السواح (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2003)، ص 261.
(33) الكتاب المقدس، «سفر القضاة،» 19، الآيتان 10 - 11، و«سفر أخبار الأيام الأول،» الأصحاح 11، الآيتان 4 - 5.
(34) فراس السواح، تاريخ أورشليم والبحث عن مملكة اليهود، ط 3 (دمشق: دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، 2003)، ص 39.
(35) ليستر غراب، «الجماعات الإثينية في أورشليم،» في: تومبسون والجيوسي، محرران، القدس: أورشليم العصور القديمة بين التوراة والتاريخ، ص 223.
(36) أ. ر. جرني، الحثيون، ترجمة محمد عبد القادر محمد؛ مراجعة فيصل الوائلي، سلسلة الألف كتاب؛ 451 (القاهرة: مطبوعات البلاغ، 1963)، ص 83.
(37) المصدر نفسه، ص 86.
(38) المصدر نفسه، ص 175.
(39) المصدر نفسه، ص 229.

(40) المصدر نفسه، ص 185 - 228.
(41) جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودي (عمّان: الأهلية للنشر والتوزيع، 1998)، ص 65.
(42) كارين أرمسترونج، القدس مدينة واحدة ثلاث عقائد، ترجمة فاطمة نصر ومحمد عناني، كتاب سطور؛ 4 (القاهرة: سطور، 1998)، ص 55.
(43) طومسون، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ص 95.
(44) المصدر نفسه، ص 96.
(45) بير روسي، مدينة إيزيس: التاريخ الحقيقي للعرب، ترجمة فريد جحا (دمشق: منشورات وزارة التعليم العالي، 1980)، ص 25.
(46) المصدر نفسه، ص 26 - 25.
(47) كفافي، «القدس في العصرين البرونزي والحديدي الأسفار التوراتية مقابل النصوص التاريخية والآثار،» ص 59.
(48) فيليب حتى، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق (بيروت: دار الثقافة، 1958)، ج 1، ص 165.
(49) محمد أديب العامري، القدس العربية الحقائق التاريخية تجاه المزاعم الصهيونية (عمّان: دار الطباعة والنشر، 1971)، ص 36.
(50) وليام لانجر، موسوعة تاريخ العالم، أشرف على الترجمة محمد مصطفى زيادة (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1969)، ج 1، ص 60 - 61.
(51) أحمد داود، العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود (دمشق: دار المستقبل، 1991)، ص 132 - 133.
(52) غراب، «الجماعات الإثينية في أورشليم،» ص 225.
(53) روسي، مدينة إيزيس: التاريخ الحقيقي للعرب، ص 69.

نقطة البداية

لقد رأيت أن لا أعطي هذا الفصل اسم «الخاتمة»، لأني آمل أن يكون بحثي هذا «نقطة البداية»، لإعادة اكتشاف وكتابة تاريخ القدس، بمنهج مبنيّ على اعتماد نتائج الحفريات الآثارية.

أُتيح لنا منذ البداية ملاحظة أنه يمكننا كتابة التاريخ الحقيقي لمدينة القدس، إذ أخذنا على عاتقنا تحرير الحقائق التاريخية المتعلقة بتاريخ فلسطين والقدس، من ماضٍ خيالي فُرض علينا بواسطة خطاب الدراسات التوراتية، والشروع في الخروج من بوتقة «الكتاب المقدس» باعتباره تاريخًا.

عندئذ، نستطيع عرض صورة واقع لتاريخ القدس يرقى إلى أكثر من 700000 عام، صورة واقع، تشهد على أصالتها يومًا بعد يوم المكتشفات الأثرية.

ويمكننا إجمال العناصر المكونة لهذا الواقع على النحو التالي: - إن جميع «المسوحات والتنقيبات الأثرية»، التي جرت في مدينة القدس ما بين عامي 1738 و2011، تثبت أن ما ذكره المنقِّبون من تصورات تربط مدينة القدس بالروايات التوراتية، هي تصورات وهمية قام الأثريون بافتراضها، اعتمادًا على النص التوراتي كمرجعية في تفسير الآثار وفهمها.

- تدل الشواهد الأثرية أن سكنى أراضي القدس، قد تم في العصر الحجري القديم الأدنى الثاني، الذي يؤرخ من حوالى 700000 إلى 250000 سنة مضت، وقد أتت الأدوات الحجرية المؤرخة على هذا العصر من منطقة أم قطفه (شرق القدس، وعلى مسيرة عشرة كيلومترات للجنوب الشرقي من بيت لحم، بالقرب من وادي المربعات)، (في السويات G2, G1, F, E3). وقد استقر الناس في مدينة القدس وأكنافها «قبل نحو نصف مليون سنة، في منطقة الشيخ جراح». وفي المرحلة الأخيرة من العصر الحجري القديم الأدنى، وهو يؤرخ بين نحو 250000 إلى 100000 سنة خلت، ويوازي ما يعرف عالميًا بالعصر الآشولي الأعلى، كشف عن آثار تعود إلى هذا العصر «في مغارة أم قطفة (السوية D)». وقد أظهرت الحفريات أن «القسم الأعلى من وادي رفائيم في القدس المسمى أيضًا (بكة) في الحي الإغريقي جنوب غرب وادي هنوم ثلاث طبقات كانت الطبقتان الثانية والثالثة تحتويان على فؤوس يدوية ونصال وأدوات حجرية باليوليتية تعود إلى العصر الأبيفيلي أو الأشولي المبكر».

- كانت القدس مسرحًا لـ «الحضارة الناطوفية»، التي دامت نحو ستة آلاف سنة اعتبارًا من حوالى عام 12000 قبل الميلاد، وسميت لذلك باسم وادي النطوف شمال غرب القدس. تعَد «الحضارة النطوفية»، الحضارة الأولى من طريق تقدم الإنسان وارتقائه، فمن خلالها وصلت التحولات الاقتصادية والاجتماعية في فلسطين إلى قمتها، فبعد أن بلغ النطوفيون درجة عالية من التقدم وضع الأساس المادي والفكري المباشر للانعطاف الجذري والأهم في

تاريخ البشرية، إلا أن أهم ما امتازت به هذه الحضارة انتقالها بالإنسان من مرحلة الصيد وجمع الطعام إلى مرحلة الزراعة وتدجين الحيوان، وبذلك تحول من الاقتصاد الاستهلاكي إلى الاقتصاد الإنتاجي، وكان القمح والشعير أول ما زرع الإنسان.

- انتشرت في نحو الألف السابع قبل الميلاد حضارة جديدة، وكان لها صلة بطريق غير مباشر بـ «الحضارة النطوفية»، هذه هي «الحضارة الطاحونية» (Tahunian Culture). ونُسبت إلى وادي الطاحون في جبال القدس. فقد كان الموقع النموذج لها هو أبو غوش، بالقرب من القدس. وقد ظهرت أدلة أثرية عند جبل أوفل في القدس تعود إلى مرحلة العصر الحجري الحديث. تشير إلى وجود سكن وحضارة في مدينة القدس في هذه المرحلة. وظهرت في القدس آثار تشير إلى العصر الحجري النحاسي (الكالكوليت). وخلال الألف الرابع قبل الميلاد، وبخاصة في المنطقة الواقعة في وادي سلوان، بالقرب من عين الماء المعروفة باسم «عين ستنا مريم». يظهر أول مسكن لسكان القدس، إذ عثر بالقرب من نبع ستنا مريم على بقايا منزل.

- كانت القدس مأهولة في العصر البرونزي المبكر الأول (EB I). وفي بداية العصر البرونزي المبكر الثاني (EB II). وفي عصر البرونز الأوسط (2300 - 2000 ق.م)، شغل موقع مدينة القدس حين ذاك مساحة لا تزيد على أربعة هكتارات ونصف الهكتار على ذروة جبل أوفيل، أسفل الجدار الجنوبي للحرم الشريف. وكان عدد سكان القدس استنادًا إلى بحث عرقي - أثري حديث، ألف نسمة. وفي العصر البرونزي المتأخر، تدل التحقيقات الأثرية أنه لم يحدث أي تغيير في الطبيعة السكانية.

- لم تعرف نصوص «اللعن المصرية» مدينة تسمى «أورشليم»! والقراءة الصحيحة للكلمة هي «أوشاميم» وليست «أورشليم». أما في ما يخص ذكر «أورشليم»، في رسائل تل العمارنة، من الناحية الأثرية، لم تكن هناك أي «مدينة» في القدس في أثناء فترة (رسائل تل العمارنة).

- إن الصورة التقليدية (التوراتية) عن أورشليم [القدس] خلال عصر الحديد الأول (1200 - 1000 ق.م) هي صورة مدينة صغيرة قوية التحصينات يسكنها اليبوسيون من أهلها الأصليين، وعاصمة لدولة - مدينة مستقلة. وقد استولى على المدينة في ما بعد الملك داود وجعلها عاصمة له. ولكن تصمت النصوص المكتوبة خلال الفترة بين نحو 1200 و1000 قبل الميلاد عن الحديث حول القدس، وحتى الآثار المكتشفة فيها، هذا إن وجدت، لا تعطي الانطباع بوجود مدينة كبيرة. إن مسألة أُورشليم [القُدسْ] في بداية فترة عصر الحديد الثاني (القرنين 10 - 9 ق.م)، كانت مطروحة في معظم الكتب والمواد، ومعظمها يصور المدينة كبيرة جميلة، ذات تحصينات وقصور ومخازن، ومعبد رائع الصنعة. ولكن المدينة كانت خلال القرن العاشر والقرن التاسع قبل الميلاد

بلدة متواضعة. ومن المستبعد أن هذه البلدة كانت عاصمة لدولة كبرى كتلك الموصوفة في النص التوراتي، مملكة إسرائيل الموحدة. أما في الحقبة الثالثة من عصر الحديد، فإن الصورة تبدو أكثر وضوحًا للمدينة، بين القرنين التاسع والسادس قبل الميلاد، تحولت القدس من مدينة إدارية إلى مركز حضري حقيقي.

- ليس هناك دليل على المملكة الداودية - السليمانية خارج التقاليد والموروثات الكتابية، المؤرخون الذين يتحدثون عن هذا الكيان إنما يفترضون مسبقًا صحة المعلومات التي يأخذونها من الكتاب العبري. فلا وجود لشواهد أركيولوجية مقنعة على وجود مملكة تاريخية موحدة اشتملت على جميع أراضي إسرائيل (فلسطين)، وكانت عاصمتها في أورشليم (القدس). كما لا توجد أي مكتشفات أثرية تشير إلى أن هيكـلًا كبيرًا قد وجد في القدس.

- أثبتنا بما لا يدع مجالًا للشك، أن محاولة الربط بين حملة شيشناق (Shoshenk) أواخر القرن التاسع، والخبر الوارد موجزًا في الرواية التوراتية، لا تؤيده المعلومات المتوفرة عن فلسطين في تلك الفترة. أما في خصوص نصوص الملك الآشوري سنخاريب، فإنها تحمل تناقضات أكبر مما ورد في النصوص الآشورية الأخرى، وإن هذه النصوص تتناقض تناقضًا تامًا، مع الروايات التوراتية.

- إن غزوة نبوخذ نصّر، والسبي اليهودي، لم تجر في بلادنا فلسطين، فالتنقيب الأثري الذي قلب تراب فلسطين ظهرًا على عقب لم يؤد إلى أي أثر يربط غزوة نبوخذ نصّر بها، ولم يتوافر لدينا نصوص ونقوش بابلية تشير إلى الحملة البابلية بقيادة نبوخذ نصّر على مدينة القدس، وتدميرها.

- تبين لنا أن هناك شبكة محتالين واسعة يعمل فيها ملفقو قطع أثرية ونصوص وناشرون صحافيون وخبراء لغات وعلماء تاريخ... إلخ. وظيفتهم الترويج للقطع الملفقة حال ظهورها بالقول إنها «أدلة ملموسة» أو إنها «قطع لا سبيل للشك في أصالتها».

- تقف رواية سفري عزرا ونحميا عن سماح كورش/قورش ليهوديي السبي البابلي بالعودة إلى فلسطين، وحيدة دون أي سند من مصدر خارجي. ولا تشير «مذكرة قورش» إطلاقًا إلى يهوديي السبي، ولم تصلنا أي وثيقة فارسية بخصوص عودة يهوديي السبي.

- السكان الأصليون في القدس لم يتغيروا كثيرًا منذ العصر الحجري. وخلال فترة الألف السادس - الرابع قبل الميلاد أصبحت فلسطين سامية (بمفهوم لغوي)، وخلال العصر البرونزي القديم أقامت نمطًا استيطانيًا واقتصاديًا بقي من خصائص المنطقة حتى الحقبة الآشورية، في الأقل.

- أكدنا أن المحرر التوراتي كان اهتمامه منصبًّا على ابتكار قائمة بشعوب المنطقة لغايات أيديولوجية «كنعاني، أموري، يبوسي، حثي، حوري» تجبرنا

على أن نضع بينهما العبري، وذلك لكي نقدم الدليل بكل ثمن على صحة العهد القديم. ونظرًا إلى عدم صحة هذه القائمة عند الحديث عن سكان القدس القدامى، يستحسن إطلاق تسمية «المقدسيين» عوضًا من هذه الأسماء.

المراجع

١ - العربية

كتب

إبراهيم، ابتهال عادل. **اليهود في المصادر المسمارية 1000 - 395 ق.م.** دمشق: دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، 2014.

أبو طالب، محمود. **من السلط إلى القدس: أبحاث في تاريخ الأردن وفلسطين القديم**. ترجمة عمر الغول. عمّان: المقتبس، 2006.

أبو عليان، عزمي عبد محمد. **القدس بين الاحتلال والتحرير عبر العصور القديمة والوسطى والحديثة (300 ق م ـــ 1967م)** الزرقاء: مؤسسة باكير، 1993.

أرمسترونج، كارين. **القدس مدينة واحدة ثلاث عقائد.** ترجمة فاطمة نصر ومحمد عناني. القاهرة: سطور، 1998. (كتاب سطور؛ 4) الأسعد، محمد. **مستشرقون في علم الآثار: كيف قرأوا الألواح وكتبوا التاريخ.** بيروت: الدار العربية للعلوم - ناشرون، 2010.

إسكندر، ميخائيل مكسي. **القدس عبر التاريخ**. الجيزة: مطبعة رمسيس، 1972.

إسماعيل، عارف أحمد. **العلاقات بين العراق وشبه الجزيرة العربية منذ منتصف الألف الثالث قبل الميلاد وحتى منتصف الألف الأول قبل الميلاد.** صنعاء: مركز عبادي للدراسات والنشر، 1998.

إسماعيل، فاروق. **مراسلات العمارنة الدولية وثائق مسمارية من القرن 14 ق.م.** دمشق: صفحات للدراسات والنشر والتوزيع، 2017.

ألدريد، سيريل. **أخناتون.** ترجمة أحمد زهير أمين. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992.

إلياد، ميرسيا. **تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية - الجزء الأول**. ترجمة عبد الهادي عباس. دمشق: دار دمشق، 1987.

أور، فرنسيس. **حضارات العصر الحجري القديم**. تعريب سلطان محيسن. ط 2. دمشق: مطابع الألف باء - الأديب، 1995.

أورين، مايكل بي. **القوة والإيمان والخيال: أمريكا في الشرق الأوسط منذ 1776 حتى اليوم**. ترجمة آسر حطيبة. أبو ظبي: كلمة؛ القاهرة: كلمات عربية للترجمة والنشر، 2008.

أولبرايت وليم. **آثار فلسطين**. ترجمة زكي إسكندر ومحمد عبد القادر محمد. القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 1971.
برستد، جيمس هنري. **تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي**. ترجمة حسن كمال. ط 2. القاهرة: مكتبة مدبولي، 1996.
برايس، تريفور. **رسائل عظماء الملوك في الشرق الأدنى القديم: المراسلات الملكية في العصر البرونزي المتأخر**. ترجمة رفعت السيد علي. القاهرة: دار العلوم للنشر والتوزيع، 2006.
بروكلمان، كارل. **فقة اللغات السامية**. ترجمة رمضان عبد التواب. الرياض: مطبوعات جامعة الرياض، 1977.
البهنسي، عفيف. **تاريخ فلسطين القديم من خلال علم الآثار**. دمشق: منشورات الهيئة العامة للكتاب السورية، 2009.
_ . **وثائق ابيلا**. دمشق: مطابع وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1984.
تشايلد، ف. جوردن. **تقدم الإنسانية**. ترجمة محمد السيد غلاب. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997. (الألف الكتاب؛ 248) تومبسون، توماس ل. وسلمى الخضراء الجيوسي (محرران). **القدس: أورشليم العصور القديمة بين التوراة والتاريخ**. ترجمة فراس السواح. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2003.
جاردنر، سير ألن. **مصر الفراعنة**. ترجمة نجيب ميخائيل إبراهيم؛ مراجعة عبد المنعم أبو بكر. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973.
جرني، أ. ر. **الحثيون**. ترجمة محمد عبد القادر محمد؛ مراجعة فيصل الوائلي. القاهرة: مطبوعات البلاغ، 1963. (سلسلة الألف كتاب؛ 451) جريمال، نيقولا. **تاريخ مصر القديمة**. ترجمة ماهر جويجانتي؛ مراجعة زكية طبوزادة. ط 2. القاهرة: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، 1993.
حتى، فيليب. **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين**. ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق. بيروت: دار الثقافة، 1958.
الحلو، عيسى. **عصور ما قبل التاريخ وتاريخ بابل القديم**. بيروت: دار الطليعة، 1960.
حمادة، حسين عمر. **آثار فلسطين بين حرب الهياكل العظمية التوراتية اليهودية ووثائق الاستكشافات الأثرية والعلمية والميدانية الدولية**. دمشق: دار قتيبة للطباعة والنشر، 1983.
خليف، بشار. **دراسات في حضارة المشرق العربي القديم**. حلب: مركز الإنماء الحضاري، 2003.
داود، أحمد. **العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود**. دمشق: دار المستقبل، 1991.

الدباغ، تقي. **الوطن العربي في العصور الحجرية**. بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1988.
الدباغ، مصطفى مراد. **بلادنا فلسطين، الجزء الثامن ــ القسم الثاني، في بيت المقدس (1).** كفر قرع ــ فلسطين: دار الهدى، 1991.
الدبش، أحمد. **فلسطين - من هنا بدأت الحضارة: من العصر الحجري القديم حتى العصر الحجري النحاسي**. دمشق: صفحات للنشر والتوزيع، 2017.
_ . **عورة نوح ولعنة كنعان وتلفيق الأصول**. دمشق: خطوات للنشر والتوزيع، 2007.
_ . **كنعان وملوك بني إسرائيل في جزيرة العرب**. دمشق: خطوات للنشر والتوزيع، 2006.
_ . **موسى وفرعون في جزيرة العرب**. دمشق: دار خطوات للنشر والتوزيع، 2004.
دفدسن، لورنس. **الآثاريات الكتابية والصحافة صياغة التصورات الأمريكية لفلسطين في العقد الأول من الانتداب**. ترجمة فاضل جتكر. دمشق: قدمس للنشر والتوزيع، 2001. (دراسات قدمس؛ 4) ديب، فرج الله صالح. **كذبة السامية وحقيقة الفينيقية**. بيروت: دار نوفل، 1998.
راشد، سيد فرج. **القدس عربية إسلامية**. الرياض: دار المريخ للنشر، 1986.
روتن، مارغريت. **تاريخ بابل**. ترجمة زينة عازار وميشال أبي فاضل. ط 2. بيروت؛ باريس: منشورات عويدات، 1984.
روسي، بير. **مدينة إيزيس: التاريخ الحقيقي للعرب.** ترجمة فريد جحا. دمشق: منشورات وزارة التعليم العالي، 1980.
ريدفورد، دونالد. **مصر وكنعان وإسرائيل في العصور القديمة.** ترجمة بيومى قنديل. القاهرة: مكتبة الأسرة، 2014.
زايد، عبد الحميد. **القدس الخالدة**. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2000.
سخنيني، عصام. **تهافت التأريخ التوراتي.** عمّان: الأهلية للنشر والتوزيع، 2018
_ . **القدس تاريخ مختطف وآثار مزورة.** عمّان: اللجنة الملكية لشؤون القدس، 2009.
السعد، جودت. **أوهام التاريخ اليهودي.** عمّان: الأهلية للنشر والتوزيع، 1998.
سعيد، إدوراد. **الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء.** ترجمة كمال أبو ديب. بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1981.
السواح، فراس. **آرام دمشق وإسرائيل في التاريخ والتاريخ التوراتي.** دمشق: دار علاء الدين، 1995.
_ . **تاريخ أورشليم والبحث عن مملكة اليهود.** ط 3. دمشق: دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، 2003.

_ . **الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم.** ط 3. دمشق: دار علاء الدين، 1997.
سيلبرمان، نيل. **بحثًا عن إله ووطن صراع الغرب على فلسطين وآثارها (1799 - 1917م)**. ترجمة فاضل جتكر. دمشق: قدمس للنشر والتوزيع، 2001.
شتاينر، مارغريت. **القدس في العصر الحديدي (1300 - 700 ق.م).** ترجمة رزق الله بطرس وزياد منى. دمشق: قدمس للنشر والتوزيع، 2006.
شرّاب، محمد محمد حسن. **القدس أسّسها العرب ورفع قواعدها المسلمون**. عمّان: الأهلية للنشر والتوزيع، 2006.
الشواف، قاسم. **فلسطين: التاريخ القديم الحقيقي.** بيروت: دار الساقي، 2006.
شوفاني، الياس. **الموجز في تاريخ فلسطين السياسي (منذ فجر التاريخ حتى سنة 1949)**. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1996.
طومسون، توماس. **التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي**. ترجمة صالح علي سوداح. بيروت: دار بيسان للنشر والتوزيع، 1995.
_ . **الماضي الخرافي (التوراة والتاريخ)**. ترجمة عدنان حسن ووزياد منى. ط 2. دمشق: قدمس للنشر والتوزيع، 2003.
الطويل، رضا. **تهويد التاريخ: الجزء الأول، عصور في فوضى إيمانويل فليكوفسكي: رؤى نقدية**. ترجمة أحمد عمر شاهين [وآخرون]. القاهرة: جماعة حور الثقافية، 2002.
صالح، عبد العزيز. **الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول، مصر القديمة.** القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1990.
ظاظا، حسن. **القدس مدينة الله...؟ أم مدينة داود...!**. الإسكندرية: مطبعة جامعة الإسكندرية، 1970.
العارف، عارف. **المفصل في تاريخ القدس**. ط 5. القدس: مطبعة المعارف، 1999.
العامري، محمد أديب. **القدس العربية الحقائق التاريخية تجاه المزاعم الصهيونية.** عمّان: دار الطباعة والنشر، 1971.
عبد الرحمن، عمار. **فنون ومعتقدات المزارعين الأوائل في المشرق العربي القديم «الإلهة الأم»**. دمشق: روافد للثقافة والفنون، 2009.
عبد الكريم، إبراهيم. **تهويد الأرض وأسماء المعالم الفلسطينية.** دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العربي، 2001.
العسلي، كامل جميل. **القدس في التاريخ.** عمّان: الجامعة الأردنية، 1992.
العكش، منير. **تلمود العم سام: الأساطير العبرية التي تأسست عليها أميركا.** بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، 2004.

علي، رمضان عبده. **تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضاراته، الجزء الثاني (الأناضول - بلاد الشام).** القاهرة: دار نهضة الشرق للطباعة والنشر والتوزيع، 2002.

غنيم، عبد الرحمن. **تاريخ القدس القديم: قراءة جديدة**. دمشق؛ القاهرة: دار الكتاب العربي، 2017.

فخري، أحمد. **مصر الفرعونية**. القاهرة: مكتبة الأسرة، 2012.

فنكلشتاين، إسرائيل ونيل أشر سيلبرمان. **التوراة مكشوفة على حقيقتها.** ترجمة سعد رستم. دمشق: الأوائل للنشر والتوزيع، 2005.

فوروهاجن، هانس. **فلسطين والشرق الأوسط بين الكتاب المقدس وعلم الآثار**. ترجمة سمير طاهر. القاهرة: الكتب خان للنشر والتوزيع، 2017.

قبيسي، محمد بهجت. **ملامح في فقه اللهجات العربيات من الأكادية والكنعانية وحتى السبئية والعدنانية**. دمشق: دار شمأل، 1999.

كفافي، زيدان عبد الكافي. **بلاد الشام في العصور القديمة من عصور ما قبل التاريخ حتى الإسكندر المقدوني.** عمّان: دار الشروق للنشر والتوزيع، 2011.

كوفان، جاك. **ديانات العصر الحجري الحديث في بلاد الشام**. ترجمة سلطان محيسن. دمشق: دار دمشق للطباعة والنشر والتوزيع، 1988.

كول، سونيا. **ثورة العصر الحجري الحديث**. ترجمة تقي الدباغ ونادية سعدي الدبوني. ط 3. بغداد: وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد، 1965.

كون، كارلتون ستيفنز أدوارد أ. هنت. **السلالات البشرية الحالية**. ترجمة محمد السيد غلاب. القاهرة: مكتبة الأنجلو، 1975.

لانجر، وليام. **موسوعة تاريخ العالم**. أشرف على الترجمة محمد مصطفى زيادة. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1969.

لومير، فانسان. **القدس 1900 زمن التعايش والتحولات.** ترجمة غازي برو. بيروت: دار الفارابي، 2015.

الماجدي، خزعل. **تاريخ القدس القديم منذ عصور ما قبل التاريخ حتى الاحتلال الروماني**. عمّان: دار غيداء للنشر والتوزيع، 2017.

مارجليت، مائير. **إسرائيل والقدس الشرقية استيلاء وتهويد**. ترجمة مازن الحسيني. القدس: منشورات مركز القدس للحقوق الاقتصادية والاجتماعية، 2011.

مجموعة من الباحثين. **الوحدة الحضارية للوطن العربي القديم.** دمشق: وزارة الثقافة، 2000.

محيسن، سلطان. **بلاد الشام ما قبل التاريخ في العصر الحجري القديم: الصيادون الأوائل**. دمشق: الأبجدية للنشر، 1989.

المسيري، عبد الوهاب. **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**. القاهرة: دار الشروق، 1999.
المهتدي، عبلة. **القدس تاريخ وحضارة (3000 ق.م - 1917م)**. بيروت: دار نعمة للطباعة، 2000.
مهران، محمد بيومي. **بلاد الشام**. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1990.
منى، زياد. **مقدمة في تاريخ فلسطين القديم**. بيروت: بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، 2000.
موسكاتي، سبتنيو. **الحضارات السامية القديمة**. ترجمة السيد يعقوب بكر. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997.
الموسوعة الفلسطينية. ألفها نخبة من العلماء. بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية، 1990.
ميلارت، جيمس. **أقدم الحضارات في الشرق الأدنى**. ترجمة محمد طلب. دمشق: دار دمشق للطباعة والنشر والتوزيع، 1990.
هاردنج، لانكستر. **آثار الأردن**. ترجمة سليمان موسى. عمّان: منشورات اللجنة الأردنية للتعريب والترجمة والنشر، 1965.
هيرودوت. **تاريخ هيرودوت**. ترجمة عبد الإله الملاح. أبو ظبي: المجمع الثقافي، 2001.
هيرودوتس. **تاريخ هيرودوتس الشهير**. ترجمة عن طبعة لارشي الفرنسي حبيب أفندي بسترس. بيروت: مطبعة القديس جاورجيوس، 1886 - 1887. 2 مج.
وايتلام، كيث. **تلفيق إسرائيل التوراتية طمس التاريخ الفلسطيني**. ترجمة ممدوح عدوان. ط 2. دمشق: قدمس للنشر والتوزيع، 2002.
_ [وآخرون]. **الجديد في تاريخ فلسطين القديمة**. ترجمة عدنان حسن وزياد مني. دمشق: قدمس للنشر والتوزيع، 2004.
وزيري، يحيى. **التطور العُمْراني والتراث المعماري لمدينة القدس الشريف**. القاهرة: الدار الثقافية للنشر، 2005.
ولفنسون، إسرائيل. **تاريخ اللغات السامية**. القاهرة: مطبعة الاعتماد، 1919.
ياسين، محمد خير. **جنوبي بلاد الشام تاريخه آثاره في العصور البرونزية**. عمّان: منشورات لجنة تاريخ الأردن، 1991.

دوريات

أبو غنيمة، خالد. «الاستيطان البشري في فلسطين والقدس خلال عصور ما قبل التاريخ.» **مهد الحضارات** (دمشق): عدد خاص بالقدس، 2009 - 2010.
الأسعد، محمد. «المخيّلة الاستعمارية تقتلع مدينة من ماضيها وحاضرها: القدس العربية نموذجًا.» **المستقبل العربي**: السنة 38، العدد 442، كانون الأول/ديسمبر 2015.

الجعبة، نظمي. «القدس بين الاستيطان والحفريات.» **مجلة الدراسات الفلسطينية**: العدد 79، صيف 2009.
الدبش، أحمد. «إسرائيل أمة مفتعلة.» **العصور الجديدة** (القاهرة): السنة 2، العدد 15، تشرين الثاني/نوفمبر 2000.
سخيني، عصام. «نقش الملك التوراتي يهوآش نموذج لتزوير التاريخ الفلسطيني.» **البصائر** (عمّان): السنة 7، العدد 2، أيلول/سبتمبر 2003.
السواح، فراس. «نقش يهوآش ومسلسل تزوير الآثار في إسرائيل.» **مهد الحضارات** (دمشق)، عدد خاص بالقدس، 2009 - 2010.
شتاينر، مارغريت. «القدس في العصر البرونزي والحديدي (الدليل الآثاري).» **مهد الحضارات** (دمشق): عدد خاص بالقدس، 2009 - 2010.
الشرعة، إبراهيم فاعور. «لينش والبعثة الاستكشافية الأمريكية إلى نهر الأردن والبحر الميت عام (1847/1848).» **دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية** (عمّان): السنة 38، العدد 3، 2011.
الشلبي، سهيلا سليمان وشادية حسن العدوان. «المسوحات والتنقيبات الأثرية في فلسطين والوعي لأبعادها منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى الحرب العالمية الأولى.» **المجلة الأردنية للتاريخ والآثار** (عمّان): السنة 5، العدد 4، 2011.
الصمادي، طالب عبد الله. «من المسؤول عن تدمير مواقع العصر البرونزي الوسيط [المتوسط] في سورية وفلسطين؟.» **مجلة جامعة دمشق:** العددان 1 - 2، 2006.
طومسون، توماس. «ما نعرفه وما لا نعرفه عن القدس في الفترة ما قبل الهيللينية.» **مهد الحضارات** (دمشق): عدد خاص بالقدس، 2009 - 2010.
عبد السلام، عادل. «الأرضية الجغرافية لمدينة القدس.» **مهد الحضارات** (دمشق): عدد خاص بالقدس، 2009 - 2010.
عبد الكريم، إبراهيم. «الحفريات الإسرائيلية حول الحرم القدسي (الأيديولوجيا - المجريات - النتائج).» **مجلة التعاون** (الرياض): السنة 16، العدد 54، شوال 1422هـ - كانون الأول/ديسمبر 2001.
علاونه، شامخ. «الحفريات الأثرية في مدينة القدس ما بين الأعوام (1863 - 2009) والحق التاريخي للعرب منذ تأسيسها (دراسة تاريخية).» **مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات** (فلسطين): السنة 1، العدد 27، حزيران/يونيو 2012.
قاسمية، خيرية. «نشاطات صندوق استكشاف فلسطين (1868 - 1915 م).» **شؤون فلسطينية** (بيروت): العدد 112، تموز/يوليو 1980.
القدس العربي (لندن): 15/4/1998.

كفافي، زيدان. «سلوان بين التوراة والآثار.» **المجلة العربية للعلوم الإنسانية** (الكويت): عدد خاص، تشرين الثاني/نوفمبر 2009.
_ . «القدس في العصرين البرونزي والحديدي الأسفار التوراتية مقابل النصوص التاريخية والآثار.» **مهد الحضارات**: عدد خاص بالقدس، 2009 - 2010.
_ . «القدسُ قبلَ الاحتلالِ اليونانيّ.» **أفكار** (عمّان): عدد خاص عن مدينة القدس، العدد 348، 2018.
مجلة علم الآثار التوراتي: تموز/يوليو - آب/أغسطس 1994.
هآرتس: 26/3/2004.

رسائل جامعية، أطروحات

أبو شمالة، شريف أمين. «التطور العمراني والمعماري لمدينة بيت المقدس في صدر الإسلام: (16 - 132 هـ/637 - 750م) دراسة تاريخية تحليلية.» (أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة ملايا، أكاديمية الدراسات الإسلامية، كوالالمبور، 2016).
الأعظمي، محمد مصطفى. «علماء كوبنهاجن وشيلفد يفضحون تزوير تاريخ إسرائيل القديم البروفيسور تومس طومسون نموذجًا.» **الجزيرة** (الرياض): العدد 10602، رجب 1422 - تشرين الأول/أكتوبر 2001.
الرحابنة، علي خالد. «العلاقات السياسية والتجارية المتبادلة بين مصر وجنوبي بلاد الشام خلال العصر البرونزي المتأخر (1550 - 1200 ق.م).» (رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، معهد الآثار والأنثروبولوجيا قسم الآثار، عمّان، 2003).
طهبوب، نشأت بهجت. «المصادر المائية في القدس وعمائرها في العصور الإسلامية.» (رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القدس - القدس، 2000).
العداربة، محمد يوسف. «نماذج من أنماط استيطان العصر البرونزي المتوسط في فلسطين.» (رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، معهد الآثار والأنثروبولوجيا قسم الآثار، عمّان، 2005).
العجور، محمد نايف أحمد. «أنماط الإستيطان البشري في شمالي الأردن في العصر البرونزي المتوسط الثاني MB11 (1550 - 1850 ق.م).» (رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، معهد الآثار والأنثروبولوجيا قسم الآثار، عمّان، 1997).
كفافي، جهاد محمد. «الأنظمة الدفاعية في فلسطين خلال العصر البرونزي المتوسط.» (رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، معهد الآثار والأنثروبولوجيا قسم الآثار، عمّان، 1999).
مزاهرة، نجد اسبير. «المجتمعات البدوية في بلاد الشام في العصر البرونزي المتأخر (1550 - 1200 ق.م).» (رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، معهد الآثار والأنثروبولوجيا قسم الآثار، عمّان، 2007 - 2008).

الوزني، ربا صالح. «دراسة للقوارير الفخارية القبرصية المكتشفة في جنوبي بلاد الشام: دراسة تحليلية مقارنة.» (رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، كلية الآثار والأنثروبولوجيا قسم الآثار، عمّان، 1996).

ندوات، مؤتمرات

مؤتمر القدس، جامعة القاهرة، كلية الآداب، قسم التاريخ، ومركز بحوث الدراسات التاريخية 21 - 23 آذار/مارس 1998.

ندوات القدس 5000 عام، تموز/يوليو 1997.

ندوة في المركز الثقافي العربي في كفر سوسة، كانون الثاني/يناير 2011.

دراسات إلكترونية

الدبش، أحمد. «اختلاق بردية يروشالمه.» البديل، 11 أيار/مايو 2016، <http://albedaiah.com/articles/2016/11/05/124477>.

_ . «اختلاق تاريخ وجغرافيا «إسرائيل» (1).» باب الواد، 27 تشرين الأول/أكتوبر 2017، <https://bit.ly/3bN42Fl>.

«الرمانة العاجية ليست من زمن سليمان.» بي بي سي، 25 كانون الأول/ديسمبر 2004، <http://news.bbc.co.uk/hi/arabic/middle_east_news/newsid_4124000/41248.stm>.

منشورات مؤسسة «عمق شبيه». «علم الآثار في ظل الصراع.» <https://alt-arch.org/ar/wp-content/uploads/2014/01/Booklet-Ar.pdf>.

_ . «القدس السفلى حفر جحور وأنفاق تحتية (تحت الأرض) بمنطقة الحوض المقدس.»<https://alt-arch.org/ar/tunnels-arabic>.

_ . «مستقبل آخر للأثريات اقتراح للحفاظ على المواقع الأثرية كجزء من الحل السياسي للقدس.» <https://alt-arch.org/ar/another-future-ar>.

_ . «نشاطات أثرية مركزية في البلدة القديمة عام 2011 وتأثيراتها الاجتماعية - السياسية،» <https://alt-arch.org/ar/archaeology-2011-ar>.

٢ - الأجنبية

Books

Hopkins, I. W. J. *Jerusalem: A Study in Urban Geography*. Michigan, MI: Baker Book House, 1970.